الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح ياسر

مجلس التحرير

حمدان يوسف حيدر سعيد

رائد فهمي زهير الجزائري

سامي خالد سعدي يوسف

عزيز سباهي كامل شياع

الفريد سمعان هادي محمود

مهدي محمد علي

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

342

اغلق تحرير العدد في 28 شباط 2011

السعر :2000 دينار

الاشتراك السنوي :)6أعداد(: 50 دولار أو ما يعادلها و100 دولار للمؤسسات.
إيميل رئيسة هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
إيميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد - شارع أبو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل المبالغ على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

شروط النشر للمساهمة في التحرير هيئة تجري على المواد المرسلة للنشر:
*أن تكون المقالة مسوّنة بشروط النشر العلمية من حيث وضوح السمة وسلامة اللغة.
* ألا تزيد المادة عن 4000 كلمة.
* ان تكون المادة مع أصدقاء المجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت سابقاً في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر وبمسافة مزدوجة أو مرسلة بالبريد الالكتروني على قرص مدمج. أما المقالات المكتوبة بخط اليد فتخضع للتقييم الصارم بالاعتماد على الأصالة والجدة في الطرح والمعالجة، وتعاد الى أصحابها في حالة عدم النشر.
* لا تعاد المادة المرسلة للنشر، وتحتفظ المجلة بحق إعادة صياغة المواد المرسلة بما يتلاءم مع سياسة المجلة.
* يسمح باقتباس المادة المنشورة في المجلة شريطة الإشارة الى المصدر.
* للمجلة حق إعادة أو داد الاخراج أو الاختصار التي تراها مناسبة.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

محتويات العدد

كلمة العدد

مقالات

10- في قضايا الإسكان..... مظفر علي الجابري
15- سوق العمل والحد من البطالة .....كاظم شمخي عامر
27- الفكر القومي العربي وسماته التاريخية..... لطفي حاتم
34- أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود..... هاشم نعمة

نصوص قديمة

41- اقتصاد أمريكا وانعكاساته الخارجية: مقابلة مع د. عباس النصراوي..... الثقافة الجديدة

طاولة مستديرة

52- حوار حول الموازنة الاتحادية لعام 2011

نصوص مترجمة

65- أمولة التراكم: جون فوستر..... ترجمة: ثامر الصفار
77- (65 عاماً في خدمة الغرب: يورغ روزلر).....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

85- (الثقافة الجديدة) تحاور الناقد بشير حاجم..... قاسم العزاوي

أدب وفـــن

100- **أديب ديمتري ... وداعا !**

قصة

102- ابن الجدةّ.....سلام حربة
108- رجل الثلج.....قاسم حول
112- ابتسامة أمي.....محمد عباس على داود

شعر

115- عَرَق السواقي.....إسماعيل جاسم
117- مجموعة قصائد.....حسينة بنيان
120- يوميات مدينة (الجزء الثاني).....عبد الستار نور علي
123- لماذا الراحل ينتظر؟ .....مالك عبدون
125- شقيق الفجر.....كاظم ناصر السعدي

قراءات

126- الأقنعة والوجوه.....علي إبراهيم
135- الحواضن السردية تحديد لأفق القراءة.....أمجد نجم الزيدي
139- المحظور والتخيل في السرد الروائي .....حميد الربيعي
144- عالم سحار في رواية للناشئة.....جميل الشبيبي

لوحة الغلاف الأول:الفنان عامر ألعبيدي، فنان عراقي من جيل ما بعد الرواد له العديد من المعارض الشخصية والمشتركة في الداخل والخارج.

لوحة الغلاف الأخير:للراحل ناجي السنجري، فنان تشكيلي أقام العديد من المعارض الشخصية والمشتركة في داخل العراق وخارجه.

كلمة العدد

كنا خلال الأسابيع الأخيرة شهود زلزالين سياسيين كبيرين تلتهما العديد من " الهزات الارتدادية ". فقد نجحت " ثورة الياسمين " في تونس وثورة " 25 يناير " في مصر. وتحت الرماد يغلي مرجل التغيير في بلدان عربية أخرى من بينها الجزائر وعمان والسعودية والأردن..الخ. كما شهدت بلادنا تظاهرات واسعة في 2011/2/25 و 4 آذار 2011 والتي جاءت تتويجا لحركة الاحتجاجات المطلبية التي عمت العاصمة بغداد ومعظم المحافظات العراقية، داعية الى وضع حدٍ لمعاناة المواطنين المتفاقمة جراء تردي الأوضاع المعيشية وتفشي الفقر والبطالة، وتدهور الخدمات، واستشراء الفساد المالي والإداري، وتعمق واتساع مشاعر الإحباط والسخط على زيف الوعود المتكررة التي قدمتها القوى السياسية المتنفذة.

وإذا كانت الأحداث لم تنجلِ تماماً، ولا تكشّفت احتمالاتها بعد، لكنها من دون شك تنتمي إلى زمن آخر، زمن يمكن فيه لشعوبنا أن تفاجئ العالم وتخطف أنفاسه. ولهذا فان من المهم إعمال العقل لاستخلاص الدروس العامة المشتركة في هذه الانتفاضات الشعبية العارمة. ودون الدخول في التفاصيل يمكن الإشارة الى الدروس التالية:

- **إن تواصل رياح التغيير اندفاعها في العديد من البلدان العربية، أكدت أن نظم الطغيان والاستبداد، مرفوضة وتسير ضد المجرى الموضوعي للتاريخ وستغادره غير مأسوف عليها.** كما أكدت الانتفاضات الشعبية أن التغيير ممكن ضد هذه الأنظمة؛ وضد الفساد والاستغلال والإفقار ونهب الثروات، وضد رهن الاقتصادات الوطنية لصندوق النقد والبنك الدوليين، وتحويل وظيفة الدولة الى دركي أو خفير للدفاع عن هيمنة القوى المتنفذة.

- **جدلية العلاقة بين الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية وفشل محاولات الفصل بينهما أو تغليب إحداهما على الأخرى.** فلا ديمقراطية حقيقية بدون عدالة اجتماعية، ولا ديمقراطية بدون دولة القانون والمؤسسات. فقد بيّن مسار الأحداث أن مدى حساسية المتظاهرين من البطالة وعدائهم للنظام الاقتصادي النيوليبرالي مربوطة بحساسيتهم بأهمية العدالة الاجتماعية والكرامة والحريات الفردية والجماعية. ومن هنا لا بد من تخطئة النظرة أو الاعتقاد، بأن مجرد رفع المستوى المعيشي للمواطن وتوفير القدر المعقول من احتياجاته من مأكل وملبس ومسكن وتعليم وصحة....الخ، كاف لأن يلتزم هذا المواطن الصمت ويرضى بحكم الطغيان والاستبداد. وإذا كان من الصعب، في الوقت الراهن، التكهن بطبيعة النموذج الذي تتجه نحوه البلدان التي تجري فيها عمليات الحراك الاجتماعي الواسعة والانتفاضات الشعبية، لكن الوقائع تؤكد أن التونسيين والمصريين والعراقيين والليبيين

واليمنيين والبحرينيين... الخ تقودهم إرادة الحصول؟ ؟على حقوق اجتماعية واسعة، وفرض الاعتراف بالحقوق والحريات العامة والخاصة، فليس فقط بالخبز وحده يحيا الإنسان.

– إن الوعي بضرورة التغيير ليس وليد الصدفة، وإنما هو نتاج عملية تطور تراكمي متواصل، يتولد من خلال المعاناة والشعور بالغبن وضرورة إزالته، كما يتغذى باستلهام دروس المقاومة والاستنهاض. إن هذه الملاحظات تدفعنا الى تخطئة النظرة التي ترى أن ما حدث في العديد من البلدان العربية هو توقيت ذاتي ارادوي لانفجار الأحداث تهيمن عليه العفوية. الأمر ليس كذلك، فإلى جانب عمليات الاستقطاب الاجتماعي وتفاقم التناقضات وتعاظم التهميش شهد العالم في السنين الأخيرة تحولات و تطورات كثيرة توجت بما شهدناه في2010/09/15 حيث تفجرت أزمة مالية عالمية تطورت لاحقا الى أزمة اقتصادية عميقة، ما زالت تتفاعل، وما ارتبط بها من تحولات و تطورات كثيرة. فهذه السنوات وهي سنوات الأزمة المالية الاقتصادية العالمية، قد هزت مختلف مناطق العالم وان بدرجات متفاوتة ووصلت آثارها بشكل مباشر الى الكثير من البلدان النامية ومنها بلداننا العربية. وما حصل في مصر وفي تونس، وفي البلدان العربية الأخرى أيضا، يؤشر وبالدليل القاطع فشل النهج اللبرالي الجديد ومن راهنوا عليه. فهذا النهج هو الذي أدى الى تعاظم الاستقطاب الاجتماعي ومفاقمة الفقر وتركز الثروة في أيدي حفنة قليلة على حساب تهميش قطاعات واسعة من المجتمع. وفي مثل هذه الأوضاع، حيث يتم إقصاء قطاعات واسعة من حقلي الإنتاج والاستهلاك تصبح القوى الاجتماعية المقصاة قنابل اجتماعية موقوتة، وبذا لن تكون الانفجارات الشعبية ممكنة فحسب، بل مؤكدة.

– واللحظة المهمة التي ينبغي تسجيلها هنا هي الانتقال من التعبيرات الصامتة لدى الشباب أو اللامبالاة بالشأن العام والانصراف عن السياسة، كما كان يزعم كثيرون، ليتحول الى قاطرات محركة لعمليات الحراك الاجتماعي. فمثلا على الرغم من شراسة قوى النظامين المصري والتونسي ومن ثم الليبي واستخدامهم لحالة الطوارئ الدائمة والقمع والاستخدام المفرط للعنف تجاه المتظاهرين فإنهم لم ينجحوا في كبح عنفوان الجموع المليونية الثائرة، لدرجة أن بطش قوى القمع أصبح عامل قوة وتوحيد للمنتفضين وتجذيرا لمطالبهم التي كانت ترتفع كلما تصاعد سقف القمع وحدّته. ففي البداية، تصدرت مطالب المتظاهرين القضايا الاقتصادية –الاجتماعية العامة ولكن عندما صعّدت قوى القمع الحكومية إجراءاتها لكبح جماح المظاهرات لتحطيم إرادة المتظاهرين حتى ارتفع سقف المطالب الى طرح مطلب إسقاط النظام وكان لهم ذلك.

– من زاوية أخرى، فإن **النقلة الهائلة في عالم تكنولوجيا الاتصالات لها مآلاتها الإيجابية على انتفاضات شعوب البلدان العربية من أجل التغيير السياسي والاجتماعي والتوحد تحت مفاهيم الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.** فقد ساهمت في عولمة انتشار المعلومة، قافزة بالوعي الجمعي قفزات هائلة. والنتيجة هي اتساع قطاعات المجتمع التي باتت قادرة على معرفة ما يدور حولها ودراسته ومن ثم تحديد أدوارها فيه، من أجل تحقيق تطلعاتها المشروعة لعالم أكثر عدالة ومساواة. ويمكن القول إذن

أن الاحتجاجات والانتفاضات الشعبية كشفت فاعلية شبكة الانترنت في نقل أخبار هذه الفعاليات وتوثيقها وتعميم خبراتها، وشكلت بذلك عالماً موازياً خاض المحتجون والقوى الحاكمة معاركهم فيه بالتوازي مع معارك العالم الواقعي.

– إن هذا التجاوب والتعاقب في انتقال الانتفاضات من تونس الى مصر الى اليمن والأردن، الى العراق والبحرين الى الجزائر وعُمان يبين أن كل المحاولات لتحقيق " الشرق الأوسط الجديد " لم ولن يكتب لها النجاح وإن وهذه الانتفاضات السلمية يمكن أن تشكل بداية نهوض جديد لحركة التحرر في البلدان العربية سيكون له تأثيره على المنطقة و العالم، مما يتطلب ضرورة إيجاد أشكال أفضل للعمل المشترك بين قوى اليسار والديمقراطية، على صعيد كل بلد، وعلى صعيد البلدان العربية.

– إن قيام المجتمع الدولي، شعبيا ورسميا، بالتضامن مع هذه الانتفاضات السلمية، وإدانة ما تعرضت و تتعرض له من قمع واستخدام العنف ضد المدنيين من قبل السلطات الحاكمة برهان على تفهم أعمق لأهمية الدفاع عن حقوق الإنسان، وإدراك العلاقة الجدلية بين الديمقراطية داخل كل بلد وتحقيق الأمن والسلام ، إقليميا و عالميا.

وإذ نحن نتحدث عن ما يجري في معظم البلدان العربية من حراك اجتماعي واسع، يهدف الى إحداث تغييرات ديمقراطية، توج في بعضها على هيئة انتفاضات شعبية سلمية نجح قسم منها في الإطاحة بالنظم الحاكمة، فانه **يجب عدم إهمال ما يجري في بلادنا من نهوض جماهيري** شمل القسم الأعظم من المحافظات، يؤكد أن العراق ليس بمعزل عن التأثر بتداعيات ما يجري في العديد من البلدان العربية. فالمكاسب الضئيلة أساسا يمكن أن تتعرض للتلاشي إذا بقى الوضع المعيشي والخدمي على حاله، وتنامي نزعات التجاوز على الحريات الفردية والجماعية. كما أن الشق الاجتماعي لا يمكن الاستهانة به، إذ يوجد في العراق اليوم أكثر من 7 ملايين مواطن تحت خط الفقر، وتبلغ البطالة والبطالة المقنعة، والعمالة الناقصة، نسب مرتفعة قد تتجاوز30 بالمائة، علما أن الشباب أكثر فئات المجتمع تعرضاً لآفة البطالة التي تفاقمت بمديّات واسعة. وإضافة لذلك فان عمق التفاوتات الاجتماعية والاستقطاب والفوارق في توزيع الثروة والدخل في المجتمع العراقي واشتداد مظاهر هذا التفاوت طبقيا واجتماعيا قد اتخذت أشكالا صارخة. وقد نجم عن ذلك، بالتبعية، أن هناك تباينات شديدة تحدث الآن في مستوى معيشة الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة طبقا للتغير الذي حدث في مداخيلها وأثّر على مواقعها الاقتصادية. علما أن التمايز الاجتماعي لم يكن قاصرا على التمايز بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وإنما امتد أيضا حتى داخل صفوف تلك الطبقات. ومن المؤكد أن التردي في الأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية، وما يرافقه من احتقان وتوترات اجتماعية خطيرة، يرجع بشكل أساسي الى نهج المحاصصة الطائفية والقومية السيئ الصيت.

إن الاحتجاجات الشعبية المتصاعدة، والتظاهرات التي عمت إرجاء البلاد وخصوصا ما جرى يوم الخامس والعشرين من شباط ، والرابع من آذار2011 هي تعبير صادق عن مطالب الشعب المشروعة، في التغيير وتحقيق إصلاح جذري للنظام السياسي القائم، يقوم

أولا وقبل كل شيء على إنهاء المحاصصة البغيضة، وبناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية. وقد اظهر المواطنون والمواطنات المحتجون، في الغالب الأعم، قدرا كبيرا من الوعي والشعور بالمسؤولية والانضباط، وجرت المحافظة على الطابع السلمي والحضاري للتظاهرات بشكل يستحقون عليه الثناء والتقدير .

وهنا لا بد من التوقف عند ما جرى يوم 2/25 من أحداث في بلادنا أثناء المظاهرات وما قامت به بعض الأجهزة الأمنية من استخدام مفرط للقوة، من دون التمييز بين هذه النشاطات الاحتجاجية المشروعة والمساعي التخريبية للقوى المعادية للشعب. لقد أدى هذا الاستخدام للقوة الى سقوط قتلى وجرحى في بعض المحافظات والمدن مما حدا بأوساط عديدة محلية ودولية بما فيها منظمة العفو الدولية الى إصدار بيانات دعت فيه الحكومة المركزية وحكومة إقليم كردستان لضمان عدم استخدام القوة المفرطة ضد المتظاهرين وكبح جماح قوات الأمن التابعة لها، والى تقديم المسؤولين عن القتل والذين أصدروا الأوامر الى المحكمة. هذا مع العلم أن هذه المظاهرات أيضا شهدت حدوث اعتقالات عديدة طالت من بين ما طالته صحفيين وكتاب ونشطاء سياسيين تعرضوا لتعذيب وإهانة غير مبررة تحت أية ذرائع.

إن ما قام به بعض المتظاهرين، وهم قلة على أية حال، من أفعال غير مقبولة لا يبرر بأي شكل كان ممارسات بعض القوى الأمنية التي اتخذت صيغة العقاب الجماعي والتي لا تستحق -أي تلك الممارسات - سوى الإدانة لأنها تتعارض مع ابسط قواعد النظام الديمقراطي ومع مواد الدستور العراقي الذي كفل حق التظاهر والتجمع وإبداء الرأي. وكما معروف فان على "السلطات تقع مسؤولية حماية السكان وضرورة احترام حريتي التجمع السلمي و التعبير، بما في ذلك حرية وسائل الإعلام، ومحاسبة المسؤولين عن الهجمات الموجهة ضد المدنيين " كما أكد قرار مجلس الأمن رقم 1970. أما إطلاق النار والعنف فممارسات تعود في الواقع الى حقبة الدكتاتورية التي يفترض أننا تجاوزناها الى حقبة الدولة الديمقراطية المعاصرة.

ومما لاشك فيه أن التلكؤ في الاستجابة لمطالب الشعب الملحة، التي لا تقبل التأجيل، أو التنكر لها والانغماس في الصراع على السلطة والنفوذ والثروة، لن يمكنه وقف التوق العارم للشعب الى التغيير والإصلاح والديمقراطية الحقيقية وليس الشكلية.

حري بالجميع تعلم الدروس الثمينة من تجربة "تسونامي" التغيير الذي تشهده منطقتنا وما زالت رياحه عاصفة ولن تهدأ. ومن المؤكد أن إرادة الشعوب التواقة الى الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية والسيادة التامة ستنتصر في نهاية المطاف، مهما طال الزمن وعظمت التضحيات.

مقـــــالات

في قضايا السكان

أ.د.مظفر علي الجابري❖

دراسة (سياسة الاسكان الوطنية في العراق)

قامت وزارة الاعمار والاسكان مشكورة بتكليف منظمة المستوطنات البشرية التابعة للامم المتحدة (هابيتات) باجراء دراسة موسعة لسياسة الاسكان في العراق التي يمكن على اساسها ايجاد سبل منهجية لحل الازمة المتفاقمة والحاجة المتزايدة للوحدات السكنية في العراق.

حيث ان الدولة العراقية ومنذ نهاية السبعينات لم تساهم بانشاء اي مشاريع اسكانية في العراق سوى باعداد متواضعة جدا، وربما الاقتصار على توزيع قطع اراضٍ لانشاء المساكن مع بعض القروض من المصرف العقاري. وهذا النظام السكني يسمى (البناء الفردي) نسبة الى قيام الافراد ببناء منازل خاصة بهم، وهو نظام اصبح يعتبر متخلفا بالنسبة الى النظام الحديث في بناء مجمعات سكنية متكاملة من سكن وخدمات ومدارس واسواق وفضاءات حضرية ومماشٍ وغير ذلك من المستلزمات التي يوفرها التخطيط الحديث لتسهيل عملية السكن عمرانيا واجتماعيا.

وقد قامت منظمة المستوطنات البشرية (هابيتات) بتكليف احدى المؤسسات العالمية المعروفة وهي مؤسسة (أيكوم) AECOM للقيام بهذه الدراسة ووضع منهجية للعمل لاعادة هيكلة نظام الاسكان في العراق وتيسير عملية تاسيس (سوق) للاسكان تتوازن فيه عمليتا العرض والطلب على السكن باعتباره سلعة اقتصادية مادية مطلوبة بالحاح شديد. مع الاشارة الى ان مؤسسة (ايكوم) نفسها قامت بدراسة احصائية لوضع الاسكان في العراق عام 2006 بعنوان (دراسة سوق السكن العراقية).

ومن الضروري التاكيد على ان الدراسة المطلوبة هذه هي ليس وضع استراتيجيات للاسكان في العراق مثل الدراسة التي قامت بها مؤسسة (بولسرفس) في السبعينات من القرن الماضي، حيث ان الاستراتيجيات قامت بدراسات موسعة استغرقت وقتا طويلا ومسوحات تفصيلية لجميع المناطق السكنية في العراق (ريف وحضر)، ووضع تصاميم ومعايير وكلف لنماذج مختلفة من الوحدات السكنية.

اما دراسة الاسكان التي قامت بها مؤسسة (ايكوم) فتختلف من حيث طبيعتها، فهي اكدت فقط على المشاكل والاختناقات التي يعاني منها قطاع الاسكان في العراق، ووضع مناهج لاعادة هيكلة هذا القطاع، وطرق ارشادية لكيفية التمويل، وترشيد

القرارات السياسية لتسهيل هذه المهمة.

وقد تم اكمال هذه الدراسة وتقديمها في شهر تشرين ثاني 2010، ومن ثم قدمت الى مجلس الوزراء وتمت مصادقة المجلس عليها في نفس الشهر.

ويمكن تلخيص محتوى دراسة (سياسة الاسكان في العراق) باربعة محاور وكما يلي:

اولا : التخطيط والمتابعة :

اي وضع الخطط والهياكل التنظيمية والتشريعات القانونية لتخطيط ومتابعة العملية الاسكانية في العراق. وهذه تشمل :

1 – تشكيل (وحدة ابحاث) لسياسة الاسكان .. والتي اشار اليها التقرير بـ (وحدة دعم فني) تكون مهامها دراسة السياسة المقترحة وتوجيهها نحو وسائل التنفيذ في بغداد والمحافظات .. وتقديم المشورة الفنية، ووضع الضوابط والتشريعات والتعليمات، لمشاريع الاعمار السكنية، ودراسة المعوقات ان وجدت خلال مراحل التنفيذ.

2 – التأكيد على تفعيل دور (المجلس الاعلى للاسكان)، وجعله برئاسة نائب رئيس الوزراء لكي يأخذ دوره ومكانته في الحصول على الدعم الضروري لمناهج الاسكان من اعلى مسؤولي الدولة .. وجعل القرارات ملزمة لكافة دوائر الدولة، وبذلك يمكن الحصول على التسهيلات المطلوبة لتنفيذ عمليات الاسكان من تشريعات وتمويل و تهيئة اراضٍ وخدمات ..الخ للمشاريع الاسكانية.

3 – اهمية وضع اجراء شامل لجميع المشاريع الاسكانية في العراق، من المشاريع المقترحة او التي تحت التنفيذ، وذلك لمعرفة حجم (المعروض) في السوق السكني.

4 – الاشراف وتنظيم (سوق) السكن متمثلا بمقدار وامكانيات (المعروض) من الوحدات السكنية مقابل الحاجة والطلب على هذه الوحدات.

5 – دراسة مشاريع الاسكان التجريبية Pilot Projectsوتقويمها علميا وعمليا لمعرفة مدى نجاحها او اخفاقاتها.

ثانيا : مواد البناء وتخصيص المواقع والخدمات :

ان قطاع مواد البناء ليس مهما فقط لاغراض البناء السكني، ولكنه مهم للبناء غير السكني ايضا. وقضية الاداء في هذا القطاع اوسع من الاسكان في حد ذاته.

وتعاني البنية التحتية لمعامل مواد البناء للقطاعين العام والخاص من القدم ونقص قطع الغيار وانقطاع الكهرباء والتخريب والنهب في مرحلة مابعد الحرب.. والاهمال بصفة عامة خلال سنوات الحصار. وهذه العوامل تعيق زيادة الكفاءة التشغيلية، وتخفض الانتاج مما يولد الحاجة لاستيراد المواد الاساسية كالاسمنت والطابوق والاجزاء المصنعة كالنوافذ و لوازم السباكة والاجهزة الكهربائية.

ولتلبية الطلب المستقبلي على مواد البناء، يجب ان تحصل الشركات المعنية على المزيد من التمويل للاستثمار في مرافقها الانتاجية. ويفترض ان تقوم الحكومة بتيسير الاقراض من قبل المصارف التجارية لمنتجي مواد البناء. ويمكن تقديم قروض اضافية من قبل مصارف اخرى مثل المصرف الصناعي. كما ينبغي ان تقوم الحكومة بمساعدة منتجي مواد البناء للاستفادة من مجموعة واسعة من مصادر التمويل.

ان منتجي مواد البناء اليوم قليلو الكفاءة وفقا للمعايير الدولية.. وغالبا ما يفتقرون الى سبل الوصول الى احدث تقنيات الانتاج والموارد الرأسمالية اللازمة لتحديث مرافقهم واعمالهم. ويمكن ان توفر المشاريع المشتركة

بين منتجي مواد البناء في القطاع العام وشركات القطاع الخاص امكانية الحصول على تمويل افضل لترميم وتأهيل وتشييد المصانع، وتقديم الخبرة في مجال تحسين اساليب وتقنيات الانتاج.

كما ان من الضروري ان تمنح المزايا الضريبية والاعفاءات الكمركية لكل من القطاعين العام والخاص بشكل متكافيء من اجل فسح المجال للقدرة على المنافسة وتحسين الانتاج. ان دخول منتجي مواد البناء الاجانب الى السوق الوطنية العراقية من شأنه ان يحفز الكفاءة والابداع للشركات المحلية.

اما بشأن تخصيص المواقع وتوفير الاراضي لمشاريع الاسكان فمن الضروري البدء بتطوير الاراضي الفارغة الواقعة في محيط اراضي مطورة، وهو ما يسمى بسياسة (الاملاء الحضري) وكذلك قيام الحكومات المحلية وبلديات المحافظات باعداد قوائم جرد بقطع الاراضي القريبة من الخدمات، وتقييم ملائمة هذه الاراضي للتطوير الاسكاني ضمن مخططات (التصاميم الاساسية) لكل مدينة. كذلك الاعلان عن بيع بعض هذه الاراضي بالجملة لتطويرها كمجمعات سكنية متكاملة.

ومن الضروري العمل على ازالة الدعومات الكبيرة الحالية المقدمة لتخصيص الاراضي العائدة للدولة بدون ثمن او باسعار رمزية .. وتحديد اسعار لهذه الاراضي في النهاية على اساس قيم السوق. كذلك العمل على تبديل قانون التسجيل العقاري، والالزام بالتحول التدريجي الى نظام العمل (بالحاسوب الالكتروني)، وادخال جميع البيانات المتعلقة بالخصائص المادية والقانونية والمالية للارض بهذا النظام الالكتروني، بدلا من المعاملات الورقية.

ثالثا : سوق التمويل السكني :

في سياسات الاسكان الوطنية في العراق، من الضروري ان تضمن الحكومة تنظيم (سوق) للتمويل السكني كجزء من القطاع المالي ككل. ويستدعي الامر وضع قانون جديد لتمويل الاسكان، بالاضافة الى تعليمات التطبيق المرافقة له، وذلك لضمان حصول الجهات المقرضة على مايكفي من الضمانات في حال تعثر القروض، بحيث يتضمن القانون على الاحكام المتعلقة بالحجز واعادة التمليك واعادة بيع الضمانات.

وبدلا من اعتماد قانون واحد شامل لموضوعات الاسكان لتنظيم هذا القطاع، فان من الافضل ان تتخذ الحكومة العراقية نهجا اكثر تدرجا يتم من خلاله تغيير الاطار التنظيمي والتشريعي لعدد من مختلف النواحي المتعلقة بقطاع الاسكان. ويتم ذلك من خلال القوانين الجديدة او التعديلات على القوانين الحالية. وقد يشمل هذا على سبيل المثال قانونا جديدا (لتمويل الاسكان) .. وتنفيذ الانظمة والتعليمات المنبثقة من قانون المحافظات .. وتعديل الانظمة الحالية المتعلقة بالهيئة العامة للاسكان .. وغيرها من التعديلات.

فبعد ان كان المصرف العقاري وصندوق الاسكان يقدمان القروض الى موظفي الدولة مباشرة، يمكن ان يتم تعديل هذا النظام الى طريقة ان يقوم المصرف العقاري وصندوق الاسكان بتقديم القروض المدعومة الى مجموعة منتخبة من (المصارف التجارية) بعد تأهيلها من اجل ان تقوم هذه المصارف بتقديم القروض الى جميع المواطنين وبفوائد مدعومة من الدولة بعد اخذ الضمانات الكافية التي تؤمن لهذه المصارف من استرداد قروضها. سيما وان للمصارف اساليبها المتخصصة في طرق وكيفية

استـرداد القـروض او الحجـز واعـادة الاستملاك وتسوية القروض وغير ذلك من الاساليب التي يصعب على صندوق الاسكان او المصرف العقاري القيام بها.

وهذا يتطلب كما اسلفنا وضع القوانين والتشريعات بالتعاون مع وزارة المالية. كما يفترض ان تشمل القروض بالدرجة الرئيسة اقراض شركات الاسكان العامة او الخاصة، من اجل تشييد مجمعات سكنية متكاملة بالاضافة الى الاقراض لتوسيع المساكن المشيدة او الاضافات او الترميم.

رابعا : تنفيذ المشاريع الاسكانية والاشراف عليها:

ان عملية تنفيذ الاصلاح لقطاع الاسكان الذي تقترحه دراسة (سياسة الاسكان الوطنية في العراق)، سيتم تنفيذه على نطاق واسع ويكون على مسارين متصلين: (الاصلاح المؤسسي) ثم (تطوير التنظيمات).

وعلى هذا الاساس سوف تصاغ القوانين و الانظمة او تعديل بعضها .. لتمكين القطاع الخاص من توفير المشاريع السكنية على نطاق واسع. وفي الوقت نفسه يعاد تنظيم مؤسسات القطاع العام لانجاز ادوارها الجديدة من خلال التغييرات الهيكلية والاجرائية، فضلا عن الموارد البشرية.

وعلى المستوى المحلي، تبدأ المشروعات التجريبية Pilot Projects في المجالات الرئيسة مثل تطوير مناطق (الاملاء الحضري)، ضمن المناطق السكنية المشيدة. ثم الشراكات بين القطاعين العام والخاص، من اجل تطوير الاراضي وتهيئتها لتشييد المشاريع الاسكانية. ثم اختبار المناهج المبتكرة ودراستها والتحقق منها. وسوف تعمم المشاريع الناجحة على مواقع اخرى في انحاء البلاد .

ولغرض انجاح اصلاح قطاع الاسكان والمشاريع التجريبية، يحتاج الى اشراك الشركات السكنية الخاصة، واقراض المال لها، ثم دراسة نتائج هذه السياسة ومراجعتها بصورة دورية.

ومن المتوقع اتخاذ الاجراءات الرئيسة المقترحة لسياسة الاسكان في غضون خمس سنوات .. في حين يستغرق تحقيق اهداف هذه السياسة وقتا اطول. ومن الممكن ان تبدأ جميع المشاريع الرئيسة قبل عام 2015 للبدء بجني الفوائد المرجوة من قطاع الاسكان المنتج والمرشد .

وفي الوقت نفسه تركز شركات المقاولات الحكومية انشطتها للانتاج السكني على الفئات المحتاجة والضعيفة اقتصاديا في المجتمع، مثل عديمي الدخل والارامل والمعاقين والنازحين.

وفي قطاع شركات الاسكان الخاصة هناك تمييز بين شركات البناء والتطوير الصغيرة، والمتوسطة، وشركات التطوير الكبرى. لان الاخيرة هي دون المستوى المنشود في العراق اليوم. ويمكن ان تسهم مثل هذه الشركات الكبرى في المستقبل اسهاما اكثر اهمية في انتاج السكن. وان من الضروري في نهاية المطاف خلق شريحة واسعة من احجام الشركات في سوق شراء وبيع المساكن في العراق .

ويمكن التاكيد بان معالجة (العشوائيات) السكنية المنتشرة على اطراف المدن في العراق واعادة تنظيمها وتطويرها، او اعادة اسكانها واجراء التعويض العادل، وهو امر يضطلع به ويشرف عليه القطاع العام.

بالاضافة الى ضرورة الاشارة الى اهمية موضوع الحفاظ العمراني، وتحديد (مناطق) متكاملة للحفاظ عليها كمناطق تراثية.

ويود الباحث في الختام الى تقديم بعض

الملاحظات التي يراها ضرورية في هذا المجال او التأكيد عليها في حال اشارت اليها الدراسة وهي كما يلي:

1- نظرا للاهمية الكبيرة التي يضطلع بها قطاع الاسكان في الاقتصاد الوطني وامتصاص البطالة، وحجم الحاجة غير الاعتيادية لضخ اعداد كبرى من الوحدات السكنية في العراق، نقترح تأسيس وزارة خاصة باسم (وزارة الاسكان)، وفصلها عن وزارة الاعمار والاسكان، نظرا لان حركة الاعمار من طرق وجسور ومبان حكومية، هي المهيمن على معظم نشاطات وفعاليات الوزارة حاليا، وعلى حساب حركة الاسكان والتشييد السكني.

2- تخصيص مبالغ لاتقل عن 5٪ من الميزانية العامة للدولة لدعم وتمويل عملية انشاء الوحدات السكنية. وهذه النسبة توصي بها منظمة الامم المتحدة والبنك الدولي .

3- اعادة تفعيل (المجلس الاعلى للاسكان)، وان يكون برئاسة السيد نائب رئيس الوزراء وذلك لتمكينه من اتخاذ القرارات من اعلى جهات الدولة لتسهيل وتيسير خطط الاصلاح المؤسسي للاسكان وتطوير التنظيمات وتوفير الموارد المالية واقرار التشريعات المطلوبة، للتمكين من اعادة هيكلة قطاع الاسكان و فك الاختناقات او التلكؤ التي تصادفها عملية تنفيذ المجمعات السكنية.

4- ضرورة تفرغ (الهيئة العامة للاسكان) لاعمال البحوث والدراسات ووضع المعايير وتشخيص الاولويات والاشراف على مجمل سياسات الاسكان .

5- البدء بدراسة امكانيات اقامة الشراكات بين شركات المقاولات الحكومية للاسكان وبين شركات القطاع الخاص، من اجل تدريب وتمكين ودعم شركات القطاع الخاص لتأهيلها وجعلها تأخذ المبادرات في تنفيذ اعداد اكبرمن المجمعات السكنية والالتزام بالمعايير والضوابط التي تضعها الدولة في موضوع الاسكان. ويمكن البدء من الان بمشاريع تجريبية في هذا الاتجاه.

6- توجيه شركات المقاولات الحكومية بتوفير السكن المدعوم والمجاني لعديمي الدخل من المهمشين والضعفاء اقتصاديا.

7- التأكيد على وزارة الصناعة بضرورة دعم واعادة تأهيل معامل مواد البناء، وتشجيع الاستثمار في هذا المجال .

❖استشاري تخطيط حضري واسكان

سوق العمل والحد من البطالة

كـاظم شمخي عـامـر❖

كـاظم شمخي عـامـر، مـواليـد 1950، بكالوريوس لغة انكليزية، يواصل البحث العلمي والاجتماعي، وله بحوث ودراسات في مجالات معرفية متعددة، ويلقي محاضرات اسبوعية عن قضايا العمل والعمال والشؤون الاجتماعية، وعلاقته وثيقة بالعمل النقابي، إذ كان مثقفاً عمالياً في المراكز النقابية ورئيساً للجنة التحضيرية للأنتخابات العمالية، وعضواً في لجنة الحريات النقابية في منظمة العمل العربية وعضواً لمجلس ادارتها ايضاً، وساهم في اعداد تشريعات عمالية بعد 2003 م . حضر مؤتمرات العمل الدولية في جنيف وساهم في لجانها الفنية ، ونقل تجارب دولية في مجال اعانة العاطلين والقروض الصغيرة ومسوحات سوق العمل وستراتيجية الحد من الفقر وبرنامج العمل اللائق، والحوار الاجتماعي وغيرها ... وحالياً نائب رئيس تحرير مجلة "العمل والمجتمع" التي تصدرها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

التركيب السكاني وطبيعة سوق العمل

تكتسب معلومات سوق العمل اهمية خاصة في رسم خطط التنمية في دول العالم كافة ، ولها تأثير واسع وسريع على فعالية القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، وحركة العرض والطلب وضرورات التوازن بينهما وهو الهدف الكبير الذي تسعى من أجله المجتمعات كافة.

ولما كان العمل حق دستوري لكل مواطن ومن اولويات الحاجات الملحة لكل انسان ايضاً ، فأن قضية توفير فرص كافية ولائقة ومستمرة تعد في مقدمة القضايا التي تعلق الامم والشعوب عليها آمالاً كبيرة. فأن العيش الكريم وليد العمل الشريف والحياة المستقرة من افرازات سوق العمل المتوازن

والعكس صحيح ايضاً. لذلك تسعى المجتمعات الى ايلاء معلومات سوق العمل اهتماماً خاصاً لأنها تشكل قاعدة معرفية ومصدراً مهماً في السيطرة على معدلات البطالة بكل انواعها. وأن المجتمعات المستقرة التي تتكافأ فيها الحقوق والواجبات حريصة كل الحرص على خلق توازن فرص العمل لمن هم بحاجة الى العمل، وأخرى لمن يدخلون سوق العمل حديثاً. وتعتمد في متابعة ذلك وتقدير الاحتياجات الفعلية بناء على عمليات تعداد السكان الذي هو المصدر الاساس في معرفة الحجم الحقيقي للسكان وفئاته ومستوياته واتجاهات نموه وتطوره. وفي العراق لم تجر مسوحات دقيقة للسكان منذ العقد التاسع من القرن الماضي حتى الآن، وأن تأخيراً لهذه العملية لا مبرر له، واضراراً خطيرة بحق المجتمع، وتوانياً عن أداء المسؤولية التي تنتظر انجازها المراكز العلمية والدوائر التخطيطية في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والمالية والخدمية، للوقوف على حقيقة التركيبة السكانية في العراق.

لقد كانت مسوحات سوق العمل بعد عام 2003 قاصرة عن عكس واقع تركيب القوى العاملة عموماً والتي تبحث عن فرص عمل مناسبة خصوصاً، لذلك لا توجد احصاءات ومعلومات دقيقة عن البطالة وكانت وما تزال في الغالب تقديرات لعدد العاطلين الذين سجلوا رغبتهم في الحصول على العمل. اما العاطلون الذين يجهلون هذا الطريق فهم خارج احصاءات العمل الرسمية. وفيما يخص المنظمات الدولية فقد اعتمدت على تقديرات غير واقعية بسبب الاعتماد على المسح بالعينة لأعداد قليلة من السكان لا يمثلون الغالبية (مجتمع العينة)، وتعجز هذه العملية عن احصاء العاطلين في المناطق التي شهدت هجرة بينية في الداخل لأسباب كثيرة معروفة.

وليس خافياً ان التطورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية في عصرنا الحاضر، وسعة استخدام تقنيات الاتصالات وصلاتها المباشرة في حياة الناس، وحصر التغيرات النوعية في العلاقات الاجتماعية والانتاجية وانعكاساتها المباشرة على مستويات المعيشة والتعليم والتدريب التقني والمهني بجميع مستوياته وانواعه، اصبحت اليوم جزءاً مهماً في تحديد مستوى التنمية البشرية ، ومقياساً ضرورياً لكفاءة قوة العمل وأتجاهات تطورها.

ان تلبية احتياجات خطط التنمية وبرامج الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي تتطلب دقة في معرفة واقع السكان وقوة ضغط على هذه الخطط والبرامج ومنها البطالة بالذات ، فأية تنمية ناجحة في ظل البحث عن العمل وصعوبة الحصول عليه والعيش الكريم، وعندما يكون الانسان هدف التنمية ووسيلة انجازها لا بد ان تتيسر كل السبل من أجل استثمار طاقاته بالعمل وليس في البطالة.

تركيب السكان

لم تترك المجتمعات المتقدمة عملية نمو السكان على طبيعتها وانما تتدخل بما يضمن عملية توازن النمو السكاني في ضوء المؤثرات الثقافية والسياسية والتنموية، وتهدف من وراء ذلك التناسب الايجابي بين معدلات نمو السكان والنمو الاقتصادي للحفاظ على مستوى الرفاهية بمفهومها الواسع.

وفي العراق يجري النمو السكاني بصورة تلقائية دون تخطيط او تنظيم وللتخفيف من الضغط السكاني على خطط التنمية كان من المفروض التدخل المباشر في

المحافظة على تركيبة السكان بحيث تكون اكثر مقبولية ان لم تكن اكثر نموذجية حيث ان المجتمع العراقي رغم كل الكوارث والحروب يسجل اعلى معدل خصوبة في المنطقة العربية وخلال نصف قرن تضاعف عدد السكان خمس مرات عما كان عليه عام 1950 إذ يبلغ السكان حالياً 32 مليون نسمة.

وفيما يلي نستعرض التغيرات الحاصلة في تركيبة السكان في العراق حسب البيئة والجنس والعمر.

اولاً : السكان حسب البيئة:

من البداهة القول بأن تركيبة السكان حسب البيئة تعتمد بالأساس على التخصص الاقتصادي والقطاعي في المجتمع، فالمجتمعات الزراعية يكون فيها سكان الريف اكثر عدداً من الذين يقطنون المدن، أما المجتمعات التي تعتمد التطور الصناعي الواسع فأنها تعزز السياسات التنموية والاستثمارات في المدن اكثر من غيرها. وقد قامت مجتمعات اخرى بالمحافظة على التوازن بين الريف والمدينة في محاولة لأيقاف الهجرة الداخلية لأبقاء التوزيع البيئي متناسباً مع المطلب الاقتصادي الفعال.

وتكشف احصاءات السكان في العراق عن ارتفاع سكان الحضر مقارنة مع سكان الريف بنسبة 1/3 خلال العام 1997 وهو مؤشر يبين تضخم السكن الحضري وتغيير تركيبة المجتمع من ريفي وهي الطبيعة السائدة حتى عام 1958 الى حضري حتى الآن.

وقد ساهمت الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة في زيادة نمو معدل السكان الحضر بواقع45٪ للفترة بين 1960– 1980 وبسبب الظروف التي افرزتها الحرب العراقية –الايرانية انكمشت هذه الهجرة للفترة من 1980– 1995 حتى بلغت نسبة 29٪ اي ان الانخفاض كان بنسبة الثلثين تقريباً.

وعلاوة على ذلك ان الدولة وبدافع استثمار الاراضي الزراعية وزيادة انتاجيتها لتحقيق الاعتماد الذاتي على تأمين الغذاء لمواجهة قرارات الحصار الاقتصادي خلال العقد التاسع حددت الهجرة من الريف الى المدينة، وظهرت معالم الهجرة المعاكسة للأستفادة من فرص العمل في الريف التي خلقتها سياسات الدولة آنذاك.

كما ان العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية لما بعد عام 2003 لعبت دوراً مهماً في تغيير اتجاهات التوزيع البيئي للسكان حيث ساهم الوضع السياسي الجديد في زيادة الهجرة المعاكسة لترتفع نسبة السكان في الريف عام 2008 الى 35.8٪ على حساب السكن الحضري الذي شهد انخفاضاً ملحوظاً بسبب اعمال العنف والأرهاب حيث بلغت نسبة هذه الهجرة او الانخفاض10.67٪ في عام 2008

ثانياً: السكان حسب الجنس:

يميل المهتمون باحصاءات السكان الى اعتبار الحالة الزوجية مؤشراً لكشف حالة اجتماعية مهمة هي الاقبال على الزواج من جهة ومدى أنتشار ظاهرة الترمل والطلاق .وتعكس أيضاً انماط الزواج الحاصلة وما تؤول اليه في المستقبل ومثل هذه المعلومات تكون قاعدة لدراسة حالة الخصوبة وأثرها على النمو السكاني والحاجة الى الوحدات السكنية المضافة.

وتشير الاحصاءات الرسمية الى ان نسبة الذكور الى الاناث في العراق حافظت على توازنها وتساويها النسبي للفترة من 1970–

1980م مع تغير بسيط في هذه النسب نتيجة لظروف الهجرة الناجمة عن الارهاب بشكل خاص والبحث عن فرصة في سوق العمل الدولي بشكل عام ، وسجلت نسبة الذكور 50.9٪ ونسبة الاناث 49.1٪ من اجمالي السكان عام2008.

ثالثاً: السكان حسب العمر:

تتأثر تركيبة السكان بجملة من العوامل منها عامل الخصوبة والثقافة والمستوى المعيشي مثلما تفعل الحروب والكوارث والحصارات فعلها في توزيع السكان وتصنيفه وتركزه. وأن التركيب العمري للسكان له اهمية كبيرة في رسم السياسات والخطط والبرامج الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والصحية، ولعل ابرز ما يميز ديموغرافية العراق بأنها ذات صفة فنية وحيوية. ويمكن تصنيف الهرم السكاني كما يأتي:

أ- فئة السكان بين اقل من السنة 14 – سنة ويطلق عليه سن الطفولة.

ب- فئة السكان بين 15- 64 سنة ويطلق عليه سن العمل.

ت- فئة السكان من 65 سنة فأكثر ويطلق عليه خارج سن العمل.

وسجلت الاحصاءات الرسمية تطورات الفئة الاولى النسب الآتية:

عام 1970 = 45٪

عام 1987 = 47٪

عام 1997 = 44.2٪

عام 2008 = 38.49٪

أما الفئة الثانية وهي السكان في سن العمل من 15 سنة 45 سنة التي طرأت على معدلاتها تغيرات واضحة وكما ياتي:

عام 1970 = 8.49٪

عام 1987 = 47٪

عام 1997 = 52.2٪

عام2008 = 58.44 ٪

بينما الفئة العمرية الاخيرة من 65 سنة فأكثر فأنها شهدت هبوطاً وأرتفاعاً حالها حال الفئات العمرية الاخرى وكما يأتي:

عام 1970 =5.1 ٪

عام1987 = 3.4٪

عام 1997 = 2.8٪

عام 2008 = 3.7٪

ان التحديات الديموغرافية التي واجهت المجتمع العراقي ساهمت بشكل كبير في التشوهات السكانية التي حدثت فيه، ولعبت الظروف السياسية وافرازات الحرب والحصار والارهاب العالمي والعنف الطائفي دوراً خطيراً في ذلك. وكما هو معروف ان بغداد على سبيل المثال تعيش ظرفاً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً يختلف عن المحافظات الاخرى مما يجعل نسبة الخصوبة في بغداد أقل من غيرها (3.1–3.2٪) ويرتبط ذلك ايضاً بنسبة التعليم والتعلم حيث بلغت نسبة القراءة والكتابة فيها 71–78٪ حسب احصاءات عام 2004.

ومن الجدير بالذكر ان المجتمع العراقي يتصف بالتقوى والورع وتطبيق التعليمات الدينية بشكل عام والعلاقات الجنسية الشرعية بشكل خاص، حيث ان المواليد هي نتاج طبيعي لعلاقات زوجية شرعية.

ومما لا شك فيه ان الميل الى التكاثر او السلوك الديموغرافي لا يرتبط بعامل الغريزة وحفظ النوع فحسب وانما هناك عوامل اخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية مثل تحكم المستوى المعيشي بزيادة النسل وسعة الوحدات السكنية وقيم الثقافة ونظم القيم والسلوكيات المعاصرة، ولكن الاعتبار الاجتماعي للأسرة الكبيرة في الريف يعد أمراً مهماً حيث ان حجم الاسرة مصدر قوة

في العلاقات العشائرية ونمط الحياة الاجتماعية في العراق.

وحسب تعداد عام 1965 بلغ عدد الأسر التي افرادها من 5– 10 اشخاص5.6٪. وبلغ عدد الاسر التي افرادها من 10– اكثر اشخاص11.3٪ . وفي عام1987 بلغ المتوسط العام لحجم الاسرة المعيشية ٧,١٤ كانت في الحضر 6.94 وفي الريف 7.65 وفي عام 2004 بلغ المتوسط العام لحجم الاسرة المعيشية6.4 كانت في الحضر 6.1 وفي الريف 7.4

ولعدم توفر البيانات الوطنية عن علاقة الخصوبة بالعوامل الاخرى يتعذر استخلاص نصيب الفرد من الدخل القومي والقدرة على الاستهلاك وتوزيع القوى العاملة حسب القطاعات الاقتصادية والانتاجية غير الزراعية ودرجة التحضر العمراني وغير ذلك.

ويتضح مما تقدم ان توزيع السكان حسب الفئات العمرية تفيد الباحثين في دراسة مشكلة الاعالة ودراسة انماط الاستهلاك والتي تؤثر على الخصائص الاقتصادية للسكان.

ان التعدادات السكانية والمسوحات المرتبطة بها مصدر مهم في معرفة قوة العمل، وتركيباتها المهنية حسب المستويات التعليمية والعمرية والسكانية، وهي من متطلبات الاحتياجات الفعلية لخطط التنمية البشرية، ومدى قدرتها على استيعاب قوة العمل في ادارة وتشغيل المشاريع الاقتصادية.

المبحث الثاني: واقع البطالة في العراق وسياسات التشغيل

تعتبر البطالة بشكل عام مؤشراً على انعدام التوازن في سوق العمل، وهي ظاهرة دولية تعاني منها المجتمعات لكن تتفاوت النسب بين هذا المجتمع او ذاك. وأن البطالة أيضاً هي الفائض في قوة العمل في سوق العمل الذي يرغب بالعمل وقادر عليه، وأنها تتفاقم في الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية غير الطبيعية، حيث ان البطالة تنجم عن سوء التخطيط والتنظيم اللازمين للقوى الوطنية الطبيعية والروحية الاخرى. ومما لا شك فيه ان للبطالة علاقة وثيقة بالفقر وتدني مستويات المعيشة التي ترتبط بها آفات اجتماعية خطيرة لا حصر لها، وهي بلا جدال، ظاهرة اجتماعية تؤشر تهميش قوة عاملة هائلة وابعادها عن المساهمة في صنع التطور وزيادة الثروات بأنواعها في المجتمع.

وتعد ظاهرة البطالة في العراق ذات طبيعة هيكلية وهي نتيجة لتخلف وضعف اداء القطاعات الاقتصادية والاجتماعية بسبب سوء الادارة والتخطيط. وتفاوت معدلات البطالة بحسب الظروف السياسية في البلاد حيث شهد سوق العمل العراقي خلال العقود السابقة ظاهرتي الجذب، اي الحاجة الى قوة عمل اضافية مما تطلب ذلك تشغيل العمال الاجانب ومنهم العرب، وطارد ايضاً، اي عدم قدرة سوق العمل على خلق فرص كافية لتشغيل قوة العمل الباحثة والراغبة ، مما يضطرها ذلك الى الهجرة بحثاً عن العمل.

وعندما تسجل البطالة نسبة 5٪ حسب احصاءات عام1987 فلا يعني ذلك ان الدولة تبنت برنامجاً للتشغيل الكامل للحد من البطالة وإنما كان ذلك بسبب ظروف التعبئة العسكرية لتلبية ادامة الحرب للفترة من 80– 1988

ولكن العقد التاسع من القرن الماضي كان اخطر فترة شهدها سوق العمل بسبب

اجراءات رسمية للتقليل من آثار الحصار الاقتصادي الذي ساهم في فيض قوى عاملة هائلة فضلاً عن انحسار القطاعات الاقتصادية كافة وتضخم العمل الهامشي وهو من القطاعات غير المنظمة التي تشوه النمو المهني والاجتماعي لقوة العمل الوطنية. وليس عجباً ان ترتفع البطالة خلال هذه المرحلة الى 50٪ وبلغت الهجرة للعمل خارج البلاد بنسبة عالية لم يشهدها سوق العمل الوطني من قبل، وكان القطاعان الصحي والتعليمي من اكثر القطاعات الطاردة لقوة العمل.

ولعدم توفر بيانات احصائية دقيقة عن هذه المرحلة لها علاقة بالبطالة والفقر شحت الدراسات التحليلية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي بل ان السلطة آنذاك وضعت خطوطاً حمراء حول هاتين الظاهرتين. ولقد انطلقت هذه الدراسات في ما بعد2003 وصفاً ونقداً وتحليلاً، وربطت بين اسباب الماضي بمرارة الحاضر. وافرزت نتائج ومؤشرات جديرة بالاعتبار الا ان اغلب هذه الدراسات تفتقر الى البيانات الاحصائية مما جعلها ناقصة للعلمية والدقة المطلوبة.

ومما لا شك فيه ان البطالة في العراق أخذت تتفاقم بعد عام 2003 لأسباب تتعلق بأجراءات الظروف الانتقالية وأصلاح الاقتصاد الوطني وتداعيات الاحتلال وتأثيرات الارهاب والتهجير الطائفي الى جانب عوامل اخرى ذات صلة مباشرة بمستوى تنفيذ برامج التحديث واعادة الاعمار التي رافقها للأسف الشديد فساد مالي لا نظير له كما تشير الى ذلك تقارير منظمة الشفافية العالمية.

وعلاوة على ذلك، ان هذه الظاهرة التي اقلقت الدولة لم تعالج وفقاً لرؤية ستراتيجية شاملة، لأن الحد منها يتوقف على مستوى تنفيذ المشاريع الاستثمارية التي تخلق فرصاً للعمل بل كانت الاجراءات المتخذة بهذا الصدد تتعارض مع النظرة الموضوعية الى تنمية مصادر زيادة الثروة الوطنية حيث اننا نجد اتجاه الدولة الى التشغيل في مؤسساتها الرسمية مما تسبب في تضخم الاجهزة الادارية وفي مقدمتها القوات المسلحة ومنها الجهاز الامني بشكل خاص.

ان معدل البطالة بعد عام 2003 شهد ارتفاعاً (28٪) حسب مسح التشغيل والبطالة لعام 2003 وانخفض عام 2008 الى نسبة 18٪. وفي عام 2008 بلغت النسبة 15٪ وهي اعلى نسبة بطالة في المنطقة العربية التي بلغت 14٪ كمعدل عام .

ان البطالة التي تباينت نسبها زيادة ونقصاناً انعكست ايضاً على تركيبة السكان من حيث الفئات العمرية والجنس وقد سجل مسح التشغيل والبطالة البيانات الآتية:

البطالة بين الذكور لعام 2003 = 30.2٪.
البطالة بين الذكورلعام 2008 = 14.3٪ .
البطالة بين الاناث لعام 2003 = 16٪ .
البطالة بين الاناث لعام 2008 = 19.6٪.
البطالة في الحضر لعام 2003 = 30٪ .
البطالة في الحضر لعام 2008= 16٪.
البطالة في الريف لعام 2003 = 25٪.
البطالة في الريف لعام 2008 = 13٪ .

وتعتبر وزارة العمل والشؤون الاجتماعية الجهة الحكومية، الرسمية التي تشرف على تنفيذ تشريعات العمل الوطنية وتسترشد بمعايير العمل العربية والدولية ، وتتخذ من قطاع العمل ميداناً واسعاً لتنفيذ برامجها فيما يتعلق بالتشغيل والتدريب المهني وتفتيش العمل والصحة والسلامة المهنية وخدمات ما بعد البيع – الخدمات الصناعية وتركز نشاط هذه الوزارة خلال السنوات

التي اعقبت عام 2003 حول التشغيل والحد من البطالة وقد تبنت ستراتيجية تشغيل لمديات ثلاثة صغيرة ومتوسطة وبعيدة المدى، وفي ضوئها بذلت جهداً استثنائياً لأعادة الحياة الى مكاتب التشغيل واعادة اعمار مراكز التدريب المهني المنتشرة في عموم المحافظات، والتي لحق بها عدد من المراكز الاخرى كانت تابعة الى وزارة الصناعة حتى باتت مسؤولة عن ادارة اكثر من (35) مركزاً للتدريب المهني في العراق تمكنت من تأهيل وتدريب(770578) شخصاً في مهن عديدة حتى نهاية آب 2010

وحرصت الوزارة خلال هذه الفترة على التوجه المؤسساتي فعملت على تشكيل لجنة عليا للتشغيل عام 2006 تضم اكثر من 14 جهة رسمية وشعبية لها علاقة بأسباب تشكيلها. وحققت هذه اللجنة نجاحات باهرة في مجال تنشيط اجهزة التشغيل والتدريب المهني وبادرت الى تقوية الصلة التنظيمية والفنية والاستثمارية بمؤسسات القطاع الخاص الوطني ، على وفق مبدأ الشراكة الاجتماعية في تنمية الموارد الوطنية وتحديث وسائل الانتاج وتطوير انتاجيته.

ومن بين هذه النجاحات كانت " السياسة الوطنية للتشغيل " كمشروع وطني جديد يحمل بصمات المرحلة الوطنية الحاضرة ويعمل على ربط التشغيل بالمجتمع والنمو الاقتصادي من جهة ويرسم طريقاً واضحاً بأتجاه تعبئة الامكانات الوطنية الواسعة من اجل خلق وظائف منتجة وآمنة ومستقرة ومجزية في اطار العمل اللائق ليتماشى المجتمع العراقي مع حركة الرفاه الاقتصادي والاجتماعي في العالم .

ومن ابرز ملامح هذه السياسة المقترحة ما يأتي:

١- ان الاوراق الخلفية تتصف بالسعة والدقة والحداثة لان الكتاب والباحثين من الاختصاصيين في الشؤون ذات العلاقة وكانت مادة ثقافية متخصصة ألفت محاور أساسية لتلك السياسة المقترحة منها:

*اهمية سياسة التشغيل، تحديات التشغيل، السياسات الاقتصادية لنمو التشغيل، الظروف المؤاتية لنمو وأستدامة المؤسسات، الحماية وحقوق العمال.

2- خصصت السياسة الوطنية للتشغيل جانباً من اهتماماتها وانشغالاتها للأمور التي تخص سوق العمل من حيث :

- فعالية مؤسسات سوق العمل وتطبيق سياسته الناشطة.
- تنمية المهارات وقابلية التشغيل .
- انشاء نظام وطني لمعلومات سوق العمل.

3- اعتمدت السياسة الوطنية للتشغيل رؤية واضحة لمشكلة البطالة بوصفها نتاج تخلف مؤسسات سوق العمل ونظامه وظروفه، وكانت رسالتها التركيز على افرازات التنمية البشرية بالدرجة الاولى من خلال الربط بين مهام الاصلاح الاقتصادي والتغيرات الاجتماعية المطلوبة لأنضاج عملية التنمية بما يحتاجه المجتمع العراقي .

4- نهجت السياسة الوطنية المقترحة للتشغيل نهج الشراكة الاجتماعية وتحديد ادوار هؤلاء الشركاء بوصفهم اصحاب المصلحة المباشرة بالنهوض بالقطاعات الاقتصادية والاجتماعية وحدد نطاق المشاركة للتأثير ببيئة الانجاز من خلال أدوات ومناخات ضامنة لتكافؤ فرص الحوار الاجتماعي...

5- كما ان السياسة الوطنية المقترحة للتشغيل رسمت الاطار المؤسسي لتنفيذ سياسة التشغيل ومتابعتها وحددت الآتي .

– ادوار ومسؤوليات الاطراف المختلفة .
– خطة عمل لتنفيذ هذه السياسة .
– متابعة وتقويم تنفيذ سياسة التشغيل .
– مراجعة السياسة المقترحة وتمويل تنفيذ برامجها.

ويلاحظ ان الوثيقة التي ناقشتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية من خلال اللجنة العليا للتشغيل في أيلول 2010 تناولت فعالية مؤسسات سوق العمل وتطبيق سياسته الناشطة من خلال تدخل الحكومة في سوق العمل مباشرة لأنه المجال الذي يتم فيه البحث عن فرص العمل وحدد الجهات التي تعنى بهذا المجال وهي مراكز التشغيل التي تقدم خدمات التوظيف العامة وهي المسؤولة عن مساعدة العاطلين في الحصول على فرص العمل المناسبة لرغباتهم ومهاراتهم ، وخطط التدريب التي تؤهل العاطلين لممارسة مهن مرغوبة او رائجة في سوق العمل، وهي تشمل برامج دائرة العمل والتدريب المهني والمدارس المهنية بوزارة التربية ومؤسسات التعليم التقني في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

واقترحت السياسة ايضاً برامج اعانات العمل في القطاعين العام والخاص عبر خلق فرص عمل مباشرة ويقصد بها التشغيل في أثناء العمل كأسلوب لبناء الخبرة المطلوبة، ولأجل الوصول الى النجاح في تنفيذ هذه البرامج وضعت السياسة المذكورة خيارات التدخل وكما يأتي:

● تحسين كفاءات الموظفين على المستويين الوطني والمحلي لتمكينهم من توفير الخدمات الخاصة بسوق العمل بطرق حديثة.

● تحسين مرافق وقدرات مؤسسات سوق العمل على المستويين الوطني والمحلي لتوفير الخدمات للمؤسسات والباحثين عن عمل.

●ضمان وجود روابط فعالة بين المستويات السياسية والتنفيذية لوضع مبادىء توجيهية وارشادات الدعم بسهولة ويسر.

● اعتماد تدابير لتحسين رصد سياسات سوق العمل النشطة وتصحيح المسارات وفقاً لأهداف خطط عمل دائرة العمل والتدريب المهني.

● التوفيق بين العرض والطلب من خلال تقديم خدمات تشغيل فعالة لتمكين الايدي العاملة من الحصول على فرص العمل حسب الوصف النوعي للمهنة.

● تحسين الاتصال مع مؤسسات القطاع الخاص لتحريك الطلب على قوة العمل واحتمالات التدريب واعادته .

● تحسين الاتصال مع الباحثين عن عمل لتسهيل مطابقة مؤهلاتهم مع الوظائف المعروضة وتقليل وقت ايجاد الوظيفة المناسبة.

● تنظيم سوق العمل وإدارته:

اقتضت الضرورة الملحة التي لازمت مجتمع الازمة الاقتصادية والمالية العالمية تدخل الدولة في مسار سياسات الاقتصاد الكلي للرأسمالية العالمية وهو خلاف واضح لقواعد تأسيس اقتصاد السوق في اطار النظام العالمي الجديد ، واصبحت برامج الانعاش الاقتصادي وتحسين اداء القطاعات كافة من اولويات السياسات والبرامج الحكومية للتقليل من آثار هذه الأزمة ، وكانت اعادة النظر في برامج التشغيل وتعديل مسارات سياساته في مقدمة المهمات التي تضطلع بها الحكومات في مجتمعات الازمة لوضع حد للبطالة القسرية التي اخذت تتزايد . وهذا الواقع الجديد يحتم على الدول النامية ومنها العراق، تفعيل سياسات التشغيل ليس فقط لمواجهة آثار الازمة وانما لأعادة هيكلة سوق العمل حسب

البيانات والمعلومات الجديدة لحل اشكالية البطالة المتنامية التي تهدد السلم الاجتماعي في البلاد عندما لا تجد لها حلولاً فعالة.

ويكون من المنطقي عدم ترك مكونات سوق العمل تعمل على تنظيم نفسها بدون تدخل حكومي، لأن دور الحكومة المركزية يعمل على خلق بيئة مؤاتية لنمو التشغيل من خلال دعم القطاعات الاقتصادية التي تتطلب كثافة عمل عالية ، والتوسع في مشاريع الاقراض في قطاعات مجزية ومحمية الى جانب تفعيل اجهزة الرقابة والتفتيش في قطاعات العمل كافة لضمان إنفاذ قوانين العمل والامتثال لها.

ولعل من الامور التي تستحق الثناء هي صدور الاستراتيجية الوطنية للتخفيف من الفقر لعام 2009 ، وتعاملها مع البطالة بتركيز وتعمق لأنها احد اخطر مصادر العوز المادي في المجتمع، والتأكيد على الالتزام الحكومي في تبني محاور هذه الاستراتيجية وربطها بطريقة تكاملية مع خطة التنمية الوطنية الخمسية 2010–2014 وقد استهدفت الصفحات الانسانية الاساسية وهي:

- خلق فرص توليد الدخل للفقراء .
- تمكين الفقراء من ادراك حقوقهم والتعرف على واقعهم ومشكلاتهم واحتياجاتهم .
- بناء قدرات الفقراء لتأهيلهم للعمل وزيادة انتاجيتهم .
- تحقيق الامان الاجتماعي وضمان حاضر ومستقبل حياة الفقراء.

ويتجلى مما سبق، ان قضية التشغيل والبطالة والفقر من القضايا التي تتطلب إيجاد نظام معلوماتي دقيق يعكس واقع المؤشرات المذكورة ليتسنى لصناع القرار الرؤية الصحيحة لتقدير الحالات موضوعياً.

وهناك حاجة ملحة لمعرفة معدل الدخل الاجمالي للأشخاص الذين يعملون ومعدل التشغيل كنسبة لعدد السكان لكلا الجنسين من جهة وللرجال العاملين من جهة اخرى ومعدل التشغيل للنساء العاملات ايضاً ، واقع الفقر ومعدل مشاركة الفقراء في قوة العمل، مستوى الاجور، معدل دوران العمل، مستوى المهارات المتوفرة، امكانيات التأهيل المستمر، مستوى التكنولوجيا المستثمرة في العمل ، نظام ساعات العمل وتوزيعها، قضايا التصنيف المهني مثل: تصنيف وتوصيف مهني للاعمال التي يمارسها الافراد في المجتمع، نظام معلوماتي عن منح الشهادات المهنية ومعلومات عن بيئة العمل الفعالة، و المرجعيات القانونية وهياكل تنظيم المهن.

ان هذه المعلومات ليست خاصة بسوق العمل حصراً وأنما هي معلومات ضرورية للموارد البشرية التي تعتبر قوة العمل جزءاً حيوياً منها، وهي توفر للمؤسسات المنظمة امكانية الرصد المستمر لأتجاهات العرض والطلب وخصائص العمالة والبطالة وتتيح الفرصة لأجراء مقارنات دولية مع نظم معلوماتية لسوق عمل عربي او عالمي للوقوف على مواطن القوة والضعف فيه.

ولا شك ان هذه العملية تتطلب جهداً لمؤسسات معينة اخرى تشارك دائرة العمل والتدريب المهني هذه المسؤولية منها دوائر الاحصاءات العامة كالجهاز المركزي للأحصاء في وزارة التخطيط ودائرة الضمان الاجتماعي في وزارة المالية ووزارات التربية والتعليم العالي فيما يخص معلومات وبيانات الخريجين، وغرف التجارة والصناعة والمقاولات والنقابات المهنية والعمالية، ومثلما تتعدد المصادر المعلوماتية فأن هناك مؤسسات يمكن ان تستفيد من

هـذه المعلـومـات كـالمخططين وراسـمي السياسات واصحـاب العمل والنقابات والاتحـادات ومـراكـز التـدريب المهني والاشخاص الباحثين عن العمل والعاملين في اجهـزة التفتيش والتشغيل والصحة والسلامة المهنية، والعاملين في قضايا الارشاد المهني والتربوي والوظيفي ومراكز البحوث والدراسات.

امـا على المستوى المهاري وقابلية التشغيل فـأن السياسة تؤكد اهمية ارتباط البرامج والمناهج التدريبية بالاحتياجات الفعلية لسوق العمل وتلائمها مع متطلبات النهوض بالقطاعات الاقتصادية كماً ونوعاً.

● تطوير نظام وطني للكفاءات المهنية والفنية وتوحيد مستوياتها لتسهيل انتقال القوى العاملة بين القطاعات واسواق العمل المحلية او القطاعية.

● تعزيز الشراكة مع اصحاب العمل لتحديد المهن والاختصاصات المطلوبة والمرغوبة مستقبلاً.

● استراتيجية وطنية للتدريب والتعليم المهني والتقني تستجيب لدواعي التنمية الوطنية.

● انشاء هيئة وطنية للتدريب والتعليم المهني والتقني لوضع سياسات واستراتيجيات وطنية لتنمية المهارات والكفاءات لتأمين فرص عمل لائقة لخريجيها.

● تشجيع الاستثمار في التدريب والتعليم المهني والتقني وتقديم تسهيلات ضريبية وأدارية داعمة.

● تقليل التفاوت في الدخل بين ممارسي العمل الذهني لتشجيع الشباب للألتحاق بها وتعزيز الاعتبار الاجتماعي للعمل المهني والمهنة.

المبحث الثالث:

تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وأهميتها لسوق العمل:

يطلق مصطلح تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على وصف ادوات وطرق النفاذ لوسائل تكنولوجيا المعلومات والقيام بعمليات استرجاع البيانات وتخزينها وتنظيمها واساليب معالجتها وأنتاجها.

كما يطلق على وصف وسائل عرض المعلومات وتبادلها بالطرق الالكترونية واليدوية، وتشمل هذه التكنولوجيا معدات الكترونية حديثة ذات تقنية عالية مثل الحواسيب والماسحات الضوئية والكامرات الرقمية والهواتف النقالة والفاكسات والاقراص المضغوطة والبرامج مثل نظام قواعد البيانات والتطبيقات متعددة الوسائط. وتطمح جميع المجتمعات الى الارتباط بعالم الاتصالات والمعلومات لتكون فاعلة في الاستفادة من معطياتها والتعجيل بتحقيق اهداف هذه الثورة كما انها تعتبر هذه الثورة المعلوماتية تقوم على أسس وقواعد عمل ومؤشرات تصلح لوصف المجتمعات المعرفية ومعرفة مدى التقدم الحاصل في مجالات الحياة وتنظر الى الدولة التي تعتمد التكنولوجيات الحديثة نظرة احترام واعتبار لأنها سخرت امكاناتها للأستفادة من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لما يلبي الاحتياجات الوطنية وتنسجم مع روح العصر وتطوراته.

وبالنظر لأهتمامات هذه الدول بعالم الكومبيوتر والانترنت اندفعت المنظمات الدولية والاقليمية والاجهزة الاحصائية الوطنية بقوة لأعتماد مؤشرات واضحة حول مخرجات احصائية لاستخدامات المعلومات والاتصالات ومن بين اهم القوائم هي قائمة مؤشرات اللجنة الاقتصادية والاجتماعية

لدول غرب آسيا وقائمة مؤشرات منظمة التعاون للتنمية الاقتصادية وقائمة مؤشرات الامم المتحدة وهي تكون في الغالب وفي مجتمع المعلومات او مجتمع المعرفة بالذات على مستويات متعددة هي:

– مؤشرات التمكين الاساسية : وهي تخص تركيبة السكان وتوزيعها ومعدلات النمو ومستويات التعليم.

– مؤشرات البنى الاساسية للأتصالات: وهي تخص جميع تقنيات الاتصال القديمة والحديثة بين الافراد في أطار شبكات الاتصال المحلية والدولية.

– مؤشرات البنى الاساسية لوسائل الاعلام وتعنى بقياس استخدام وسائل الاعلام التقليدية المعروفة والحديثة بشكل خاص بالقياس الى عدد السكان ومنها امكانات النفاذ الى الانترنت والتي تضم مؤشرات عدد الحواسيب وكلفة الحاسوب الشخصي والاشتراك بالانترنت وموردي خدمة الانترنت وطاقة نظام دعم نقل البيانات وغيرها.

– مؤشرات الجاهزية للأسر: وهي تتعلق بنسب الاسر التي تستخدم الانترنت وتكلفة الحاسوب مقارنة بمتوسط دخل الفرد والهدف من استخدام معدات الاتصال والمعلومات.

– مؤشرات نفاذ تكنولوجيا المعلومات والاتصال في الاجهزة الحكومية وهي تخص المجتمعات التي تستخدم اسلوب الحكومة الالكترونية او التي تباشر ببناء هيكل تنفيذي لهذه التكنولوجيا مع الارتباط بالشبكات الالكترونية العالمية وآليات الرصد والتقييم والصيانة المتخصصة بتكنولوجيا المعلومات

إما معلومات سوق العمل غير الكمية فهي تتحدد بجملة الدراسات والبحوث والنشريات والتقارير وشكاوى العمل المنشورة في وسائل الاعلام وما يتوفر من معلومات في مراكز البحث العلمي والتدريب المهني والصحة والسلامة المهنية وتفتيش العمل وأجهزة الرصد والرقابة وتغير هيكل قوة العمل والخدمات الاجتماعية وتشريعات العمل فضلاً عن دوريات واصدارات منظمات العمل والاقتصاد والمال العربية.

ويلاحظ ان اجهزة تنظيم وادارة سوق العمل تعتمد على احصائيات ومعلومات سوق العمل بهدف :

1– رصد التغيرات التي تطرأ على التركيب العمري والنوعي وخصائص السكان الضرورية.

2– حصر اوضاع العاملين والعاطلين ومعدلات التشغيل لقياس كفاءة اجهزته وسياسته في مواجهة البطالة .

3– بناء قاعدة معلومات عن واقع البطالة.

4– رفد المشاريع الاقتصادية بما يتلائم واحتياجاتها من المهارة والخبرة.

5– بناء معلومات عن تطور مستويات الاجور ومتابعة تأثيراتها على المهن وادارة المشاريع والانشطة الاقتصادية الاخرى.

6– متابعة واقع تطبيق معايير العمل الدولية ذات العلاقة بمبادىء العمل السياسية ومكافحة عمل الاطفال وآليات التشغيل والحقوق الاخرى.

7– معرفة حجم مشاركة المرأة في سوق العمل بهدف تفعيل وسائل جذبها الى سوق العمل.

التوصيات:

– الاهتمام بمعلومات سوق العمل من خلال المصادر النوعية والكمية واخضاعها للدراسة والتحليل وتزويد الجهات الرسمية والجماهيرية بهذه النتائج للعمل على تنظيم وتصحيح مسارات تطور مكونات سوق العمل.

– اعتماد الاساليب الاحصائية الحديثة، التي تعكس الارتباط الوثيق بالتكنولوجيات التي توفرها المراكز التقنية والبحثية، والتخلص من الطرق اليدوية السائدة في احصاءات العمل والتشغيل والبطالة.

– اعتبار معلومات سوق العمل في اطار التكنولوجيا الحديثة وثورة الاتصالات قاعدة لترسيخ مشاريع تتعلق بالحكومة الالكترونية التي لها مزايا انسانية واقتصادية وفنية وستراتيجية جديدة.

– ربط السياسات التشغيلية وبرامج العمل والتدريب المهني بواقع سوق العمل الذي يمثل الترجمة الامنية لأحتياجات اصحاب العمل من المهن والمهارات والمميزات الشخصية التعليمية والسلوكية للقوى العاملة.

– حث مصادر المعلومات المحلية ذات العلاقة بسوق العمل على تسخير امكاناتها لخدمة برامج التشغيل والتدريب والسلامة المهنية التي لها تأثير مباشر على الاقتصاد الوطني بشكل عام وقطاع العمل بشكل خاص.

– نقل التجارب العلمية المتقدمة السائدة في الدول التي تأخذ بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات للأستفادة منها في رسم سياسات وطنية تنهض بمجتمع المعرفة وتنتج اقتصاد المعرفة.

– دعم قدرات ومهارات العاملين في تكنولوجيا المعلومات واعداد ملاكات علمية كافية لأدارة احصاءات العمل ومنها سوق العمل.

– التنسيق مع المراكز العلمية والبحثية التي تعنى بدراسات سوق العمل لعرض مشكلات وتحديات قطاع العمل للأسهام في دراستها ووضع الحلول لها.

– العضوية في المؤسسات الاحصائية في المنظمات الدولية لنشر وعرض نتائج مسوحات سوق العمل، وتكليف خبرائها لأعداد دراسات علمية بشأنها.

– الحرص على دعم وتنفيذ مشروع السياسة الوطنية للتشغيل واعتبار الخيارات الواردة فيما يخص سوق العمل مهمات واجبة التنفيذ.

*المركز الوطني للبحوث والدراسات

المصادر:

1- تقرير منظمة العمل الدولية عن التشغيل خلال الزمة المالية لعام 2010.
2- مسح التشغيل والبطالة –الجهاز المركزي للاحصاء .
3- د. مهدي العلاق أثر السكان على التنمية القتصادية .
4- السناذ كاظم شرمخي عامر –مدوم سوق العمل وأتجاهات الطلب في العراق.
5- توصيات دورة احصاءات العمل –منظمة العمل العربية .
6- مشروع السياسة الوطنية للتشغيل في العراق / 2010 .
7- الستراتيجية الوطنية للتخفيف من الفقر في العراق /2009.

الفكر القومي العربي
وسماته التاريخية

د.لطفي حاتم

الدكتور لطفي حاتم من مواليد 1946، عميد كلية القانون والعلوم السياسية في الجامعة العربية المفتوحة في الدنمارك، نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة. كما اصدر كتابين: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية ، أراء وأفكار حول الطور الجديد من التوسع الرأسمالي. كما له كتاب قيد الطبع هو: موضوعات في الفكر السياسي المعاصر .

شهدت العلاقات الدولية تبدلات كثيرة بسبب انهيار ازدواجية خيار التطور الاجتماعي الذي فرضته التجربة السوفيتية وما نتج عن ذلك الانهيار من تراجع نزاع الأيديولوجيات الناظمة للسجالات الكبرى بين القوى المناهضة والمتحالفة مع هذا الخيار أو ذلك وبهذا المسار تراجعت الأفكار القومية واليسارية بسبب ركودها الفكري وعدم تجديد مرتكزاتها النظرية ومفاعيلها الأيديولوجية المتلائمة والطور المعولم من التوسع الرأسمالي وما أفرزه ذلك من سيادة الصخب الأيديولوجي المرحب بالليبرالية الجديدة ونتائجها الفكرية / الاقتصادية / السياسية.

ان سيادة الطور المعولم من التوسع الرأسمالي وتحول العالم نحو التكتلات الاقتصادية الدولية ، فضلاً عن تراجع دور الدولة وانحسار سيادتها الوطنية وضع الكثير من النظم الفكرية والمفاهيم السياسية منها الاشتراكية، القومية، الوطنية في أزمة فكرية شاملة.

استناداً الى أزمة النظم الفكرية الناتجة عن الطور الرأسمالي المعولم أحاول التعرض وبتكثيف بالغ الى أزمة الفكر القومي العربي ومسيرته التاريخية عبر محطات رئيسية ثلاث:

- المرحلة الكولونيالية ونشوء الفكر القومي العربي.
- الفكر القومي في مرحلة الاستقلال الوطني .
- العولمة وأزمة الفكر القومي .

على اساس تلك العدة المنهجية أختتم

مداخلتي ببعض الاستنتاجات التي أجدها ضرورية لمواصلة البحث.

المرحلة الكولونيالية ونشوء الفكر القومي العربي

نشأت الأفكار القومية العربية في الطور الثاني من التوسع الرأسمالي وحقبته الكولونيالية حيث شهدت هذه الحقبة تطورات تاريخية اقتصادية / سياسية كبرى أعطت دفعاً فكريا للمسألة القومية منها رغبة الرأسمال الامريكي بالخروج من دائرته القارية التي رسمها مبدأ مونرو من خلال مبادئ الرئيس ولسن المتضمنة حق تقرير المصير للشعوب، فضلاً عن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية ونموذجها في بناء الدولة الفدرالية المتعددة القوميات.

إن تغيرات السياسة الدولية التي أنتجتها الحرب العالمية الأولى تفاعلت معها الحركات القومية بشكل كبير الامر الذي يدفعنا الى تحديد طبيعة المحيط الاجتماعي والسياسي الذي نمى فيه القومي العربي من خلال الرؤى التالية:

ـ نشأ الفكر القومي العربي وتطور من خلال مناهضته لسياسة الدولة العثمانية فضلاً عن تأثره بالحركات القومية التركية.

– شكل التجار، الشيوخ ورجال الدين القاعدة الاجتماعية الحاملة للنزعة الاستقلالية في حقبة النزاع الامبريالي الهادف الى اقتسام البلدان العربية إضافة الى القوى العربية المرتبطة بالأجهزة البيروقراطية للدولة العثمانية خاصة الضباط في المؤسسة العسكرية العثمانية.

– أدى تحالف القوى الاجتماعية الحاضنة للتيار القومي ورموزها السياسية مع الدول الأوربية الكبرى ضد الإمبراطورية العثمانية الى تفضيل الانتماء القومي العربي على الرابطة الإسلامية. وبهذا فإن فك الاشتباك بين الكفاح القومي عن حاضنته الدينية عزز التوجه العلماني للتيار القومي الناهض.

ان المحددات السياسية والاجتماعية التي أفرزت التيار القومي في الحقبة الكولونيالية لم تستمر طويلا خاصة بعد ظهور الدول العربية وبهذا فقد تميز الفكر القومي المناهض للكولونيالية بكثرة من السمات الجديدة يمكننا إدراج البعض منها:

ـ أفضى ظهور الطبقة الوسطى وما حملته من روح راديكالية الى اغتناء الفكر القومي بمضامين جديدة مناهضة للزعامات التقليدية المتمثلة بالتجار والإقطاعيين ورجال المؤسسة العسكرية الناهضة.

ـ بناء النظم السياسية العربية الجديدة المتسم بقدر من الليبرالية أدى الى ظهور الأحزاب القومية المعبرة عن مصالح الأمة العربية بصيغ فكرية هلامية غير ملموسة.

ـ شكل شعار الوحدة العربية تحديا أيديولوجيا لسياسة التقسيم الكولونيالية وبهذا المعنى فإن هذا الشعار يمكن اعتباره ملمحاً أساسياً من ملامح تطور الفكر السياسي القومي في الحقبة الكولونيالية.

ـ اعتمد الفكر السياسي القومي الناهض في بناء منظومته الفكرية / السياسية على مصادر فكرية وتجارب سياسية خارجية بمعنى آخر لم ينشأ الفكر القومي العربي نتيجة لتناقضات نمو وتطور تشكيلاته العربية. ولهذا فقد استمد رؤيته استناداً الى كثرة من المنطلقات النظرية للفكر السياسي الغربي فضلا عن تأثره بنموذج الدولة السوفيتية الجديدة .

لإضفاء شرعية معللة لمصادر الفكر

القومي العربي لابد من إكسابها ملموسية محددة من خلال المحددات التالية:

ـ استمد الفكر القومي العربي نزعته العنصرية من التجربة التأريخية لبناء وحدة الدولة الألمانية القسرية لبسمارك ، والروح القومية للرايخ الثالث.

ـ شكلت السمة العنصرية نزوعا سلفيا لدى الفكر القومي العربي اتسم بإعلاء العنصر العربي على القوميات الأخرى.

ـ ترابطت النزعات العنصرية في الفكر السياسي القومي مع عدم الأخذ بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب غير العربية القاطنة في الدول العربية. وبهذا فقد شكل الفصل الفكري بين حق الشعوب العربية بالاستقلال وحق تقرير المصير للقوميات الأخرى احدى الثغرات الأساسية لنشاط القوى القومية السياسي.

ـ اعتمد الفكر السياسي القومي، ورغم تأثره بالنموذج الاشتراكي السوفيتي وتجربته السياسية، الدولة المركزية متغاضيا عن البناء الفدرالي للدولة السوفيتية.

ـ اعتماد الفكر السياسي القومي على النزعة العنصرية ترافق ومبدأ الروح الانقلابية حيث شكل الانقلاب العسكري والتعويل على المؤسسة العسكرية الأسلوب الكفاحي الأرأس لاستلام السلطة السياسية.

ـ تلازمت سمات الفكر السياسي القومي المشار إليها مع مناهضة اليسار العربي وما نتج عن ذلك من نزاعات دموية ألحقت أضراراً بالغة بوحدة القوى السياسية المطالبة بالديمقراطية والتغييرات الاجتماعية.

خلاصة القول ان الفكر السياسي القومي في المرحلة الكولونيالية تميز بسمات أساسية يمكن حصرها بما يلي:

1- انفصال التيار القومي عن الحواضن الدينية التي نشأ تحت ظلالها وإعلان هويته العلمانية .

2- سيادة الشعارات العامة وغياب الرؤية البرنامجية المحركة للنشاط السياسي.

3- تناقض رؤيته من حق تقرير المصير واعتماده الدولة المركزية.

الفكر السياسي القومي في مرحلة الاستقلال الوطني .

تطور الفكر السياسي القومي بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية مكتسباً زخما سياسيا خاصة بعد نشوء الدولة العبرية واغتناءه بمضامين ورؤى سياسة جديدة يمكن تحديدها بالموضوعات التالية:

ـ جعل القضية الفلسطينية الحلقة المركزية في الفكر العربي التحرري المناهض لإسرائيل والقوى الاستعمارية المساندة لها. وبهذا المنحى نشير الى ان مناهضة الخارج الاستعماري لم ترق الى مستوى تحليل بنية ازدواجية السياسية الدولية في حقبة المعسكرين الامر الذي جعل التيار القومي في الكثير من المنعطفات التاريخية غير قادر على بناء سياسية قومية / وطنية متلائمة والتناقضات الدولية.

ـ أفضى اعتبار المسألة الفلسطينية الحلقة الأساسية في الكفاح القومي العربي الى تحجيم المنظومة الفكرية / السياسية للتيار القومي وما نتج عن ذلك من تبعات سياسية تمثلت بدوائر عدة أهمها:

أ: الاعتماد على النزعة الانقلابية بهدف الوصول الى السلطة السياسية .

ب: مناهضة الديمقراطية كبنية سياسية لبناء سلطة الدولة العربية .

ج: غياب البرامج الوطنية الهادفة الى

التغيير الاجتماعي وصيانة المصالح الوطنية.

د: تعميم الروح العسكرية/ الانضباطية في البنية الحزبية وسيادة العنف في العلاقات السياسية.

ان الركائز الفكرية العامة التي حكمت تطور المسار السياسي للفكر القومي في المرحلة الكولونيالية تغيرت بعد ظهور الناصرية وقيادتها لحركة التحرر الوطني العربية، الامر الذي يدعونا الى تأشير ملامح تلك الحقبة وحواضنها السياسية/الاجتماعية عبر المحددات التاريخية التالية:

ـ سعت الناصرية بعد انتصار ثورة يوليو الى تأسيس دولة مركزية قطرية قادرة على بناء الوحدة العربية كرد سياسي على هزيمة العرب العسكرية أمام القوة الإسرائيلية عام 1948

ـ اكتسب مفهوم الوحدة العربية بعد انتصار يوليو مفهوما سياسياً جديداً تمثل بضرورة الإطاحة بالأنظمة العربية الموالية للغرب الاستعماري والعمل على قيام الدولة العربية الواحدة .

ـ رغم الزخم الشعبي المبارك لتجربة الوحدة العربية بين مصر وسوريا (1) إلا أن مفهوم الوحدة الاندماجية لم يجر اغناءه بمضامين سياسية / اجتماعية حيث افتقر شعار الوحدة العربية الى آلية سياسية لبناء الدولة ناهيك عن الديمقراطية، الاصلاحات الاجتماعية، مراعاة الخصوصية الوطنية للأقطار العربية (2).

ـ أدت التغيرات الاجتماعية / السياسة والهزائم العسكرية 1953 الى 1970 الى تعديل البناء الفكري للتيار القومي وانتقاله صوب المهام القطرية. بمعنى إدراك التيار القومي ان بناء الوحدة العربية يشترط إجراءات سياسية / اجتماعية في الدولة القطرية ـ المركز ـ .

ـ اعتبار الوحدة العربية شعاراً إستراتيجياً للأمة العربية يعتمد تحقيقه على بناء دولة قطرية مركزية قادرة على بناء توازن عسكري استراتيجي مع الدولة العبرية. وبهذا فقد تحول الفكر القومي من كاريزما القائد الى الدولة المقتدرة (3).

ـ تواصل الاعتماد على النزعة الانقلابية في التخلص من الهيمنة الاستعمارية اقترن بممارسة سياسية جديدة أفرزتها هشاشة البناء السياسي للدولة الناصرية بعد هزيمة حرب الأيام الستة ، تمثل باعتماد الكفاح المسلح وسيلة كفاحية للتحرير والوحدة .

ان التحول الفكري / السياسي المشار إليه تزامن، و تسليح الفكر القومي بمضامين جديدة جرى استنساخها من الأيديولوجية الاشتراكية وتجربتها السوفيتية والتي يمكن تأشيرها بما يلي:

ـ بناء منظومة سياسية ترتكز على الحزب الواحد المناهض للديمقراطية والمشاركة الحزبية.

ـ اعتماد مفهوم الدولة ـ المركز ـ في قيادة الكفاح المناهض للهيمنة الخارجية وتلاحمها مع المقاومة الوطنية الفلسطينية والعربية.

ـ احتكار الدولة للثروة الوطنية بعد اعتبار قطاع الدول العام القائد والموجه للاقتصاد الوطني .

ان النتائج الفكرية / السياسية / الاقتصادية التي أفرزتها التجارب السياسية لحكم القوى القومية جديرة بالدراسة من كافة جوانبها الامر الذي يدفعنا لتحليل بعض محدداتها الأساسية:

ـ المحدد السياسي

– اعتمد الفكر القومي وانطلاقا من بناء الدولة القادرة على مناهضة الخارج واستعادة الأرض الفلسطينية الى تكريس بناء الدولة القطرية ولم يسع الى تطوير مفهوم الوحدة العربية واغنائه بمحتوى جديد يتلاءم وروح العصر ينطلق من بناء تقاربات اقتصادية وتوجهات سياسية .

– بناء دول مركزية مناهضة لطموح القوميات غير العربية فضلا عن تكريس سياسة عنصرية معادية لطموحاتها القومية.

– احتكار السلطة من خلال بناء منظومة سياسية للدولة القطرية بزعامة حزبية وما نتج عن ذلك من سيادة أنظمة سياسية استبدادية تمارس العنف ضد مكوناتها الاجتماعية.

المحدد الاقتصادي

– أفضت عمليات التأميم واعتبار الدولة المالك الأساسي للثروة الوطنية الى حصر القرار الاقتصادي بيد الطواقم الحاكمة الامر الذي ساعد على ظهور قوى اجتماعية بيروقراطية مترابطة وأجهزة الدولة الأساسية ومتناغمة مع الشركات الدولية عبر عمليات الرشوة والفساد الاداري .

– إهدار التنمية الوطنية من خلال التسلح المستمر بعد اعتماد سياسة المواجهة مع العدو الخارجي الأمر الذي أدى الى ربط الثروة النفطية بالسياسات الغربية وبنوكها الأجنبية .

ان بناء القوى الاجتماعية الجديدة التي أنتجتها الشرعية الانقلابية ودولتها الاحتكارية ساهم في تشديد تبعية الدولة القطرية للاقتصاد العالمي (4).

المحدد الفكري

– إعادة الاعتبار لموضوعة الدولة ـ المركز ـ بعد انهيار التجربة الناصرية عبر بناء دول قطرية قوية متصدية للعدوان الخارجي .

– فرض الشعارات القومية على البلدان العربية عبر القوة الاقتصادية / العسكرية / الدبلوماسية الامر الذي حول شعار الوحدة القومية الى شعار للنزاعات العربية.

– احتدام المنافسة الفكرية على زعامة العالم العربي بين دول الشرعية الانقلابية على أسس أيديولوجية ونزعات شخصية.

ختاما يمكن القول ان التيار القومي وتجربته السياسية في الحكم فضلا عن التغيرات الدولية المتسارعة أوصلته ـ الفكر القومي ـ الى تخومه التاريخية وما يتطلبه ذلك من ضرورة تجديد منظومته الفكرية/ السياسية خاصة مفهوم الوحدة العربية لغرض بعثها بمضامين جديدة.

العولمة وأزمة الفكر القومي

حمل الطور الجديد من التوسع الرأسمالي كثرة من التغيرات الاقتصادية/ السياسية تمثلت بوحدانية أسلوب الإنتاج الراسمالي وترابط أسواقه الدولية/ الإقليمية/ الوطنية وما نتج عن ذلك من نشوء التكتلات الاقتصادية الإقليمية والدولية وانحسار دور الدولة الاقتصادي الامر الذي أعاد بناء العلاقات الدولية الجديدة على اساس وحدة مصالح الدول الكبرى، وانطلاقاً من ذلك تتعرض الدولة القومية ناهيك عن الأيديولوجيات الكبرى التي حكمت النزاعات الدولية الى المراجعة النقدية الشاملة.

ان التغيرات الكبيرة التي أنتجها الطور المعولم من التوسع الراسمالي ترافق وكثرة من التغيرات الاجتماعية / الفكرية والتي يمكن الاشارة إليها عبر الموضوعات التالية:

– تزامن انبعاث الموجة القومية الثالثة المترابطة وعولمة رأسمال وانتقال الطبقة الرأسمالية من مرحلتها الوطنية الى مرحلتها الأممية عبر اندماج الشركات الدولية الكبرى وظهور التكتلات الدولية.

– تحول الرأسمال من مرحلته الوطنية الى مرحلته الأممية تلازم و تهميش كثرة من الدول الوطنية ناهيك عن مكوناتها الاجتماعية.

– تضاءل بناء دولة عربية قومية موحدة بعد انتقال الدول العربية من مرحلة التبعية التي ميزت حقبة المعسكرين الى مرحلة الإلحاق المتلازمة والطور المعولم من التوسع الراسمالي (5).

– تستند مرحلة الإلحاق الى قانون التهميش المتمثل بـ [الخصخصة الشاملة لملكية الدولة، مشاركة الشركات الدولية في الثروة الوطنية، شروط المؤسسات المالية] فضلاً عن طبيعة القوى الاجتماعية العربية الحاكمة المترابطة والمراكز المالية والاقتصادية في الدول الكبرى وما يعنيه ذلك من اغتراب الطبقات السائدة عن مصالح بلادها الوطنية.

– تقود سياسة الاغتراب عن المصالح / الوطنية / القومية لدى الفكر السياسي الحاكم في البلدان العربية الى تعرض مفهومي القومية والوطنية للاهتزاز والتآكل.

– ربط القضية الفلسطينية بأمن النظم العربية الحاكمة المترابط والسياسة الدولية وما نتج عن ذلك من نقل القضية الفلسطينية من بعدها القومي الى محيطها الوطني .

ان الوقائع والتغيرات التاريخية المرافقة للطور الجديد من التوسع الراسمالي وضعت الفكر القومي في أزمة سياسية / فكرية شاملة تتشكل ملامحها من العناوين التالية:

– تبعثر الفكر السياسي القومي وانهيار عدته الفكرية الناظمة لنشاطه السياسي بسبب تحولات نظمه السياسية الحاكمة.

– تراجع علمانية الفكر السياسي القومي بعد تحالفه مع القوى السلفية الامر الذي غلف توجهاته القومية بروح مذهبية .

– تواصل العداوات الإقليمية والروح العسكرية لدى الفكر السياسي القومي رغم تغير العلاقات الدولية وتنامي التشابكات الوطنية الإقليمية.

استنادا الى تلك التغيرات الدولية والسمات الكابحة لابد من بناء منظومة فكرية وطنية / قومية واقعية تستجيب (لروح العصر) تتفاعل فيها الموضوعات الفكرية التالية:

– تطعيم الفكر القومي العربي بالفكر الديمقراطي الهادف الى بناء أنظمة سياسية عربية ديمقراطية تعتمد الشرعية الديمقراطية والتداول السلمي للحكم .

– تطهير الفكر القومي السياسي من العنف والروح الانقلابية والعمل على بناء توازنات سياسية / اجتماعية / اثنية بين مكونات التشكيلة الوطنية.

– إنهاء الازدواجية الفكرية المتضمنة مساندة القضية الفلسطينية والتنكر لحقوق القوميات غير العربية وما يشترطه ذلك من الأخذ بمبدأ البناء الفدرالي لشكل الدولة القطرية .

– بناء الدول القطرية الفدرالية يشكل قاعدة سياسية ونموذجا حضارياً لبناء شراكات مع الدول العربية.

– تطوير تلك الشراكات نحو بناء أسواق عربية وإقليمية مشتركة تشكل القاعدة

السياسية / الاقتصادية في بناء التكتل الاقتصادي الضامن للأمن الإقليمي .

– تحرير الفكر القومي العربي من نزعاته العنصرية ونقله الى رحاب الفكر الإنساني الذي يشترط الحوار ولغة المصالح المشتركة التي تعني السعي لبناء توازنات إقليمية مشتركة على قاعدة توازن المصالح .

بهذه العدة الفكرية حسب ما أزعم يمكن نقل الفكر القومي العربي من حالة الركود والانغلاق الى حالة التعاون مع القوى الديمقراطية الأخرى الراغبة في بناء بيئة عربية / إقليمية قادرة على بناء دول قوية وعلاقات دولية إقليمية متوازنة .

أخيراً واعتماداً على بنية البحث التحليلية ومنطلقاته الفكرية لابد من إيراد بعض الاستنتاجات التي أعتقدها ضرورية:

أولا: رغم انبعاث الموجة القومية الثالثة بعد انهيار البناء الفدرالي للدول الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي - يوغسلافيا – جيكوسلوفاكيا) إلا ان تلك الموجة أخذت بالتراجع أمام ميول الاندماج المتسارعة وظهور التكتلات الاقتصادية الدولية / الإقليمية.

ثانياً: ان تراجع المسألة القومية في الطور الجديد من التوسع الراسمالي المعولم مهد الطريق أمام انبعاث الروح الوطنية خاصة في الدول القومية الجديدة (روسيا - الصين) التي سلكت طريق السوق الرأسمالي .

ثالثاً: أفضى تراجع الفكر القومي العربي وتبعثر عدته السياسية الى التحالف مع الإسلام السياسي بأشكال مذهبية.

الهوامش:

)1(تميزت الوحدة بين مصر وسوريا 1959 ـ 1961 باختلال الرؤية السياسية / الاقتصادية المتكاملة بين أطراف دول الوحدة.

)2(تشابهت الظاهرة رغم عنفوانها الثوري في بناء رؤية سياسية / اقتصادية لبناء علاقات متوازنة بين الدول العربية وبالعكس من ذلك شهدت العلاقات العربية توترات سياسية ونزاعات عسكرية.

)3(اقترنت مساعي البعث في العراق في بناء دولة المركز - القومية حروب داخلية وغزوات خارجية أدخلت الى غزو العراق واحتلاله بعد دمير الدولة العراقية.

)4(ان المداخلة تحاصر في حجرة حكم الشرعية النقيضة ولم تعرض الى دول الشرعية الورانية.

)5(انظر لطفي حاتم، العولمة والمسألة القومية، موقع)الحوار المتمدن(على الانترنيت، 23 / حزيران 2009.

أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود

قراءة في كتاب "انهيار الرأسمالية" ❖

د. هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. **نال شهادة الدكتوراه التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام** 1989. **عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.**

صدر العديد من الكتب في الدول الغربية تعالج موضوع الأزمة المالية العاصفة التي يمر بها العالم، ومن هذه الكتب صدر كتاب بالعنوان المذكور أعلاه باللغة الألمانية عام 2009 للاقتصادي أولريش شيفر وقام بترجمته الأكاديمي العراقي الدكتور عدنان عباس علي. وصدر الكتاب ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية عام 2010، وينقسم إلى اثني عشر فصلاً ويقع في 472 صفحة.

تأتي أهمية هذا الكتاب في تقديرنا من أن مؤلفه يؤمن بالعدالة الاجتماعية في ظل النظام الرأسمالي. وبذلك فهو من الناحية الأيديولوجية لا يمكن وصفه خصماً أو متحاملاً على هذا النظام كما درجت العادة على وصف الكتاب والمفكرين الماركسيين في تصديهم لتحليل الأزمات البنيوية للرأسمالية.

يستهل الكاتب التأكيد بأن الاقتصاد، الذي عرفناه حتى الآن، انهار في خريف 2008 وسيتخذ العالم شكلاً مختلفاً في المستقبل، وسيطفو على السطح نظام عالمي

جديد، وسيتبلور اقتصاد سوق قائم على مبادئ العدالة الاجتماعية. ومهما اختلفت الأجوبة حول أسباب الانهيار فإن ثمة حقيقة لا اختلاف عليها أبداً: وهي أن العصر الذهبي، الذي تمتعت به البلدان الصناعية الغربية منذ التسعينات من القرن العشرين، قد صار في ذمة التاريخ. وذهب مع الريح الحلم بازدهار مستديم. إن النظام الرأسمالي المحرر من القيود يقف الآن على عتبة الهاوية. لقد صرنا شهود عيان على حدث متعدد الأبعاد، شهود على تحول تاريخي كبير. فالدولة تنقذ مصرفاً تلو الآخر، وتؤمم الواحد بعد الآخر، إنها تضخ في الاقتصاد مبالغ لا قدرة لنا على تصور ضخامتها، ورغم ذلك، فإن نجاحها في وقف الانهيار يظل في علم الغيب.

صارت الرأسمالية المحررة من القيود والتوجيه تدمر أكثر فأكثر. ولهذه الأسباب ما عاد كثير من المواطنين يصدقون تحقيق الرفاهية التي وعدتهم بها فئات معينة من الاقتصاديين والسياسيين ورجال الأعمال ومجموعات الضغط التي همها الأول هو الدفاع عن مصالح فئات معينة (اللوبي)، فهؤلاء جميعا لم يكفوا قط عن الإشادة بمحاسن اقتصاد السوق المعولم. فلم يعد المواطنون يثقون بأن المنافسة في الأسواق العالمية والمباراة الضارية في البورصات تسبغ النفع عليهم. لذلك عدد المواطنين النافرين من اقتصاد السوق في تزايد مستمر. وصار هؤلاء يتحفظون على الإطار السياسي المناسب لاقتصاد السوق، وعن الديمقراطية أيضاً؛ وأنهم يشيحون بوجوههم عن الأحزاب السياسية، ويتخلفون عن المشاركة في الانتخابات، ويعتزلون المجتمع. فهم يشعرون بأنهم باتوا بلا عون ولا سند، باتوا يشعرون بأن الدولة تعير اهتماماً للآخرين فقط وليس لهم، وبأن السوق، التي يُفترض فيها أن تحقق لهم الرفاهية، أخذت تتصرف، في كثير من الأحيان، بوحشية لا تعرف الرحمة.

لقد استُعيض عن اقتصاد السوق المتكلف بالرعاية الاجتماعية بنموذج جديد يتصف بالوحشية والأنانية. فقواعد هذا النموذج لا تحددها الدولة، بل تمليها المشاريع العملاقة وأسواق المال. ففي الثلاثين عاماً المنصرمة كفت الدولة ومعها السياسيون المنتخبون وفق قواعد الديمقراطية عن التدخل في اقتصاد السوق تاركة قوى السوق تصول وتجول بالنحو الذي يطيب لها، أي تركوا الاقتصاد الوطني توجهه حفنة رجال تهيمن على الشركات العملاقة والمصارف ولا تتمتع بأي شرعية ديمقراطية. ومن ذلك الحين، أطلقت الرأسمالية العنان لطاقاتها الجامحة، المعظمة للرفاهية من ناحية، والمدمرة لوحدة المجتمع من ناحية ثانية.

وفيما يتعلق بالتفاوت الصارخ في توزيع الثروات يركز الكتاب على الأوضاع في الولايات المتحدة حيث بات التفاوت أكثر تطرفاً. وكذلك في الاقتصاديات الناشئة، حيث تزداد، عمقاً، وبسرعة الهوة الفاصلة بين الطبقة العليا وباقي المجتمع. لذلك، يمكن القول أن فئة أغنى الأغنياء في العالم تملك ثروة تساوي تقريباً مجمل الدخول التي يحصل عليها في عام واحد نحو 3 مليار مواطن، أي التي يحصل عليها مجمل سكان الهند وباكستان وبنغلاديش وتايلاند وماليزيا وفيتنام والفلبين ودول القارة الأفريقية جميعها. ولايزال هناك سياسيون يدافعون عن هذا التفاوت الكبير في الدخول. وينتمي أغلب هؤلاء إلى المحافظين. غير أن الجدل

أخذ يزداد حدة في الولايات المتحدة، اليوم، حول مدى التفاوت الذي يمكن للمجتمع أن يرضى عنه.

تتكون، في الاقتصاديات الناشئة، طبقة فقيرة محرومة من ثمار الازدهار الاقتصادي. ويحصل هؤلاء الأفراد، الموجودون في أدنى السلم الاجتماعي، على قوتهم من الأعمال المتواضعة، من خلال خدمة المرفهين الذين يستغلونه كأنهم من الرقيق. ويجمع البعض منهم قوته من القمامة.

الخلفية النظرية

انتشرت، منذ منتصف السبعينات، أفكار فريدمان وهايك في كثير من بلدان العالم. وطبقت تاتشر نظرياتهما عندما أصبحت رئيسة وزراء بريطانيا. كما تبني ريغان أفكار ما يسمى "صبيان شيكاغو" حينما أصبح رئيساً للولايات المتحدة عام 1981 وطبق كثير من الاقتصاديات الناشئة أفكار منظري الليبرالية المحدثة وتعاليم ثورتهم المضادة. وهكذا جسد ممثلو مدرسة شيكاغو في الثمانينات والتسعينات الصورة الدقيقة لليبرالي المحدث الذي لا يعرف الرحمة ولا يكن العطف للضعفاء. فهم لا يرفضون وجود الدولة القوية فقط، بل يطالبون بضرورة أن تصبح الدولة بلا أهمية أصلاً. وبدلاً من هذا، تراهم يعودون إلى الليبرالية التقليدية الكلاسيكية، التي صاغ أسسها آدم سميث الذي وضع أسس علم الاقتصاد في القرن الثامن عشر والتي ظلت تهيمن على الساحة حتى القرن التاسع عشر.

الأمر الذي لا يمكن تجاهله هو أن نظرية الليبرالية التي تُعلي من دور السوق قد قادت، في عقود الزمن الماضية، إلى كارثة عظيمة فعلاً. فالدولة الضعيفة ما كانت تتوفر لها الوسائل الضرورية لمواجهة القوة الضخمة التي باتت الشركات والصناعات تتمتع بها، وقد تحولت السياسة إلى فريسة تتلقفها أيادي مجموعات تدافع عن مصالحها الخاصة بما تمتلك من نفوذ وجبروت عظيمين، كانت قد تحولت إلى دمية تحركها السوق على النحو الذي يروق لها. بهذا المعنى، فإن نظرية "دعه يعمل، دعه يمر"، أي نظرية النشاط الاقتصادي المحرر من التدخل الحكومي، قد بان بطلانها على نحو لا مجال فيه للاختلاف.

وتزامن هذا التحول مع تحول تاريخي، تمثل بنهاية الاشتراكية وإفلاس الاقتصاد المخطط. وكان أنصار اقتصاد السوق الحرة قد هللوا لهذه التحولات ورأوا فيها الدليل القاطع على صواب عقيدتهم، وراحوا يتصرفون وكأن الرأسمالية خالية من العيوب، وكأن قواعدها سليمة تتفق تماماً مع روح العصر الجديد. وبعد مضي ما يقرب من العامين على انهيار جدار برلين راح الكاتب الأمريكي فوكوياما يعلن، في كتاب له واسع الشهرة، "نهاية التاريخ". وقد تنبأ، "بنهاية تطور الإنسانية أيديولوجيا، وأن الديمقراطية الليبرالية المتعارف عليها في العالم الغربي ستكون صيغة الحكم النهائية على مستوى العالم أجمع".

ولم يكن ساكس، وغيره من أساتذة الجامعات، في بلدان مختلفة، هم فقط الذين تنقلوا بين البلدان بغية التبشير بالرأسمالية، فالاقتصاديون العاملون في صندوق النقد الدولي صاروا، أيضاً، مبشرين يجوبون دول المعسكر الشرقي، سابقاً، وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لنشر الرأسمالية. فصندوق النقد الدولي، تحول في السبعينات والثمانينات، إلى داعية من دعاة اقتصاد السوق المحررة من القيود. وكان الصندوق

يغري الدول بالقروض الميسرة، زاعماً أنه يمنح هذه الأموال حباً في مساعدتها. فالدول المدينة تحصل على المليارات، فقط، في حال انصياعها لشروط صارمة، تلزمها بتحقيق التوازن في موازنتها الحكومية وخصخصة مشروعاتها وتحرير تجارتها الخارجية وخفض المعدلات الضريبية. ويسري الأمر على أولئك الاقتصاديين الذين يعملون لدى البنك العالمي أيضاً. ويتحدث منتقدو المؤسستين عن تلك السياسة التي تملي على الدول تنفيذ إصلاحات غاية في التطرف، ولا تعير أي اهتمام لما يعانيه المواطنون من أعباء ترتبط بهذه الإصلاحات.

وعلى خلفية هذه الحقيقة، راحت دول النمور في جنوب شرقي آسيا- تايلاند وماليزيا وسنغافورة وإندونيسيا وهونغ كونغ- وبلدان أمريكا اللاتينية مثل المكسيك تفتح أسواقها للمافيا العالمية.

لم يبذل أحد جهداً لترويض الرأسمالية المطلقة العنان؛ لم يجرؤ أحد على التشكيك بصواب المبادئ السائدة. إن عدم المبالاة، التي سيطرت على السياسيين وقادة الاقتصاد في البلدان الصناعية، كانت وخيمة حقاً. وهكذا، سار العالم، في نهاية الألفية الثانية ومطلع الألفية الثالثة، بخطى حثيثة صوب الأزمة التالية. فجميع النظريات الجميلة عن السوق التامة الكمال، أمست بين ليلة وضحاها، زيفاً لا طائل منه.

تفاعلات الأزمة

ويتعمق الكاتب في تحليل آلية عمل أسواق المال التي تحولت إلى خطر يتهدد الاقتصاد الإنتاجي. تحولت إلى كازينو للقمار. وإن اللاعبين في هذا الكازينو يمكن أن يقوضوا أركان شركات عملاقة ومتوسطة، إذا خسروا الرهان. لا بل قد يتسببون في زعزعة الاستقرار في دول بأكملها. بدا الأمر وكأن أسواق المال باتت تخلق مليارات ومليارات، من اليورو أو الدولار من لا شيء. واغتنمت الشركات العملاقة والمصارف الفرصة فراحت تمول عمليات ضخمة تشتري الشركات في سياقها شركات أخرى. على صعيد آخر، عاش العالم- بتشجيع من المصارف الاستثمارية- حميا عمليات اندماج لم يشهد العالم لها مثيلاً منذ عشرات السنين. وراحت صناديق المخاطر تراهن على المستقبل من خلال أدوات مالية غاية في الشمولية والتعقيد. وتقتنص مؤسسات "الجراد" المشاريع بغية شرائها أولاً، وتفكيكها، وبيعها لاحقاً بأسعار تحقق ربحاً وفيراً. وبعبارة واحدة، يمكن القول إن العصر الجديد كان عصر جشع لا يعرف الحدود.

وكان ويلش عنواناً لنظرية تكن كل الاحتقار للمشاعر الإنسانية، أي نظرية تعظيم الأسهم، التي انتشرت في التسعينات، فهذه النظرية تقيم عمل رؤساء الشركات من منظور واحد يتمثل في أن قيمة أسهم الشركة يجب أن ترتفع بأسرع معدل ممكن. ومعنى هذا هو أن رئيس الشركة المهتم بتعظيم الأسهم لا يجوز له أن يأخذ في الاعتبار الرزايا الإنسانية الناتجة عن تسريحه آلاف العاملين. وتعم الفرحة البورصات، خصوصاً، حينما يتناهى إلى سمعها أن رؤساء الشركات قد سرحوا قسماً من العاملين لديهم. وتنعكس هذه الغبطة في ارتفاع قيمة أسهم الشركات.

ويكشف الكتاب علاقات المصارف الوثيقة جداً بالسياسيين، والتي كانت تمن عليهم بتبرعات سخية جداً. سواء تعلق الأمر بالديمقراطيين أو الجمهوريين في الولايات المتحدة، فلم يصل الجميع إلى البيت الأبيض إلا بفضل الدعم المالي الذي يقدمه لهم "وول

ستريت". وللتعبير عن شكرها تركت الحكومة والكونغرس، مصارف الاستثمار تعمل بلا منغصات وبلا قيود ذات بال. وفي المقابل دأب "وول ستريت"، طواعية، وعن طيب خاطر، على إعارة واشنطن أفضل ما لديه من رجال أعمال للعمل في مؤسسات الدولة الحساسة كوزراء مثلاً.

في منتصف التسعينات، ترنحت، الرأسمالية. وكانت رياح الأزمة قد هبت، أولاً، من الاقتصاديات الناشئة. وفي عام 1994 انهار الوضع في المكسيك، وبعد ثلاثة أعوام أخذت تترنح في جنوب شرقي آسيا، بلدان النمور أيضاً. وكان وكيل وزير المالية الياباني آيزوكه قد أكد عام1998على "أن الأزمة ليست أزمة آسيوية، بل هي أزمة النظام الرأسمالي العالمي".

تريد الصناديق المغامرة تحقيق أقصى الأرباح في أسرع وقت ممكن. ولهذا السبب تراها تستدين من المصارف أموالاً تصل أضعاف الأموال التي تجمعها من المستثمرين المساهمين فيها. فبهذا النحو تستطيع رفع قيمة الأموال التي تغامر بها في كازينو المال العالمية إلى عشرين ضعفاً مقارنة بحجم الأموال المشاركة في الصندوق المعني. وفي نهاية الثمانينات، كان عدد نوادي القمار هذه لا يتجاوز المائة وارتفع إلى عشرة آلاف، عام 2008

أرتفع حجم المتاجرة بالمشتقات التقليدية، أي حجم المقامرة بمعدلات الفائدة ومؤشرات البورصات، بين 1986– 2004، بنحو ثمانين ضعفاً من 614 مليار دولار إلى 46.6 تريليون دولار أي إن تطور أسواق المال ما عادت له علاقة بتطور الاقتصاد الإنتاجي: فسابقاً كانت أسواق المال تزود الصناعة بما تحتاج إليه من قروض؛ أما في الوقت الحاضر، فإنها تهيمن على الاقتصاد العالمي وتجبر المشاريع على تنفيذ التغيرات التي تفرضها عليها.

لقد كان الانهيار أمراً حتمياً. فكان المستثمرون، في حقبة الاقتصاد الجديد، قد تجاهلوا كل المقاييس والمعايير. فهم اشتروا شركات ما كان لها مستقبل قط. ووثقوا بإرشادات خبراء في شؤون الأسهم، تبين أنهم لم يكونوا خبراء، بل نصابين. في النهاية، استسلم هؤلاء المستثمرون للجشع، فقط. وكان الجشع هو العامل الذي مكن بعض الشركات الصغيرة من أن تسجل، في البورصات، قيمة تفوق بكثير قيمة شركات مملوكة من قبل الدول وتشغل مئات الآلاف من العاملين. إن هذا الجشع هو الذي تسبب في جعل قيمة أسهم الشركات تنمو بمعدلات تفوق، بكثير، معدلات نمو إجمالي الناتج القومي.

ولم يتقن أحد هذا النصب والاحتيال بالنحو الذي أتقنته شركة إنرون للطاقة، التي كانت تمتلك أمتن العلاقات بالرئيس الأمريكي. وقد صدم الأمريكيين قوة التشابك بين إنرون والجهاز الحكومي. فالعلاقات التي نسجت خيوطها هذه الشركة ما كان بإمكانها أن تكون أقوى مما كانت عليه قط. فمنذ 1990كانت الشركة قد تبرعت لمجموعة من السياسيين، بنحو 6 مليون دولار. فقد حصل نصف أعضاء مجلس النواب وثلاثة أرباع مجلس الشيوخ على دعم مالي منها. ومن هنا، لا غرو أن يخفف الكونغرس، في التسعينات، من شدة القواعد المفروضة على المتاجرة بالطاقة الكهربائية. وعقب انتخاب بوش، احتل سياسيون جمهوريون، سبق لهم العمل في إنرون زمناً طويلاً، مناصب غاية في الأهمية في الإدارة الحكومية.

ومثلما ظلت الارتباطات السياسية، التي أقامتها إنرون، خفية عن الأنظار، ظلت أيضا خفية تلك الشبكة الواسعة، التي كانت إمبراطورية إنرون قد نسجت خيوطها. فخبراؤها المتخصصون بالتحايل المالي أسسوا أكثر من ٤٠٠٠ "شركة" وهمية ما كان لها أي وجود في الحسابات الختامية. والمراد من هذه الشركات التستر على الوضع الحقيقي للشركة مقابل المصارف والمساهمين ومكاتب الضريبة. إن فضيحة إنرون التي أفلست إفلاساً مريعاً، لم تكن حدثاً فريداً. فالصفقات غير المشروعة وتزوير الحسابات الختامية والميزانيات كانت أموراً شائعة في الاقتصاد الجديد.

تعين على ملايين العائلات الأمريكية إخلاء منازلها، وبيعها بالمزاد العلني، وذلك لأنها ما عادت قادرة على خدمة ما بذمتها من قروض. والبعض منهم يُهجرون من منازلهم بكل معنى الكلمة، لا لشيء إلا لأن المصارف تتطلع إلى المال. إن هذا التهجير ما كان له مثيل حتى في حقبة الكساد الكبير الذي خيم على الولايات المتحدة في الثلاثينات.

في البداية، تصور المرء أننا إزاء أزمة محلية، إزاء مشكلة يعاني منها بضعة عشرات الآلاف من أصحاب المنازل في الولايات المتحدة. غير أن هذه الأزمة سرعان ما انتقلت من سوق العقارات إلى سوق التمويل والمصارف، ومن ثم إلى مجمل الاقتصاد الأمريكي أولاً، والاقتصاد الأوروبي فيما بعد. إن هذه الأزمة هي أوخم أزمة تعصف في أسواق المال منذ حقبة الكساد الكبير.

دفع العالم ثمناً باهظاً بسبب هذه الأخطاء. ففي الأسابيع التالية انهار مجمل النظام المالي. فالثقة بين المصارف تبددت بالكامل. فالإقراض بين المصارف توقف تماماً، وصار يهدد الجميع بالإفلاس. وعلى خلفية هذا التطور، انهارت بالكامل المتاجرة بالمشتقات ووصلت أسواق الأسهم في البورصات العالمية إلى الحضيض حيث شهدت، في خريف 2008، عمليات بيع للأسهم لم تشهد لها مثيلاً منذ 1929

وكانت المصارف قد قامرت بأوراق مالية، غامضة الخلفيات، وصفها المستثمر بوفيت، بأنها "أسلحة مالية من أسلحة الدمار الشامل" قامرت بما يسمى مبادلات التأمين ضد مخاطر إفلاس هذه الشركة أو تلك والمسماة اختصاراً .CDS وكانت قيمة هذه الأدوات المالية قد بلغت ٦٢ تريلون دولار في مطلع 2008، أي زادت قيمتها على إجمالي الناتج الذي يحققه العالم سنوياً.

وخلال بضع ساعات انتشرت أخبار مفزعة، حقاً، أنذرت بأن وول ستريت لن يكون، من الآن فصاعداً، هو نفسه كما عرفه العالم حتى الآن. فخلال ثلاثة أيام اختفت ثلاثة من كبرى بيوت الاستثمار: ليمان برازرز أعلن الإفلاس وميريل لينش بيعت وغولدمان ساكس ومورغان ستانلي تحولا إلى مصرفين قابضين متواضعين. لقد استسلم مركز الرأسمالية للمكتوب. استسلم هذا المركز المالي الذي كان حتى ذلك الوقت مفخرة أمريكا، والمكان الذي يحدد للاقتصاد العالمي شروط اللعبة، والذي كان رمز العجرفة والغطرسة. فمصارف الاستثمار درت، على مدى عقود كثيرة، مالاً وفيراً على أمريكا غير أنها توقفت عن العمل الآن. وكان شتاينبروك وزير المالية الألماني قد أكد أن "الولايات المتحدة لم تعد القوة العظمى في النظام المالي العالمي". وشعر العالم برمته بآثار الصدمات التي نشأت عن هذه الأزمة:

فقد انهارت أسواق الأسهم في كل بقاع المعمورة. وتعين على روسيا أن تغلق أبواب البورصة وترنح في بريطانيا وألمانيا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ العديد من المصارف. وكيفما اتفق، فقد تضعضعت ثقة الأمة الأمريكية بنفسها. فأمريكا غدت كما تنبأ عالم الاجتماع سينيت، "بلداً في طور الانحطاط".

وراحت أيسلندا تتوسل إلى صندوق النقد الدولي راجية منه منحها قرضاً يساعدها على مواجهة الأزمة. لقد أفلس إفلاساً مروعاً هذا البلد، وجرف تيار الأزمة بلدانا بأكملها، مثل ايرلندا والمجر.

فعلى مر التاريخ، لم يسبق قط، أن صفت المؤسسات المالية، على جناح السرعة، هذا الكم الهائل من متاجرتها بالأوراق المالية. فالانهيار كان قد خلق سلسلة ردود أفعال ما كان أحد قادراً على السيطرة عليها، لا الحكومات ولا المصارف المركزية. فقد تراجع مؤشر داو جونز إلى أقل من 10 آلاف نقطة في يوم واحد وهو حدث ما كان له مثيل في تاريخ هذا المؤشر البالغ من العمر112 عاماً.

أمسى الاقتصاد في أمس الحاجة إلى منقذ لايزال، وحده، يتمتع بشيء من الثقة، وهو الحكومة. إذ هي الطرف القادر على الوقوف في وجه الانهيار، وتأمين الاستقرار. وهي تعلم جيداً أن العزوف عن هذا التدبير يهدد بنشأة سلسلة ردود أفعال شبيهة بالأزمة التي تعرض لها الاقتصاد العالمي في نهاية العشرينات، إذ سيتعين عليها، تمويل الملايين من العاطلين عن العمل.

تعصف أزمة الرأسمالية بعالم أمسى يعيش انقلاباً جذرياً. فالدول الصناعية تخسر أكثر فأكثر هيمنتها، في حين تبذل دول الاقتصاديات الناشئة الجهود لاحتلال المراتب المتقدمة. إنها عقدت العزم على إجبار العمالقة القدماء على التنحي جانباً.

وأمست تصر على ضرورة مراعاة وجهات نظرها ومصالحها، لاسيما أنها تفوقت، على الدول الصناعية من حيث مساهمتها في النمو الاقتصادي العالمي.

إن تراث الليبرالية المحدثة قد نحي جانباً ولم يعد له دور يذكر. والواضح، أن عصر التطرف في التحرير الاقتصادي قد ولّى وانقضى، وأن عصراً جديداً قد حل محله: عصر الدولة الأكثر قوة وفاعلية.

ويؤكد المؤلف في نهاية الكتاب، إن مستقبل الرأسمالية يتوقف على مدى التغيير الذي سيطرأ على الأخلاقية السائدة وعلى إدراك الجميع أن مبدأ المسؤولية الاجتماعية لا يقل أهمية عن مبدأ السوق الحرة. أما إذا تم تجاهل هذه الحقيقة، فإن اقتصاد السوق معرض للمصير نفسه الذي تعرضت له الاشتراكية: الانهيار والاختفاء من الوجود.

* أولريش شيفر، انهيار الرأسمالية، ترجمة: د. عدنان عباس علي، عالم المعرفة)371(—سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والداب، الكويت، يناير 2010.

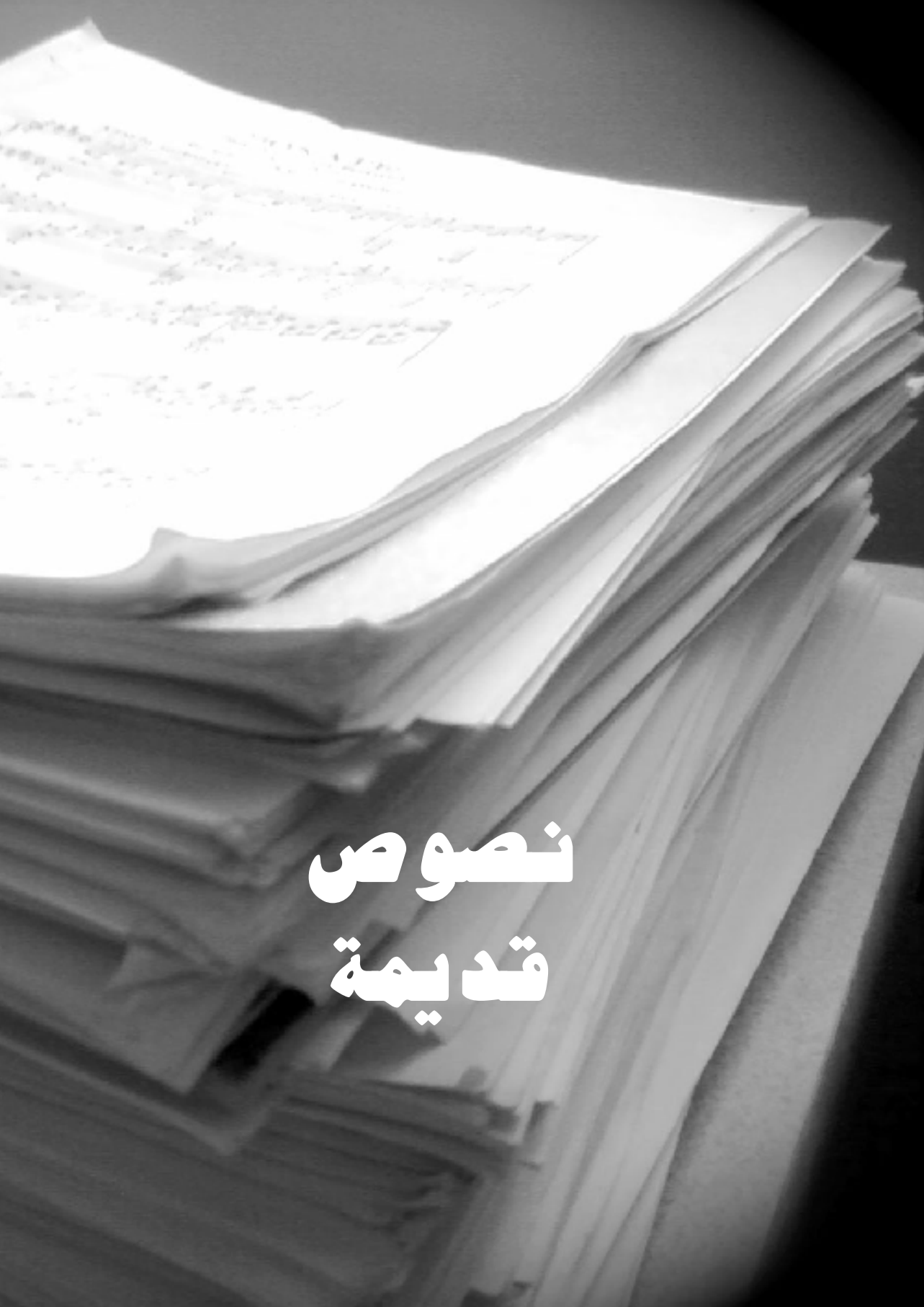
نصوص
قديمة

اقتصاد أمريكا وانعكاساته الخارجية
قضايا النفط، العقوبات على العراق، التنمية

مقابلة مع د. عباس النصراوي ❖

البروفسور عباس النصراوي1932- 2009 من مواليد الهندية/العراق. تخرج من كلية التجارة والاقتصاد بجامعة بغداد عام 1953 وحصل على الدكتوراه في جامعة هارفارد عام 1965.خلال الفترة 1963- 1999 عمل في جامعة فيرمونت في الولايات المتحدة وفيها رقي الى رتبة أستاذ وعمل خلال الفترة 1972 - 1977 عميدا مشاركا لكلية الآداب والعلوم فيها. نشرت له بالانكليزية ستة كتب باللغة الانكليزية عن النفط والتنمية والاقتصاد العراقي بالإضافة الى بحوث في دوريات عديدة باللغتين الانكليزية والعربية. في عام 1995 صدر له عن دار الكنوز الأدبية ببيروت كتاب عنوانه: الاقتصاد العراقي بين دمار التنمية وتوقعات المستقبل (1950- 2010)، ترجمة د. محمد سعيد عبد العزيز. أثار الكتاب المذكور اهتماما كبيرا من الاقتصاديين والمهتمين بالشأن العراقي آنذاك لما احتواه من تحليل عميق لواقع الاقتصاد العراقي وآفاق تطوره في ظل النظام الدكتاتوري. عمل البروفسور النصراوي مستشارا لأوبيك ولصندوق الأوبيك ولليونسكو وصندوق الأمم المتحدة للتنمية. كما كان عضو في عدة روابط وجمعيات علمية، أمريكية وعربية.

ث.ج: بودنا أن تستهل هذا اللقاء، بالحديث عن موقع الاقتصاد الأميركي في الدورة الاقتصادية الحالية.

– يمكن القول انه منذ الحرب العالمية الثانية يتدرج الاقتصاد الأميركي دوريا بين انتعاش و ركود، كما هي الحالة في أي اقتصاد غير مخطط مركزيا. ونظرا لسعة الاقتصاد الأميركي بموارده البشرية

والطبيعية والصناعية نجد أن تقلباته الدورية تتباين في المدى والعمق. فأحيانا تستمر مرحلة الانتعاش سنوات أكثر وتكون نسبة النمو عالية، وفي دورة أخرى يتقلص مدى الانتعاش ونسبة النمو. وهكذا الأمر مع مرحلة الركود، فيتباين عمقه وامتداده الزمني. وعموما نلاحظ أن تذبذب الاقتصاد الأميركي لا يحصل بالدرجة التي كانت قبل الحرب العالمية الثانية، مثل ما حصل في الكساد العظيم الذي ضرب أميركا والعالم الرأسمالي عموما في أواخر العشرينات ولم يشفُ الاقتصاد حتى اندلاع الحرب. ذلك الكساد لا يوجد اتفاق بين الاقتصاديين على تفسير أسباب بلوغه تلك الشدة من حيث العمق والفترة الزمنية.

في السنة الأخيرة من إدارة الرئيس بوش اخذ الاقتصاد يخرج من مرحلة الركود التي بدأت في أواسط الثمانينات ويستمر الانتعاش في الوقت الحاضر، فينمو الاقتصاد بنسبة حوالي 3٪. وتحتل المرتبة الأولى في النمو القطاعات المعتمدة على العلم والتكنولوجيا مثل صناعة الكومبيوتر وبرامجه وقطاع الإعلام والفضاء والسلاح والسيارات.

ث.ج: لكن زوال " خطر" الخصم السوفيتي يستدعي تراجع صناعة السلاح التي لعبت دورا كبيراً في الاقتصاد الأميركي منذ الحرب العالمية الثانية؟

– الميزانية العسكرية لم تتقلص كثيرا في الواقع رغم انهيار الاتحاد السوفيتي. كان الناس يأملون جني الرفاه من وقف سباق التسلح بعد الحرب الباردة وذلك بتحويل الموارد من القطاع العسكري الى القطاعات الاجتماعية. لكن هذه الآمال لم تتحقق لأن الحزبين الجمهوري والديمقراطي متفقان على إبقاء ضخامة ميزانية وزارة الدفاع. ومن العوامل التي تعيق تقليص الصناعة العسكرية مصالح أعضاء الكونغرس في المناطق التي توجد فيها صناعات عسكرية، لان إغلاقها يؤدي الى الانكماش والبطالة هناك. ولذلك لا يتحمس نوابها لتقليص التسلح، رغم معرفتهم أن بعض المنشآت العسكرية في مناطقهم لم تعد لها جدوى.

ث .ج: ألم يحول بعض هذه المؤسسات من الإنتاج العسكري كإنتاج الدبابات الى الإنتاج المدني؟

– مثل هذا التحويل لم يحصل بدرجة تثير الانتباه حتى الآن، الدبابات مثلاً كانت تصنعها شركات السيارات وإنتاج هذه الشركات يتوقف على توقعاتها بشأن الطلب على السيارات.

ث.ج: الإدارة الأميركية وخاصة البنك الاحتياطي (المركزي) يسعى دوما بسير الاقتصاد بوسائل نقدية ومالية، فما هي حصيلة التجربة حتى الآن؟

– في مرحلة الانكماش يسعى البنك الى زيادة حجم الطلب على السلع والخدمات عن طريق خفض سعر الفائدة تشجيعاً للاقتراض، وبالتالي زيادة الإنفاق الاستهلاكي للجمهور وكذلك للاستثمار من قبل الشركات. وهكذا فأن هذا البنك يعمل على توسيع عرض النقود كي يرتفع طلب السكان على السلع والخدمات، مما يساعد على إنعاش الاقتصاد. وعندما ينطلق الاقتصاد في النمو بعد ما يشتد الطلب نجد البنك الاحتياطي يميل الى رفع سعر الفائدة للحد من الاقتراض والحد بالتالي من النمو الذي يرافقه صعود التضخم. ومؤخرا عمد البنك بضع مرات الى رفع سعر الفائدة لهذا الغرض. وهذا ما تعارضه الأوساط العمالية المهتمة بتقليص البطالة أكثر من اهتمامها

بالتضخم الذي لا يريده أصحاب رؤوس الأموال. ثم أن بقاء نسبة معينه من البطالة يضغط على أجور غير العاطلين.

ث.ج: هذا مفهوم. ولكن قد يسأل القارئ: لماذا يستغرق إخراج الاقتصاد من ركوده أربع وخمس سنوات بعواقبها الاجتماعية والسياسية المعروفة.

– يتطلب إقبال الأفراد والشركات على الاقتراض والإنفاق مدة معينة لكي يتعزز التفاؤل بشأن آفاق الوضع الاقتصادي. فما دام التشاؤم قائماً فان الإقبال على القروض يبقى دون المستوى الذي يساعد على إنعاش الاقتصاد.

ث.ج: هل هناك فرق جوهري في السياسة الاقتصادية بين إدارة الجمهوريين (ريغان –بوش) والإدارة الديمقراطية (كلينتون) ؟

– يجب القول أولا أن البنك الاحتياطي مستقل رسميا، دستوريا، عن الحكومة العليا. فرئيس البنك وأعضاء مجلس إدارته ترشحهم الإدارة ثم يخضعون لتصويت مجلس الشيوخ. وبعد الموافقة على تعيينهم يتمتعون بالحصانة طيلة انتدابهم. ونظريا يتصرف البنك باستقلال عن الإدارة الأميركية ورئيسها. ولكن البنك في الواقع يتشاور مع الإدارة في سياسته النقدية. فرئيس البنك يجتمع أسبوعيا مع وزير الخزانة ورئيس مجلس الاستشاريين الاقتصاديين للبيت الأبيض. فيتداول الثلاثة حول وضع الاقتصاد بما يتوفر لديهم من معطيات. وعن هذا الطريق تؤثر الإدارة على سياسة البنك كما أنها تحاول سد الشواغر بمؤيديها في مجلس إدارة البنك.

ث.ج: ترى ما مقدار الفرق بين سياسة الحزبين الجمهوري والديمقراطي بشأن معالجة تقلبات الاقتصاد؟

– الجمهوريون يركزون على القطاع المالي ويعلنون تخوفهم من التضخم. فهم يدعون الى ترك سير الاقتصاد الى فعل السوق، ومساعدة الشركات على النشاط والاستثمار. فهذا ينعش الاقتصاد ويزيد الطلب، بالتالي، على القوى العاملة. الحزب الديمقراطي لا يختلف في هذا الشأن عن الحزب الجمهوري. لكن الحزب الديمقراطي يعتمد على تأييد السكان الأقل دخلاً، لذلك فهو يدعو الى الاهتمام بهذه الفئات من العمال والفئات الأقل دخلاً من الطبقة الوسطى. فالرئيس جونسون، الديمقراطي، استحدث مؤسسات ووسائل لدعم مثل هذه الفئات. لكن ريغان، الجمهوري، عمل على إلغاء وتقليص هذه المؤسسات والوسائل. بعد فوز الديمقراطيين والرئيس كلنتون، تحاول إدارته إعادة مثل هذه المؤسسات وعملت على تخفيف عبء الضرائب على ذو الدخل الواطئ وزيادة الضرائب على الأغنياء. ويحاول كلنتون إقامة نظام صحي لسد حاجة حوالي30 مليون أميركي لا يسمح دخلهم الواطئ بالانتفاع من القطاع الخاص الصحي، أي أنهم لا يتمتعون بضمان صحي منتظم. وهناك إجراءات أخرى اقل أهمية. وهذا التوجه يجابه معارضة الجمهوريين في مجلس الشيوخ مع العلم أن كلنتون لا يصنف ضمن الجناح اليساري في الحزب الديمقراطي الذي يتهمه باليمينية. لكنه في الواقع اقرب الى نهج الوسط في حزبه.

ت.ج: كما نعرف، للبطالة أبعاد اقتصادية / اجتماعية، وبالتالي سياسية. والبطالة الواسعة أصبحت ظاهرة مزمنة في اغلب البلدان المتقدمة اقتصادياً، وخاصة في أوربا. فآخر ما

نشر أن عدد العاطلين يبلغ حوالي53 مليون شخص في البلدان الصناعية المتقدمة. فكيف تتطور في أميركا؟

– بعد الحرب العالمية الثانية، جرى الحديث عن تقليص البطالة الى الصفر عن طريق السياسات الاقتصادية الكينزية. وليس ذلك بمعزل، طبعا، عن اعتبارات الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية التي تضع القضاء على البطالة في أولويات سياستها. ولكن بمرور الوقت أخذ الساسة وعلماء الاقتصاد يسلمون ببقاء نسبة معينة من القوى العاملة عاطلة عن العمل، ويعتبرون أن البطالة بنسبة 3٪ مثلاً هي ظاهرة (طبيعية)، قائلين أن للاقتصاد حركته الخاصة، فبعض الصناعات تذوي أو تزول وأخرى تنتعش أو تنشأ، مما يؤدي الى انتقال العمالة من فرع الى آخر بعد مرورها بمرحلة من البطالة الوقتية. وهناك طبعا البطالة الدورية التي تنشأ عن انكماش الاقتصاد وأزمته. بمرور الزمن اخذ الساسة والاقتصاديون يسلمون بنسبة أعلى فأعلى من البطالة، تبلغ 5٪ أو 6٪ من مجموع قوى العمل، حسب رأي بعض الاقتصاديين، علما بأن نسبة 6٪ في أمريكا تعني حوالي ستة ملايين عاطل. وهناك مشكلة الإحصائيات الرسمية التي تحاول إعادة تمويه العدد الحقيقي للعاطلين، فهناك أعداد هائلة من الناس يبحثون عن العمل مدة طويلة ثم ييأسون من إيجاده فيكفون عن البحث، وبالتالي لا يدخلون في إحصاء العاطلين. ويميل بعض الاقتصاديين الى مضاعفة العدد الرسمي. وللبطالة جيوبها المتميزة في المجتمع الأمريكي، فمعدلها مرتفع بين النساء وبين الشباب وبين الزنوج خاصة في المدن بحيث تصل عند السود الى أكثر من 20٪ أحيانا.

هناك نوعان من السياسات لتقليص نسبة البطالة، أولا السياسة الائتمائية والمالية التي تساعد على زيادة الطلب الاستهلاكي والاستثماري، كما اشرنا، وبالتالي ينتعش الاقتصاد ويرتفع الطلب على اليد العاملة. وهناك أيضا سياسة البرامج الخاصة الموجهة للفئات التي لا تنتفع من النمو الاقتصادي كالريفيين والمسنين والمعوقين والنساء والأقليات. فمثل هذه السياسات انتهجها الرئيسان الديمقراطيان روزفلت قبل الحرب وجونسون في الستينات وذلك لمكافحة الفقر والبطالة. ويمكن النظر الى بعض إجراءات الرئيس الحالي في ضوء هذا التوجه.

رغم كثرة وكثافة البحوث الاقتصادية الرامية الى التنبؤ والتحكم بسير الاقتصاد وبالتالي بمستوى البطالة، بات معروفاً أن لكل دورة اقتصادية خصوصيتها. وعلى كل حال فان تقلبات الاقتصاد ملازمة للرأسمالية، ولا يمكن تجنبها إلا بالتخطيط على مستوى الاقتصاد الوطني.

ث.ج: في بداية الثمانينات وصل الرقم الرسمي للبطالة حوالي 12 مليون. ومرحلة الركود الاقتصادي استمرت مدة طويلة نسبيا في عهد ريغان. وحتى الآن ما زال بضعة ملايين عاطلين عن العمل رغم الانتعاش الحالي. ثم أن هناك دراسات تقول أن الدخل الحقيقي لغالبية العاملين بأجور قد مال الى الهبوط في السبعينات والثمانينات. ومع ذلك فان المعارضة للسياسات الاقتصادية الاجتماعية لم تتصاعد في أوساط العمال والفئات الوسطى المتضررة، فكيف تفسر ذلك؟

– إذا استبعدنا تأثير التضخم في خفض القيمة الشرائية للدولار وذلك باعتماد

مستوى الأسعار لعام 1982 سنحصل على تطور الدخل الحقيقي بالأسعار الثابتة أي بأسعار 1982، هنا، سنجد أن معدل الدخل الحقيقي (بالأسعار الثابتة) قد ارتفع في الصناعة الأمريكية من261 دولارا أسبوعيا عام 1959 الى 315 دولارا عام 1972، أي تضاعف تقريبا، لكنه مال بعد ذلك الى الهبوط حتى العام الماضي حين بلغ 255 دورا فقط، في الأسبوع، أي أن مستوى معيشة عمال الصناعة هو الآن أوطأ مما كان عليه قبل35 عاما. فالزيادة الحاصلة في الدخل النقدي لهؤلاء لم تواكب معدلات التضخم حتى الآن. وقد أدى ذلك الى اتساع فجوة الدخل بين الشريحة الثرية وأغلبية السكان.

ينبغي عدم إغفال الدور الهائل لوسائل الإعلام الأمريكية التي تملكها وتسيرها الشركات، وبالتالي فهي تنشر الوعي الذي يلائم مصالحها. فهي تعمل على تعزيز المحافظة في المجتمع الأمريكي. أواخر الستينات والنصف الثاني من السبعينات نشطت المعارضة السياسية في الجامعات ضد الحرب الفيتنامية، لأن الطلبة لم يرغبوا في أن يصيروا وقودا لهذه الحرب التي لا يقرأون أهدافها . ولم تشارك الطبقة العاملة في النشاط ضد الحرب.

ث.ج : بعد هذه اللمحة عن التطورات الاقتصادية وآثارها الاجتماعية داخل أمريكا، بودنا، قبل الانتقال الى شؤون النفط وهي اختصاصك الأكاديمي، التعرف بإيجاز على انعكاسات تلك التطورات على علاقات أمريكا الخارجية في سياق عملية الكوننة التي يشهدها العالم في الوقت الحاضر، ولنبدأ بواحد من ابرز تجليات هذه العلاقات، نقصد مديونية أمريكا. فمن المفارقات أنها أكبر البلدان مديونية رغم أنها القوة الاقتصادية الأكبر في العالم. فكيف تتطور هذه المديونية وما تأثيرها على الاقتصاد والسياسة الخارجية ؟

– الدين العام الأمريكي داخلي وأجنبي، انه دين على الدولة للشركات والأفراد الذين يمتلكون سندات حكومية تطرحها الدولة لسد العجز في الميزانية، وهناك مديونية أميركا للعالم الخارجي بسبب العجز المزمن في ميزان المدفوعات الأمريكية. وقد بلغ الدين العام رقما فلكيا بالفعل، إذ انه يقارب الأربع ترليونات دولار (أي أربعة آلاف مليار دولار). لكن هذه المديونية كما يبدو لم تجعل الاقتصاد في وضع متأزم. فهي قبل كل شيء مديونية الاقتصاد الأضخم عالميا، كما أشرتم، وهو اقتصاد متقدم جدا، وهو لذلك يتمتع بثقة الدائنين في الداخل والخارج. لذا يظل تأثيرها محدودا نسبيا. الإدارة الأمريكية تسعى للحد من زيادة مديونيتها بتقليص العجز في الميزانية، وفي الميزان التجاري، وميزان المدفوعات، خاصة، وان للميزان التجاري علاقة عضوية مع العمالة. فزيادة تصدير المنتجات الأمريكية، يعني زيادة الطلب على اليد العاملة التي تنتجها، والعكس صحيح.

ث. ج: لكن هذا المسعى يصطدم بمساعي الدول المنافسة. فهناك مثلا فائض هائل لليابان في الميزان التجاري مع أمريكا، وهو موضوع صراع بين الطرفين. وهناك العلاقة التجارية مع أوربا الغربية التي يمضي الى الأمام اندماجها في الاتحاد الأوربي ليشكل كتلة عملاقة.

– صحيح، هناك اصطدام في المصالح بين الدول والكتل من الناحية التجارية فهي

جميعا تعمل، وفق المبدأ المركنتالي، لترجيح الصادرات على الواردات. وتنشأ نتيجة اصطدام المصالح التجارية، والمالية، صراعات وتوترات فيما بينها. شهدنا مؤخرا حملة في مجلس النواب وفي وسائل الإعلام ضد اليابان بسبب فائضها التجاري. وتبعت ذلك بضغوط دبلوماسية عليها ومطالبتها بفتح أسواقها أكثر للصادرات الأمريكية. هناك وعود من اليابان باتخاذ إجراءات تساعد على تقليص الفائض.

ث . ج : ألا تعتبر مثل هذه الحملة عن النزعة القومية الأمريكية التي تتجلى في المواقف من اليابان وغيرها من البلدان؟ هناك استثمارات أمريكية هائلة في اليابان. ونحن لم نسمع وجهة النظر اليابانية بهذه المشكلة. وماذا تفعل اليابان بفائض صادراتها؟

– درجة الحماية في اليابان ليست أعلى كثيراً من الحماية الأمريكية. العجز التجاري يؤدي الى بطالة وإثارة السخط الشعبي على الدولة صاحبة الفائض التجاري. هذا هو احد عوامل الضجة الحالية ضد اليابان. ولكن البطالة تتأتى أيضا من هجرة رؤوس الأموال الأميركية الى الخارج بحثاً عن بلدان تتميز بقلة أجور عمالها قياساً الى مستوى الأجور في أميركا. احد أهم الانتقادات الموجهة في أمريكا ضد اتفاقية (النافتا) لاندماجها الاقتصادي مع كندا والمكسيك نابع من الخوف من منافسة العمالة الرخيصة فيها وهجرة رؤوس الأموال إليها.

ث. ج: كيف تتطور معالجة مثل هذه المشاكل في إطار التفاعل بين الأقطاب الاقتصادية العملاقة الثلاثة، وكذلك في الإطار الأوسع من خلال اجتماعات (السبعة الكبار) التي أساسها اقتصادي؟

– ليس بوسع أميركا السيطرة الاقتصادية الكاملة على العالم، العوامل الموضوعية تقود الى شكل من تقسيم العمل: اليابان يتوسع نفوذها الاقتصادي في جنوب شرق آسيا، الاتحاد الأوربي، وبالدرجة الأولى ألمانيا، يتزايد نفوذها في شرق أوربا وروسيا، أما أمريكا فيستمر نفوذها الواسع في الأمريكتين. لكن هذا التقسيم يصعب الحفاظ عليه. فالتوسع الياباني الهائل في آسيا يكون على حساب التوسع الأمريكي فيها. فصادرات أمريكا الى آسيا أعلى من صادراتها الى أوربا. اجتماعات السبعة الكبار لا اعتقد أنها فعالة في تنسيق السياسات الاقتصادية، بل هي، حسب تصوري، من مخلفات التنسيق السياسي بين الدول الرأسمالية الكبرى خلال الحرب الباردة. ففي نهاية المطاف كل دولة تتصرف وفق مصالحها. فتوصيات اجتماعات رؤساء هذه الدول غير ملزمة لأية دولة.

ث. ج: قبل انهيار الاتحاد السوفيتي كان العالم بقطبين بالنسبة للبلدان النامية وكان هذا الواقع يتيح لها مجالا للخيار في تنميتها، لكنه ظل خيارا محدودا بسبب محدودية القدرة الاقتصادية السوفيتية من جهة وبسبب الارتباط العضوي لاقتصادات البلدان النامية باقتصاد المتروبول، فضلا عن العوامل الإيديولوجية. الآن بوجود ثلاث كتل إقليمية أمام البلدان النامية، هل هناك مجال واسع للمناورة أمام هذه البلدان؟ وكيف تنظر حاليا الى مقولات التحرر الاقتصادي، والاعتماد المتبادل والتبعية؟

– أرى تجزئة السؤال لنرى السلوك السياسي والاقتصادي لأي بلد تجاه الأقطاب الثلاثة. والتعميم صعب في هذه الحالة. الاعتماد المتبادل يفترض وجود طرفين متكافئين لكي تحصل المنفعة المتبادلة في

علاقتهما، كما هي الحالة بين بلدين متقدمين. أما العلاقة الاقتصادية بين بلد نامٍ وآخر متقدم فهي، موضوعيا، علاقة تبعية. وتبعية البلدان النامية واقع موضوعي، يؤدي الى تحول الموارد فيها الى البلدان المتقدمة، وهذه التبعية هي نتاج للنظام الاقتصادي الدولي في تطوره خلال القرنين الماضيين. والحد من تبعية البلد النامي رهن بسياسات حكومية، بمقدار نجاحها في إعادة توزيع المنفعة بين الطرفين المتعاملين تجاريا، وفي إنتاج إستراتيجية للتنمية تخلخل ارتباطه البنيوي بالمركز وتمكنه من الإفلات من قبضة المركز على مصير البلد النامي.

ث. ج: هناك آراء تقول أن مثل هذه الستراتيجية متعذرة التحقيق في عالم اليوم بالنسبة لبلد نامٍ واحد ، وحتى لمجموعة البلدان النامية ؟

– حقا إنها ستراتيجية صعبة التحقيق جدا، بالنسبة لبلد نامٍ ولكن الصعوبة تكون اقل لو تصرفت البلدان النامية على شكل كتلة أو كتل كبيرة. ولكن لابد من العمل بهذا الاتجاه الصحيح. فهل نحن، مثلا بحاجة، الى استيراد كل هذه السلع الاستهلاكية غير الضرورية.

ث. ج: معارضو مثل هذا التوجه يقولون انه يقود الى الديكتاتورية فما أن تبدأ الدولة بتحديد ما يستهلكه الناس حتى يستمر المسلسل الى إلغاء حرياتهم العامة. فهم يربطون الديمقراطية برفع يد الدولة عن الاقتصاد.

– تقييد الاستيراد للسلع غير الضرورية، مثلا، يمس خيارات جزء من السكان ويضيق خيارهم الاستهلاكي. ولكن إطلاق هذا الاستيراد هو جزء من السياسة التي تديم التخلف والتبعية. تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية يجب إخضاعه الى الممارسة الديمقراطية في السياسة. ولا ننسى أن تدخل الدولة في بلدان المركز كان له دور أساسي في تقدمها، خاصة في مراحله الأولى. المهم في هذا التدخل هو هدفه والوسائل المتبعة للاقتراب من الهدف. خذ العراق على سبيل المثال بين تموز1968 و 1990 (عند غزو الكويت) تدفق الى الحكومة مايقارب200 مليار دولار من إيرادات النفط. وهذا المبلغ يمثل حوالي98٪ من كل إيرادات النفط منذ بداية إنتاجه سنة 1931 حتى 1990 كانت هناك خيارات متعددة للتصرف بهذا المبلغ الهائل: مثلا استثماره في الداخل لتنويع وتطوير الاقتصاد، أو استثماره في الخارج كما فعلت الكويت أو إنفاقه على الشؤون العسكرية، أو تستورد به سلع الاستهلاك والبذخ. وتعرفون كيف تبددت هذه الثروة الهائلة، وفق ذلك بات العراق مدينا بحوالي100 مليار دولار. فيصبح مجموع ما أهدر300 مليار دولار. فلو كانت السلطة بيد أخرى تتصرف تصرفا عقلانيا بهذه الثروة لأختلف العراق اختلافا كليا.

ث. ج: هناك تنمية في كوريا الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ وسنغافورة، وهي (البلدان الصناعية الجديدة) كما تسمى. فهل بوسع البلدان النامية الأخرى أن تحقق النجاح وفق هذا النموذج في الوقت الحاضر؟

– لكل من هذه البلدان ظروفه التاريخية الخاصة. واستفادت كلها من ظروف الحرب الباردة، فتلقت أشكال الدعم والاستثمارات الأمريكية لمواجهة اتساع نفوذ الشيوعية. ولكن مجموع سكان هذه البلدان لا يزيد على حوالي 2٪ من مجموع سكان البلدان النامية، فأهميتها النسبية ضئيلة، وفي

تصوري لا يمكن تكرار تجربة أي بلد بحذافيرها، وذلك لاختلاف الظروف الداخلية وكذلك لأن الغرب لم يعد يخشى من انفلات البلدان النامية من نفوذه بل يهمه أساسا ما يعود على شركاته من إرباح في هذه البلدان.

ث.ج: ننتقل الآن الى شؤون النفط الذي نعول عليه لإعادة اعمار العراق بعد كل ما حل به من دمار كما نعرف، يحتل النفط موقعا حاسما في سياسة أميركا الخارجية، باعتبارها مستهلكا ومنتجا للنفط ولأن للشركات الأمريكية حصة كبيرة في الشركات المنتجة والمسوقة للنفط. فما هي العناصر الأساسية في سياستها النفطية؟

– موقف أمريكا في هذا الشأن واضح وتعكسه تصريحات مسؤوليها وتقاريرها، منذ1955 حتى الآن يبرز جانبان لهذا الموقف: أولا، تدفق النفط بأسعار معقولة. السؤال الذي يطرح نفسه ما هو السعر المعقول، لأي طرف؟ بالطبع يقصدون المعقول من وجهة نظرهم وليس من وجهة نظر البلد المنتج للنفط. وحين يتجاوز السعر هذا المستوى "المعقول" فلابد من التحرك في سبيل تخفيضه بمختلف الصيغ، بما فيها الحروب والانقلابات. أما الجانب الثاني للسياسة الأمريكية منذ الأربعينات، فهو ضرورة تغلغل الشركات النفطية الأمريكية في الشرق الأوسط. وهذا واضح في دراسات وتقارير الكونغرس ووزارات الخارجية والتجارة والعدل.. الخ.

وينبع من الهدفين الأول والثاني هدف آخر: أن تحكم البلدان المنتجة للنفط حكومات مذعنة لسياسة أمريكا النفطية، وتؤمن بالحرية الاقتصادية. حتى الآن كما يبدو، تحققت هذه الأهداف الثلاثة، رغم قيام ظروف شاذة بين فترة وأخرى مثل المقاطعة الوقتية بعد حرب تشرين 1963، والثورة الإيرانية، وحرب الخليج، وهذه "الأزمات" الثلاث لم تغير من الاتجاه العام الذي ساد خلال الخمسين سنة الماضية. فلابد من الاستنتاج بأن السياسة النفطية الأمريكية كانت ناجحة جدا.

أما تأثير الإنتاج النفطي داخل أمريكا على سياستها النفطية العالمية فيتجلى في حرصها على أن لا يهبط السعر العالمي "المعقول" الى مستوى يؤدي الى خسارة الشركات المنتجة للنفط داخل أمريكا، وبالتالي يؤدي الى توقفها عن النشاط في هذا القطاع الحيوي بالنسبة الى أمن أمريكا الاقتصادي. ولا ننسى أن لهذه الشركات نفوذها ووسائلها للتأثير على سياسة الإدارة الأمريكية والكونغرس .

ث. ج : في ضوء سياسة أمريكا النفطية، ماذا تستطيع منظمة(أوبيك) أن تفعل لحماية مصالح أعضائها (البلدان المنتجة للنفط) أي لفرض السعر المعقول بالنسبة لمصالح هذه البلدان؟

– لكي تستطيع (أوبيك) حماية مصالح أعضائها لابد من تنظيم إنتاج أعضائها لتفادي التخمة في سوق النفط العالمية وبالتالي هبوط سعره والعوائد التي تعتمد عليها البلدان المنتجة، لتمويل حاجاتها التنموية والاستهلاكية. ولم تنجح (أوبيك) في أداء مهمتها لأسباب منها أولا ضعف التزام الأعضاء بحصص الإنتاج المتفق عليها وتقليص حصة (أوبيك) من سوق النفط العالمية، بدخول منتجين جدد من خارج أوبيك، مثل النرويج وبريطانيا وغيرهما. فضلا عن ذلك عمدت البلدان المتقدمة، وهي المستهلك الأكبر للنفط، الى خزن احتياطي من النفط تفاديا لانقطاع الإمدادات أو لضغوط أوبيك.

حاليا أمست اوبيك منظمة ضعيفة

خاضعة للسيطرة السعودية، باعتبارها المنتج الأكبر ضمن أوبيك. كان للعراق وإيران ثقل هام يساعد على توازن القوى داخل أوبك أما الآن فلم تعد لهما مثل هذه القوة. والسياسة النفطية السعودية لا تهمل بل عموما تأخذ بالاعتبار مواقف أمريكا ومصالحها، فهناك تعاون وتنسيق بين الطرفين، ولا ينفي ذلك وجود اختلافات وتعارضات بينهما أحيانا.

ث.ج: كيف يؤثر التنسيق الأمريكي –السعودي على حظر تصدير النفط العراقي؟ وكيف تقّيم الآراء الشائعة في الصحافة حول احتمال انهيار أسعار النفط عند رفع الحظر وتدفق النفط العراقي من جديد الى الأسواق العالمية؟

– بالنسبة للسؤال الثاني، لا اعتقد أن سوق النفط العالمية ستتأثر كثيراً في الأمد القصير إذا رفع الحظر عن تصدير النفط العراقي. يوجد هناك فائض في عرض النفط حالياً حتى بدون صادرات النفط العراقي. فينبغي للبلدان الأخرى خفض إنتاجها بقدر ما يدخل السوق من إنتاج العراق. وليس مضموناً استعادة العراق لحصته لما قبل الحرب وهي حوالي 14٪ من إنتاج اوبيك. ما حصل بعد حرب الخليج الثانية هو استيلاء السعودية على حصة العراق بزيادة إنتاجها اليومي من 5 الى 8 مليون برميل. فالثلاثة ملايين التي كان العراق يصدرها تقوم السعودية الآن بتصديرها وتحصل على عوائدها، فالى أي حد ستبدي السعودية استعدادها للتخلي عن هذه الغنيمة لصالح العراق؟ يجب الانتظار لنرى كيف ستتصرف السعودية لو رفع الحظر عن تصدير النفط العراقي. أما في الوقت الحاضر فهي المستفيد الأكبر من استمرار الحظر، وهذا هو احد عوامل بقاء الحظر حتى الآن.

سيكون أمام العراق عند رفع الحظر خياران: فإما أن يغرق السوق النفطي بتصدير كل حصته اليومية، هذا إذا سمح له بحرية التصرف، وهذا سيؤدي الى هبوط الأسعار وإلحاق الضرر بجميع أعضاء اوبيك، وأما أن يضطر الى الانتظار ريثما تسمح اوبيك بعودة تدريجية للنفط العراقي الى الأسواق. على الأمد الطويل، تقول دراسات اوبيك أن العالم سيحتاج بحلول عام 2010 الى 8–9 ملايين برميل إضافية من نفط اوبيك يومياً. فلو صحت هذه التنبؤات (المستندة على احتمال نمو الاقتصاد الدولي بين 2–3 ٪ سنويا) فان حصة العراق يمكن أن ترتفع بنسبة 14٪ من هذه الزيادة. ولو نقبل بفرضية اوبيك هذه وزيادة الطلب خاصة من الصين والبلدان النامية فان الأسعار يجب أن ترتفع. ويمكن القول أن هذه التوقعات معقولة لكنها غير مضمونة لكثرة العوامل التي تؤثر على الاقتصاد العالمي، وبالتالي على الطلب على النفط.

ث.ج: كيف ترى فرصة العراق للتنمية بعد كل الإهدار والدمار الذي حصل؟ ما هي الوصفة المقترحة لإنهاض وتقدم العراق بعد زوال نظام صدام ؟

– يمكن القول أن العراق ضاعت عليه 30–40 سنة من التنمية، أي انه بحاجة بضعة عقود للعودة الى ما كان عليه اقتصاده عليه في الستينات. الدخل الإجمالي الحالي بمجموعه هو الآن بمستوى ما كان عليه في 1960. ولكن عامذاك كان عدد السكان حوالي سبعة ملايين أما الآن حوالي 21مليون نسمة. هذه الأرقام تجسد حجم الكارثة التي حلت بالعراق. حتى لو فرضنا إلغاء التعويضات والديون المترتبة على العراق، فانه بحاجة الى جهود وموارد

هائلة من أجل إعادة التعمير. بعض المنشآت المهدمة يمكن إهمالها مثل المنشآت العسكرية التي لا حاجة إليها في عراق مسالم. الوضع الصحي والمعاشي والتربوي ينبغي أن تكون له الأولوية بعد الحرمان الطويل. يجب استثمار عوائد النفط من أجل تنويع الاقتصاد لتقليص اعتماده الذي تفاقم على النفط. وهذا يتطلب بالدرجة الأولى الاهتمام بالقطاع الزراعي، لأغراض متعددة منها خلق فرص جديدة للعمالة والحد من هجرة الفلاحين، توفير منتجات زراعية تحد من استيرادها ذلك لأن العراق قبل غزو العراق كان يستورد حوالي ثلاثة أرباع حاجته من الأغذية، وتقليص الفجوة في الدخل الفردي بين الريف والمدينة، وأخيرا، وليس آخرا تجهيز الصناعة بالمواد الأولية المحلية. أما القطاع الصناعي فينبغي أولا أن يعتمد تطويره على توفير المواد الأولية محليا للصناعات الجديدة. والتصنيع يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار ضرورة امتصاص البطالة التي أصبحت مشكلة خطيرة.

أن نجاح مثل هذه الستراتيجية يتطلب توفير الاستقرار والحكم الرشيد ورقابة ديمقراطية على السلطة وأجهزتها.

ث . ج : أصبحت سياسة الخصخصة (مودة) عامة فكيف تتصور الدور الذي يلعبه كل من القطاعين الخاص والحكومي في ستراتيجية التنمية التي تقترحها بعد زوال نظام صدام؟

– استنادا الى دروس تجربة التنمية خلال الخمسين سنة الماضية، يمكن الاستنتاج أن العراق بحاجة الى تعيين النشاطات التي ينبغي أن تكون للقطاع الحكومي، وعليه فان بقية النشاطات تترك للقطاع الخاص. وينبغي احترام هذا التقسيم للعمل بين القطاعين خلال التطبيق. بشكل عام نرى أن تكون قطاعات النفط والصناعات الثقيلة بعهدة قطاع الدولة، وكذلك شبكة المواصلات والنقل العامة وخدمات الصحة والتعليم. أما الصناعات الخفيفة والخدمات الخاصة وتجارة المفرد.. الخ فهي المجال المناسب للقطاع الخاص. وإذا أصلحنا النظام الضريبي الذي لم يحض بالاهتمام اللازم لوفرة إيرادات الدولة من النفط في السابق، فان بوسع الدولة أن تلعب دورا عقلانيا في إعادة توزيع الدخل، وتوزيع الرعاية للفئات المحرومة. هناك أيضا ضرورة لتطوير الأشكال الوسيطة بين القطاعين كالتعاونيات والمشاريع المشتركة بين الدولة والقطاع الخاص.

ولابد من ترتيبات دستورية للحد من تصرف السلطة بالعوائد النفطية كأن يكون تخصيصها خاضعا الى قرار برلماني.

ومن جهة أخرى هناك ضرورة للتوزيع الجغرافي السليم للموارد ولمشاريع التنمية والخدمات العامة. ولابد من تجسيد النظام الفدرالي لكردستان في توجهات واستراتيجية التنمية، وفي السياسة الاقتصادية بصورة عامة.

هذه أمور ينبغي أن تكون موضع اهتمام المعارضة وعلى جدول الحوار بينها للتوصل إلى وفاق ما حول المستقبل الاقتصادي للبلد، يمكن أن يصاغ بشكل ميثاق.

وهناك في ديار الغربة عدد غير قليل من المختصين الذين بوسعهم القيام بالدراسات المطلوبة وتقديم المشورة حول الاستراتيجية الاقتصادية لعراق المستقبل.

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة للحوار حول الموازنة الاتحادية لعام 2011

في السابع من كانون الثاني 2011 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقية أقيمت طاولة مستديرة للحوار حول الموازنة الاتحادية لعام 2011 ضمت عددا من الاقتصاديين والأكاديميين والمهتمين بالشأن الاقتصادي العراقي، لغرض تطوير أبواب الموازنة ابتغاء تجاوز الثغرات والهنات التي برزت هنا وهناك من أبوابها بما يصب في خدمة مصالح المواطنين من الخدمات العامة وتخفيف نسب البطالة والفقر، لاسيما وان ربع سكان العراق يعيش تحت خط الفقر فضلا عن المبالغة في رواتب كبار قادة الدولة الرسميين مما ترك أثره الواضح على الموازنة الاستثمارية والمبالغ المخصصة للبطاقة التموينية التي تلعب دورا أساسيا في توفير قوت المواطنين.

وبعد الترحيب بالحضور من قبل الخبير الاقتصادي الأستاذ يحيى الدجيلي، وتسهيلا للمناقشة تلى الباحث الاقتصادي إبراهيم المشهداني ورقة العمل المعدة، ننشرها هنا إعماما للفائدة.

(تسبق مناقشة الموازنة الاتحادية كل عام آراء وتصورات يطرحها الاقتصاديون وأصحاب الشأن ممن يعنيهم الأمر سواء المخططون لها أو المعنيون بالتنفيذ. ويدور هذا الجدل حول محتوى وحجم الموازنة التشغيلية ونسبتها الى الموازنة الاستثمارية، ومن الطبيعي أن هذا الجدل له ما يبرره. وإذ نطرح ملاحظاتنا في هذه الورقة على حضراتكم فإننا نعتقد انه سيكون لآرائكم الأثر في تصحيح ما هو بعيد عن الواقع في هذه الموازنة حين تكون المؤسسات المعنية على استعداد للاستماع لما هو صحيح والأخذ به خدمة للوطن الذي ينتظر الكثير من الحكومة الجديدة لانجاز ما عجزت عنه الحكومة السابقة.

وفيما يلي ابرز ملاحظاتنا التي نطمح الى إغنائها من قبلكم:

أولا: ناقش مجلس الوزراء الموازنة المعدة من قبل وزارة المالية وأجرى بعض التعديلات عليها وأرسلها الى البرلمان لمناقشتها. ومن دراسة مسودة الموازنة

يلاحظ أن مجموع الإيرادات المقدرة بلغ (78705237500) دينار.

ثانيا: مجموع النفقات بلغ (929805802970) دينار.

ثالثا: بلغ العجز في الموازنة الاتحادية (14275345470) دينار.

رابعا: نفقات المشاريع الاستثمارية بلغت (28957957804)دينار.

خامسا: بلغت الموازنة التشغيلية (64122625166) دينار .

سادسا: بلغ مجموع الموازنة الاتحادية لعام 2011 (92980582970) دينار.

ومن هذه الأرقام ومجموع الجداول الواردة في الموازنة يتبين لنا ما يلي:

1- أن النفقات الاستثمارية تشكل 31.1٪ من مجموع الموازنة الاتحادية، أما الموازنة التشغيلية فتشكل 68.9٪. وهذا يعني أن الموازنة الاستثمارية تشكل اقل من ثلث الموازنة الاتحادية فيما تشكل الموازنة التشغيلية أكثر من الثلثين ويشكل هذا الفارق خللا في الموازنة لا يمكن والحالة هذه أن يسهم كما نطمح الى إحداث تغير بنيوي في الاقتصاد الوطني إنما تذهب معظم الموازنة بعد إقرارها الى الاستهلاك مما يتطلب إعادة النظر في هذا التناسب لوجهة زيادة نسبة الموازنة الاستثمارية وهذا يعالج من خلال إعادة النظر بحجم الموازنة التشغيلية عن طريق تخفيضها بما يؤدي الى أن تكون نسبة الموازنة الاستثمارية حسب تصورنا وحاجة الاقتصاد الى 40٪

2- أن تعطى الأولوية من الموازنةالاستثمارية لوجهة تطوير زيادة الطاقة المتمثلة بالنفط والكهرباء ومن ثم الخدمات وتوزيعها على ميزانيات المحافظات بعد استقطاع حصة إقليم كردستان من اجل تنفيذ مشاريع خدمية ترفع من مستوى رفاه المواطنين وتقلل من نسبة البطالة المتزايدة وخاصة في المحافظات الأكثر تأخرا.

3- الإبقاء على النفقات المخصصة للبطاقة التموينية وتحسين نوعية مفرداتها.

4- إعادة النظر بالموازنة التشغيلية وذلك بتخفيض رواتب الرئاسات الثلاث بحدود 40٪ بالنسبة للرواتب و50٪ بالنسبة للمنافع الاجتماعية وفي نفس الوقت تخفيض رواتب أعضاء البرلمان بنسبة 20٪ وتخفيض رواتب أصحاب الدرجات الخاصة بنسبة 10٪ في مختلف الوزارات وليس فقط في دوائر الرئاسات الثلاث. ويبدو أن البرلمان قد تسلم طلبا رسميا من الرئاسات المذكورة بعدم خفض المخصصات المالية الكبيرة لرؤساء السلطات ونوابهم (تصريح لنائبة بارزة في التحالف الكردستاني) في وقت نفى البرلمانيون علمهم حتى الآن بالمقدار النهائي لتلك المبالغ. وظلت المبالغ التي يتقاضاها رئيس الجمهورية ونوابه ورئيس الحكومة ورئيس البرلمان ونوابهما غير معلنة وسط اعتراض متصاعد على حجم المنافع الاجتماعية وهي مخصصات إضافية يتولى المسؤولون إنفاقها حسب تقديرهم على مواطنين محتاجين أو فعاليات اجتماعية، ولم يتضح كيف وكم تنفق هذه المبالغ. ولو أخذنا تصريح نائب رئيس الجمهورية د.عادل عبد المهدي كمصدر فان مقدار المنافع الاجتماعية التي يتقاضاها هو ونظراؤه نحو مليون دولار، بل أن خبراء ومطلعين يقولون أن المبلغ في موازنة 2011 يمكن أن يكون أكثر من ملياري دولار هذا العام والسؤال هنا ما هو دور الوزارات في

شكل الإنفاق ووجهته؟. وعلى النقيض من ذلك فقد تراجعت الأمانة العامة لمجلس الوزراء بإعمامها المرقم 40559 في11/25/ 2010 عن الفروقات التي تسلمهاالمفصولون السياسيون الممنوحة لهم بموجب إعمامها السابق المرقم 13411 في 2010/4/20 معللة هذا التراجع بأنها كانت تقصد بإعمامها الأخير هي فروقات الراتب الاسمي فقط دون المخصصات، كما أن صرف تلك المخصصات سوف يربك العملية المالية ويكبد الخزينة مبالغ طائلة !! ونترك لحضراتكم التعليق.

5- تخفيض حمايات المسؤولين، في مختلف المستويات، الى النصف حيث أن الوضع الأمني في البلاد رغم وجود بعض المخاطر إلا أنها لا تستدعي هذه الإعداد التي تستحوذ على مبالغ كبيرة من الميزانية التشغيلية بدون مبرر.

6- تشكل الصناعة والتعدين 2.226٪ من الموازنة الاستثمارية، أما الزراعة فتشكل 7.762٪من الموازنة المذكورة، ومجموعهما لا يزيد عن 10٪ من الموازنة الاستثمارية وهذه اقل نسبة من القطاعات الأخرى بالرغم من أنهما يشكلان قطاع الإنتاج الأساسي وهو العامل الرئيسي في تحقيق التنوع في الموارد بالإضافة الى قطاع النفط. ويبدو أن هذا الموقف الذي يتكرر سنويا إنما ينطلق من موقف إيديولوجي مسبق الهدف منه الاقتصار على القطاع التجاري والمضي في تطبيق نظرية التكيف الهيكلي باتجاه الخصخصة لتبقى الدولة في المطاف الأخير حارس للمستثمرين الأجانب وإبقاء الاقتصاد أحادي الجانب يعتمد على النفط.

7- المأخذ الآخر على آلية مناقشة الموازنة هو غياب الحسابات الختامية عند مناقشتها سواء في مجلس الوزراء أو في البرلمان الأمر الذي يؤدي الى أن تظل الصورة قاتمة على وجهة الصرف وكيفيته. وهذا يعد من أهم العوامل التي تخفي عمليات الفساد الإداري والمالي المنظم والتغطي على الفاسدين مما يسهل عمليات غسيل الأموال وظهور طبقة برجوازية طفيلية وطبقة بيروقراطية، والاهم من كل ذلك عمليات تمويل الإرهاب بكل ألوانه. وليس غريبا أن يكون موقع العراق في قائمة الشفافية الدولية في المرتبة 176من مجموع الدول المشمولة وعددها 180 دولة، ولم يأتِ بعد العراق من حيث الفساد غير الصومال وأفغانستان وميانمار وجيبوتي مما يضع على الحكومة الجديدة مهمة القضاء على هذه الظاهرة وتطبيق القوانين بصرامة والكف عن قرارات العفو المستمرة سواء على المرتشين أو المزورين أو القتلة وبدون ذلك سيظل العراق من الدول الأكثر فقرا في العالم.

8- في حقل الإيرادات الجدول، رقم (1)، كان من المفترض عزل (الإيرادات الأخرى) عن إيرادات النفط لان الأخيرة هي الرئيسية في مجمل الإيرادات ولا يمكن إحاطتها بظل الشك عبر التمويه عليها بدمجها مع الإيرادات الأخرى هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كان من المفترض توضيح الإيرادات الأخرى ومصادرها، وحيث يتبين أن موارد البترول تشكل 93٪ من مجموع الإيرادات لذلك فان السياسة المالية ينبغي أن تتجه لتوظيف هذه الإيرادات لإيجاد مصادر أخرى للتمويل وخاصة في قطاع الإنتاج لان الموارد الريعية غير مضمونة العواقب لا من حيث الكميات والإنتاج ولا

من حيث ثبات الأسعار).

وبعد انتهاء الأستاذ المشهداني من تلاوة ورقة العمل فتح باب النقاش الذي شارك فيه العديد من المشاركين. وأدناه خلاصات لهذه المداخلات حسب تسلسل تقديمها.

الخبيرة الاقتصادية
د. سلام سميسم

في مستهل حديثها أشارت د.سميسم الى أن الموازنة تبقى مجرد أرقام مقدرة وتبقى مجرد مطاردات نقاشية بيننا، وان ما يكشف حقا كفاءة الأداء وسلامته هو الحسابات الختامية والتي تعكس رشادة التخصيصات وشفافية الأداء الاقتصادي وكفاءته، وأضافت إن الموازنة الاتحادية لعام 2011 تقرر أن تكون بحدود (93) تريليون عراقي وإنها تعتمد بنسبة تتجاوز الـ 90٪ على الإيرادات المتحصلة من صادرات النفط العراقي الخام.

وأضافت: لقد بُنيت الموازنة على أساس احتساب الإيرادات الناجمة عن تصدير النفط الخام على أساس معدل سعر قدره (73) دولار للبرميل الواحد ومعدل تصدير قدره 2.250 مليون برميل يوميا منها 150 ألف برميل من النفط الخام من الإيرادات عن تصدير النفط الخام عن طريق إقليم كردستان وإلزام الإقليم بتحويل الإيرادات المتأتية عن ذلك الى صندوق اعمار العراق **DIF** بعد خصم نسبة 5٪ كتعويضات عن حرب الكويت أو أية نسبة أخرى يقررها مجلس الأمن الدولي وتسديدها إلى الأمم المتحدة. وأشارت الدكتورة سلام الى أن (29) تريليون دينار مخصصة لنفقات المشاريع الاستثمارية في حين تبلغ النفقات التشغيلية (64) تريليون دينار بواقع عجز مالي يبلغ 14 تريليون دينار يغطى من المبالغ النقدية المدورة من الميزانية العامة الاتحادية لعام 2010 ومن الاقتراض الداخلي والخارجي، ومن صندوق النقد الدولي بنحو4.5 مليار دولار و2 مليار دولار من البنك الدولي، وباستخدام حقوق السحب الخاص بنحو1.8 مليار دولار لتغطية العجز المتوقع إضافة الى الاقتراض الداخلي لتغطية العجز المتوقع في الموازنة إضافة إلى الاقتراض الداخلي بموجب حوالات الخزينة. وهذا الأمر الأخير من صلاحية وزير المالية استنادا الى نص قانون مشروع الموازنة. وتساءلت: لماذا الاقتراض الخارجي بهذا القدر؟ ولماذا يتوجب اللجوء إلى الاقتراض الداخلي وتحمل نتائجه وأهمها التضخم الذي سيمتص كل التحسن بقيمة الدينار العراقي؟ وهل تم إدراك أن الخضوع لهذا البرنامج الاقتراضي سيحيل العراق إلى متطوع لتطبيق برنامج التصحيح الهيكلي والتكيف الاقتصادي؟

ومن جهة أخرى أشارت د سلام سميسم بان الموازنة قد اتجهت الى الدفاع حيث تم رصد أكثر من 13 تريليون دينار لنفقات الدفاع والأمن وان البرنامج الحكومي الاقتصادي يتضح من خلال الأتي:

1- تحليل هيكلية برنامج الإنفاق العام – تحليل مكونات النفقات العامة واتجاهاتها (أولوية الإنفاق ولمن؟ التعليم؟ الدفاع؟ الخدمات؟) هذه الأولوية تعكس رؤية الدولة الاقتصادية المنبثقة من الأساس الإيديولوجي لعملية صنع القرار الاقتصادي تبعا للقرار السياسي وتجلياتهما في عدم وضوح

الرؤيا زائدا اقتصاديات الأزمة والفوضى زائدا غياب البرنامج الحكومي زائدا تشتت الرؤى بسبب تعدد مراكز صنع القرار، يضاف الى ذلك كله تعدد الآراء بسبب الاختلاف في آراء الكتل التي يفتقر اغلبها للبرنامج الاقتصادي.

2- تحليل هيكلية وأساليب التمويل

وبالتحديد أساليب وموارد الإيرادات العامة كالضرائب والرسوم وإيرادات النفط وإيرادات أخرى ومساهمات القطاعات الإنتاجية السلعية الزراعية والصناعية ومساهمات السياحة، وبالتالي تحليل العجز المتمثل بإيجاد نسبة العجز الى الناتج المحلي الإجمالي ونسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي.

3- تحليل الموازنة وأثرها على مؤشرات الاقتصاد الكلي من خلال تأثير العجز البالغ 14 تريليون على حجم التضخم ومخاطره وكيفية سداد هذا العجز، فالطريقة هي التي ستحدد حجم التضخم ومخاطره، التمويل بالعجز، أم الاقتراض من الخارج.

4- تحليل اثر السياسة المالية بشقيها الإنفاق العام والإيرادات العامة في توجيه السياسة الاقتصادية للبلد من خلال التأثير على سياسة التشغيل ونسب البطالة عبر التأثير على توجيه الطلب الفعال وتحريك عجلة الاقتصاد من خلال توليد الدخول في الأجل القصير والمتوسط، وأيضا من خلال التأثير على تنويع مكونات هيكل الإنتاج القومي والمساهمة بالتخفيف من حدة كونه اقتصادا ريعيا ومحاولة تأثير ذلك بجعله أكثر تنوعا ومحاولة إدخال منابع تمويلية أكفأ للاقتصاد العراقي.

واختتمت د سلام سميسم مداخلتها بالاستنتاج بان موازنة العراق لعام 2011 لا تشجع على نمو الجانب الإنتاجي ولم تهتم بمجالات الحماية الاجتماعية وان اعتمادها على ريع النفط الخام سيخضعها لمتطلبات السوق العالمية وتقلباته وتقلبات أسعار النفط العالمية وان الموازنة كلها معلقة بالنفط. والشيء الأخطر عدم ذكر الموازنة لقضية المنافع الاجتماعية والاتجاه بجعلها سرية بعيدة عن الشفافية. وفي هذه الحالة يمكن أن تكون خارج القانون وعدم خضوعها للمسائلة طالما بقيت سرية.

د. موفق الطائي/ مهندس معماري وخبير إسكان واعمار

أشار الدكتور الطائي في مداخلته الى أهمية القضاء على الفقر وضرورة التزام الحكومة بقرارات مؤتمر جوهانسبيرغ للأمم المتحدة وأهمية الترشيد بالموارد البشرية، وتطرق إلى المشاريع الخاصة بتصاميم الماء الشاملة مبينا اتخاذ تصاميم المدن بنظر الاعتبار وتحدث عن مخطط الإسكان العام، حيث تم شرعنة تخطيط الإسكان من قبل شركة أمريكية غير أن الإسكان كما عبر عنه باللغة الشعبية (انطاك عمره) وللفترة القادمة أيضا. كما أكد الدكتور موفق الطائي على أهمية إنعاش الإسكان الريفي في العراق، وعدم موائمة المواد المستخدمة في البناء.

النقابي عدنان الصفار

أشار الصفار الى أن أرقام الموازنة تفتقر الى البعد الاجتماعي والى الكثير من التفاصيل التي تعيد الحياة الى مؤسساتنا

الإنتاجية والصناعية ذلك أن الرقم المخصص لإعادة الاعمار هو رقم هزيل، مؤكدا أن الزراعة غير مؤهلة للتطور ضمن هذه الموازنة. ثم تطرق الى المادة 39 الخاصة بصلاحية الوزير بإحالة الفائضين الى التقاعد، مشيرا الى أن هذا يعني زيادة البطالة وانتشار الفقر. وأضاف أن الخطة الخمسية هي الأخرى لم تتطرق للجانب الاجتماعي، وان هناك مبالغ كبيرة مخصصة لميزانية الرئاسات الثلاث وتوقع زيادة البطالة والفقر في العراق مستقبلا.

د. احمد البريهي
نائب رئيس البنك المركزي

تحدث الدكتور البريهي عن أهمية تبني ذوي الدخل المحدود، وبيّن أن هناك مقترحات لإقامة صناديق لدعم الفقر لكنها لم تفعل، وعلق على تصاميم المدن والمناطق، حسب ما طرحه د.موفق الطائي، مؤيدا الطرح مشيرا الى أن هناك إهمالا كبيرا ومخجلا لهذا الجانب الذي يضر بالمصلحة العامة. كما بيّن د.احمد البريهي أن هناك إهمالا للقدرة الوطنية للاعمار وقد قدمت اقتراحات عديدة لتطوير هذه القدرة ولكنها لم تفعل وبقيت متخلفة.

وفي معرض تعليقه على ما طرحته د. سلام سميسم حول الاقتراض من الخارج أشار الدكتور البريهي الى أن السبب في ذلك يعود الى الاقتصاديين، مشيرا الى إيرادات النفط الكبيرة ولدى العراق فائض من العملة الأجنبية ولكن كيف نفسر اللجوء الى الاقتراض من الخارج وبوجود هذه المبالغ الكبيرة لدى البنك المركزي العراقي؟ إذن هناك تسارع كبير في تسليم المهمات الوطنية للأجنبي واختتم مداخلته بمطالبة الاقتصاديين بدراسة الوضع الاقتصادي في البلاد.

الأستاذ رائد فهمي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

استهل مداخلته بالقول أن الموازنة تعكس الواقع مشخصا يتمثل بضعف الموازنة الاستثمارية وترهل جهاز الدولة وكيف يفرض ذلك نفسه على الموازنة التشغيلية والتي هي الأخرى تعكس الواقع الحالي للعراق؟ وتساءل: لكن ما هي رؤيتنا لإصلاح هذا الوضع بالنسبة لصالح العراق؟ مبينا أن الأولويات قد تكون متقاطعة، فالموازنة لا تحمل رؤيا موحدة واضحة بشأن أولوياتها الاقتصادية وبناء قدراتنا الذاتية ولأي من القطاعات تنحاز؟ وأضاف: أن هذه العملية غائبة، واهم ما تجب الإشارة إليه هنا هي موضوعة الشفافية حيث أن كثيرا من المعطيات غير متاحة وخاصة فيما يتعلق بالمبالغ الكبيرة المصروفة على المشاريع. كما أن كثيرا من الأرقام غير واضحة فيما تطرحه وزارة المالية أو البنك المركزي العراقي، وهذا يعكس ضعف هذه الأجهزة، وقد نلاحظ عدم التنسيق بين البنك المركزي ووزارة المالية. وأشار الى ما أعلنته وزارة التخطيط عن الخطة الخمسية والتي لم يقرها البرلمان، وهذا يعني أنها غير ملزمة، وينبغي أن تمرر الخطة في البرلمان وتلزم الحكومة بتنفيذها. وأضاف أن هناك اضطراباً في الفهم ونرجع الى الخيارات وكيف يتم تطوير القاعدة الاقتصادية في البلد؟ مشيرا إلى اعتماد الكثير من

الوزارات على الخارج في مسألة التطوير. وتحدث الأستاذ فهمي عن قرار المفصولين السياسيين وكيف تم تحميل الشركات النفقات المتعلقة بهم وليس الدولة التي يجب عليها إنشاء صندوق لهذا الغرض وليس إلقاء العبء على الشركات، مؤكدا على أهمية إصلاح القطاع العام ومكافحة الفساد الإداري. وبين أن الكثير من العوامل تؤثر على الموازنة، متطرقا الى العجز فيها حيث كان العجز 20 مليار دولار وهو عجز حقيقي وتم التحدث عن تخفيض الموازنة الأخيرة المعلنة حيث تم تقليص كثيراً من المصاريف لتصل الى 14 مليار دولار وهو العجز المعلن. وتحدث عن كيفية تمويل هذا العجز حيث طرحت مسالة مساعدة البنك المركزي العراقي لتقليص العجز، خاصة وان د. احمد البريهي أشار الى وجود فائض بالعملة الأجنبية ونقص بالدينار العراقي، وان الاقتصاديين لم يتمكنوا من معالجة ذلك مؤكدا أن سعر الصرف يحدد بضبط إيرادات الحكومة العراقية. وواصل الأستاذ رائد فهمي مبينا بان البنك المركزي أكد على المحافظة على سعر الصرف وتطرق الى اعتراضه السابق على مجلس الوزراء الذي أراد الاقتراض من صندوق النقد الدولي بحدود ٤ مليار مبينا أهمية عدم وجود التزامات على العراق لمسألة الاقتراض. في هذه اللحظة تداخل د ماجد الصوري حول تخفيض قيمة الدولار وزيادة قيمة الدينار مشيرا إلى إن عدم وجود سياسة مالية هي التي أدت الى التذبذب في هذه العلاقات مشيرا الى أن زيادات الرواتب أدت الى التضخم. وعاد الأستاذ رائد فهمي متحدثا عن وجود مطالبات اجتماعية، وان معالجتها يتطلب وجود تنسيق بين السياسة المالية والنقدية ولكن هذا غائب، موضحا تأثير الموازنة على الأوضاع وغياب الإنتاج حيث لا يوجد لدينا غير الريع وان البعد الاجتماعي فيه تكلفة.

الخبير الاقتصادي
د. ماجد الصوري

تطرق الدكتور الصوري الى الارتفاع في الموازنة من (20) تريليون عام 2004 الى (93) تريليون عام 2011 وان الأرقام تشير الى وجود فائض في الميزانية الفعلية من عام 2004 الى عام 2008 بسبب عدم صرف المبالغ المخصصة. فالأموال متوفرة في العراق ولكن المشكلة الأساسية أن هناك تعمداً كبيراً في عدم تجديد النشاطات الاقتصادية الصناعية والزراعية، وهناك تدخلات داخلية وتوجهات تفرض هذا الاتجاه للسيطرة على المرافق الاقتصادية كذلك. وأشار الدكتور ماجد الصوري الى تجربة الاتحاد السوفيتي السابق وقال أن نفس الجماعة المسيطرة على السياسة قد سيطرت على الاقتصاد. أما بالنسبة الى تحليل الموازنة فأشار د. الصوري الى أن كل التحليلات التي طرحت كانت صحيحة، وتساءل هل التخصيصات الموجودة هي استثمارية؟ وما هو مفهوم الاستثمار؟ هل يتم في العملية الاقتصادية؟ وهل توجد برامج أساسية لتنمية المشاريع النفطية ؟ وهل نحتاج الى تراخيص أكثر للتراخيص النفطية ؟ وفي معرض إجابته على الأسئلة السابقة أشار د. ماجد الى أن المشكلة الأساسية تكمن في النفقات

الاستثمارية فاغلبها صيانات وترميم وتبليط شوارع ومجارٍ ولكنها لا تنفذ بشكل عام. ومن الناحية العملية إية موازنة من الموازنات السابقة لم تنفذ بشكل صحيح ولم يراقب تنفيذها، إذن المشكلة تكمن في كيفية إدارة الموازنة حيث لا توجد فلسفة إستراتيجية في إدارة الاقتصاد وإدارة أمواله.

د.عبد الجبار العبيدي/ أكاديمي وأستاذ الاقتصاد في كلية الإدارة والاقتصاد بجامعة بغداد

تحد ث الدكتور العبيدي قائلا: لقد أكد الأساتذة في مداخلاتهم على مسألة حقوق الفقراء ومسألة الصناعة وأشياء أخرى واستغرب من النخب المثقفة التي هي جزء من المشكلة وينبغي على رجالات الفكر والسياسة والثقافة إدراك الحركة الموضوعية حيث تزداد شرعية الوعي كلما ازدادت موضوعية، فمن سخريات الأقدار ومن مفارقات الوجود أن يصبح الانغماس بالرأسمالية. علينا وعي الحركة الموضوعية فالعالم خاضع لبيئة تقنية منفلتة. وأضاف متحدثا عن الأدوات والعقل الذي احد مظلاته الحزب الشيوعي العراقي والذي عليه أن يعرف حركة الواقع والإسراع في العملية والتأثير على الحركة. هناك سلة من السياسات وعلينا أن نعي ما ذا نريد وهناك انفصال تام بين الموازنة والمنظومة الفكرية والإستراتيجية لدفع الحركة، وهناك عدم تحديد للمصطلحات ونحن بحاجة الى تأصيل المفاهيم لمعرفة محمولاتها عن ماهية الاستثمار وهل هو كلمة مجردة أم خلق قيم مادية، فالمفاهيم بحاجة الى تبديل. نحن لسنا معنيين بتجميل قبح الرأسمالية فهي تسعى الى إلغاء الطبقة العاملة وتصفيتها، وفي العراق تم تحويل العمال الى موظفين في زمن النظام السابق. هناك صراع طبقي ونحن يجب أن نتضامن مع الحركة والذي يخلق العقل هو البنية الصناعية، والذي يخلق الديمقراطية هو الصناعة، وعلينا أن نكرس الجزء الأكبر من الفائض الاقتصادي لإعادته الى الأرض وبناء قاعدة إنتاجية.

الصناعي والخبير الاقتصادي باسم جميل أنطوان

عبر الأستاذ باسم جميل عن أهمية عقد ندوة خاصة لما طرحه د عبد الجبار العبيدي مشيرا الى أن البرجوازية العراقية كان لها دور مهم في تاريخ العراق، وبيّن أن في هذه الموازنة اختلاف عن السنة الماضية في مجال الاستثمار وهل تم وضع الموازنة عن جهل أو معبرة عن فكرهم الحقيقي؟ نحن في هذه الموازنة سنخوض صراعا فكريا وقد ظهرت بوادر الصراع في الهجمة على اتحاد الأدباء وغيره. أما بالنسبة الى الخطة الخمسية للأعوام 2010– 2014 فالمفروض أن تخدم الموازنة هذه الخطة، وأضاف بان هناك تعطل في الصناعة والزراعة وقد حملوا القطاع الخاص 46٪ من الخطة هذا القطاع الذي لا يستطيع الوقوف على أقدامه فكيف سينهض بتنفيذ هذه الخطة؟ واستطرد قائلا: أن أوضاع الصناعة والزراعة متدهورة وعدم وجود مستثمرين في هذا المجال، وأضاف: الموازنة حبيسة للريع النفطي الذي تعيشه ولم نتمكن من خلق

مورد آخر للموازنة حيث لم يتم الاهتمام بجانب الرسوم الكمركية والضرائب لتعزيز موارد الدولة.

د. خلدون البصام/ مدير عام المسح الجيولوجي والتحري المعدني في وزارة الصناعة

تطرق الدكتور البصام الى كيفية إعداد الموازنة وقيامها بالنهوض الاقتصادي، وأشار الى أن هناك توجهاً للاعتماد على الخارج بادعاء إن المجتمع طفيلي وكسول وغير منتج، وقد خطط لنا كبلد يكون مصدرا للنفط الخام. في عام 2008 بدأت الدولة تضخ المال في الصناعة مشيرا إلى إن هناك عمالة كبيرة تم رفد وزارة الصناعة بها بسبب إضافة موظفي التصنيع العسكري والطاقة. وتساءل: أين هو الاستثمار في مجال الصناعة منذ عام 2008؟

خالد شلتاغ/ مدير عام الإحصاء والأبحاث في البنك المركزي ومستشار فيه تطرق د.شلتاغ إلى موضوع التركة الثقيلة من المرحلة السابقة مشيرا إلى المرحلة الانتقالية والتوجه نحو اللامركزية، وداعيا إلى التنسيق في إعداد الموازنة حيث هناك ضعف فيها. كما تطرق إلى الخطة الخمسية التي اقرها مجلس الوزراء ولم تناقش في مجلس النواب وبالتالي لم يتم إقرارها في المجلس لذا تصبح غير ملزمة. وقلل من دور القطاع المصرفي في استخدام الودائع في عملية التنمية الاقتصادية، واختتم حديثه بأهمية دخول الاستثمار الأجنبي بعد رفع العقوبات عن العراق.

الأستاذ فائق الدباس/ مدير أبحاث أقدم في وزارة النفط

أشار الأستاذ الدباس الى تراكم المشكلات الاقتصادية، وقلل من إمكانية حلها في الأمد القصير معللا ذلك بان تصدير النفط، كما ورد في الموازنة، هو 2.5 مليون برميل من النفط الخام يوميا وهذا رقم مبالغ فيه كثيرا حيث لم يصل معدل التصدير إلى 1.8مليون برميل من النفط الخام يوميا، وتوقع وجود عجز اكثرمن 14 مليار دولار وقد يصل إلى 20 مليار دولار، وتساءل: كيف ستعالج هذه المسألة وهناك خطر البطالة وتزايد إعداد العاطلين من الخريجين، ولكن ما العمل وكيف الخروج من هذا المأزق ؟

الأستاذ خوشابا سولاقا/ رئيس مهندسين أقدم في وزارة الكهرباء وكاتب

أشار الأستاذ سولاقا إلى غياب واضح للخدمات والتخصيصات اللازمة لتطوير الصناعة والزراعة والصناعات الحرفية، وبيّن أن هناك إصرارا لتوجيه الموازنة نحو الاستيراد فقط، وهذا ما يتفق مع تقسيمات نظام العولمة وتصدير العراق للمواد الخام للدول الأخرى. وتساءل: هل يمكن إيصال ملاحظاتنا ليأخذ بها في البرلمان حيث لا وجود بين الحضور لمن هو عضو في البرلمان؟

د. علي الزبيدي/ اقتصادي

أشار الدكتور الزبيدي الى أن الموازنة هي أداة وان هناك تكراراً دائماً بان الموازنة الاستثمارية قليلة موضحا بان الاقتصاد

العـراقي لم تحـدد هـويته بعـد وسـتنعكس بـالتـالي علـى الآليـة، والاهم هـو كيفيـة التصـرف بـالمـوازنـة ومـا هي كفـاءة الأداء التـي تحكم حسـن التـصـرف في المـوازنـة. وتطرق إلى مسـألة صنع القرار الاقتصادي وما هي مـدخلاته ؟ بين د. علي أن الضغط السـياسـي عـامل مهـم حيث يـعتمـد صنع القـرار الاقتصـادي على العـامل السـياسي فماذا يـريد الاقـتصـاد الـعراقي ؟ هل يـريد عـدالـة في التـوزيع؟ المـشكلـة تكمن في تـوجهـات الاقتصـاد العـراقي الـذي هـو اقتـصاد ذو طـابع ريـعي ولا يمكن تحـريكه إلا إذا كانت مدخلاته اقتصادية.

الخـبيـر الـنفطي الأسـتـاذ كـريم الشماع

لاحظ الأستـاذ الشمـاع أهميـة تقـريب الأرقـام الواردة في المـوازنة حيث إن النفط يتم احـتسـابه بـالدولار، وأعـرب عن تفـاؤله بزيادة الإنتاج الـنفطي، مشيرا الى أن البلد يحتـاج إلـى مـوارد جـديدة بسبب خـراب البلد، إن المحنة هي محنة العـراقيين وليس الـشيوعيين فقط معقبـا على بعض المتحدثين الذين يريدون تحميل الحزب وحده مسؤولية معالجة الاختلالات الاقتصادية والاجتماعية، وتحدث عـن كيفيـة بنـاء الطبقـة المـتوسـطة وإعادة بناء القطاع الخاص .

الأستاذ احمد كاظم/ رئيس مهندسين أقدم في وزارة النفط

بيّن الأستاذ احمـد كاظم إن المـوازنة قد خطت بأقلام السياسيين وليس الاقتصاديين وقـد تـوقف كثيـر مـن المشـاريع في الـوقت الحـاضر كمـيناء الفـاو الكبيـر، مشيـرا إلى وجـود ٤٨٠ قانـون خاص بـالقـطاع الـعام، ونحـن نريد العمل بـاقتصـاد الـسوق وتطرق إلى إن العديـد من الدول ستطالبـنا بالديون المستحقـة على العـراق بعد أيـام، ولابد من تحـصين الأمـوال العـراقيـة المـوجـودة في صندوق تنمية العراق .

الأستاذ نجيب محي الدين/ أول نقيب للمعلمين في الجمهورية العراقية ومن قياديي الحزب الوطني الديمقراطي

في بداية حديثة أشار الأستاذ نجيب محيي الـدين الـى انه ليس خبيـرا اقـتصـاديـا أو مـاليـا وإنمـا معلـما، وأضـاف: ولكنـي كنت اليـوم تلميذا محـببا لان أتعلم، وتسـاءل عن مسألة تخفيف رواتب الرئاسات الثلاث وهل إن هــذا الاقتــراح يكفي لســد العجـز؟ والسـؤال الثـاني عن لجـوء الحكومـة إلـى الاقتـراض من البنك الـدولـي لسـد العجـز رغم إن هـناك فائضـاً من الأموال في البنك المركزي العـراقي؟ فلماذا لا نسد العجز من الداخل؟ ولمـاذا تلجأ الحكومة إلـى الخـارج للاقتـراض بشروط قاسية؟ الملاحظة الأخيرة بان ما يتوفـر من موارد مالية وما يمكن إن تـزداد لابـد أن يخصـص قسـم من المبـالغ لإيجاد موارد أخرى في البلاد مثل الكبريت والفـوسفـات والفسـفور نـأمل الفـات النـظر إلى مسـألة الاستكشافـات الجديـدة لمناطق العراق.

السيدة سمية غاوي/مصرفية

أشارت السيـدة غاوي إلى وجود مخالفة في إعداد الموازنـة مبينة انه إذا تم تخفيض الموازنة التشغيلية فهذا سيحرم الموظفين من الزيـادات، واقتـرحت إن تكون هنـاك حلولا عقلانيـة لتخفيف الموازنة التشغيلية بحيث لا

تؤثر على الموظفين والعمال، متسائلة: لماذا لا تقترض الحكومة من البنك المركزي الذي باستطاعته توفير المبالغ المطلوبة؟ ولماذا تتجه إلى الخارج للاقتراض؟.

الأستاذ حسن ألشمري/ صناعي

أشار إلى إن المهمة الرئيسية التي تواجهنا هو الإرهاب والمهمة الثانية هي عدم تنفيذ الموازنة وإرجاع مبالغها إلى خزينة الدولة، كما حصل في محافظة البصرة عندما طالبت وزارة التربية بمبالغ إضافية هل تمكنت من بناء مدارس جديدة؟ كذلك وزارة الصناعة نموذج آخر أيضا. كما أكد على تبني الحزب الشيوعي العراقي لدور الشباب وبرؤية اقتصادية مؤكدا على أهمية التصنيع الخاص في توفير العملة الصعبة.

وقبل انتهاء أعمال الفعالية عاد الأستاذ رائد فهمي معقبا على مسالة اشتداد الصراع ومصلحة من تخدم الدولة، مشددا على أن الصراع قد بدا ويفترض من كل القوى إن تعي الرهانات القائمة، مشيرا الى أن مناقشة الموازنة والصراع حولها قد بدأ يتسع مؤكدا على أهمية وجود برنامج اقتصادي واضح.

وفي ختام الندوة تم توجيه الشكر للحاضرين على مشاركتهم الفعالة والمفيدة في مناقشة محاور الورقة ومعقبا على موضوع الصناعة وعدم الاعتماد الكلي على النفط مبينا إن البرنامج الأمريكي قد نفذ بحذافيره منذ احتلالهم للعراق.

ترجمة نصوص

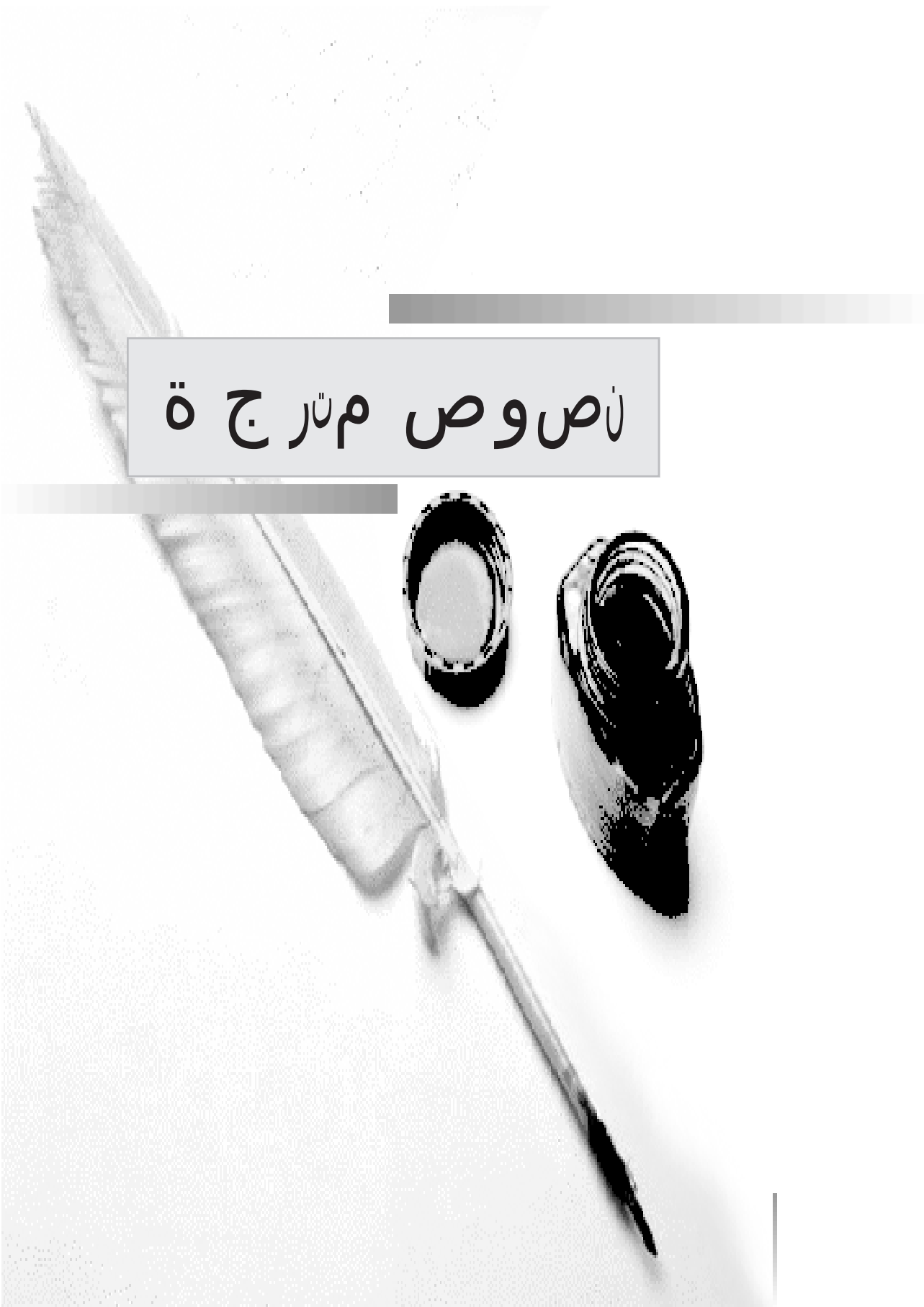

أمولة التراكم❖

المـــؤلف: د. جـــون فـــوستـــر
المتـــرجم: د.ثـــامـــر الـصفـــار

د.ثامر الصفار، باحث ايكولوجي حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة البيئية. نشر العديد من الدراسات والابحاث في عدد من المجلات والصحف العراقية والعربية والانجليزية. ساهم في الكتابة في مجلة الثقافة الجديدة وعمل مصمما لها خلال السنوات 1986-1990. صدر له عدد من الكتب كان آخرها "الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن الطبيعة" عام 2009 عن دار الفارابي. والمقالة التالية هي احد فصول الجزء الثاني الذي سيصدر قريبا تحت عنوان "الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن التاريخ".

" بالاسلوب الذي يمكن فيه ان يبدو حتى تراكم الديون على انه تراكم لراس المال، يمكن ان نرى الدمار الذي ينطوي عليه نظام الائتمان وهو يصل الى ذروته".

كارل ماركس

في عام 1977 نشر (بول سويزي) آخر مقالة له اشار فيها الى "أمولة عملية التراكم الراسمالي" باعتبارها واحدة من ثلاثة اتجاهات اقتصادية رئيسية ميزت اواخر القرن العشرين (اضافة الى نمو سلطة الاحتكار والركود). ولا ريب ان المطلع على النظرية الاقتصادية سيدرك ان هذه الجملة تنطوي على مفارقة. فقد سعت كل تقاليد الاقتصاد، وبدرجات متباينة، الى الفصل ، تحليليا، بين دور التمويل وبين " الاقتصاد الحقيقي". اذ يفهم التراكم على انه تشكل حقيقي لرأس المال، يزيد من

اجمالي الناتج الاقتصادي، في حين ان ارتفاع قيمة الموجودات المالية تزيد الثروات فقط وليس الناتج الاقتصادي. ولهذا فقد كان (سويزي)، عندما القى الضوء على أمولة التراكم، يشير في الواقع الى ما يمكن اعتباره " لغز رأس المال" في زمننا الحاضر.

مما لا شك فيه ان التمويل قد لعب دوما دورا مركزيا، دورا لا يمكن الاستغناء عنه، في تراكم رأس المال. ولقد اشار جوزيف شومبيتر الى ان نشوء ظاهرة الاقتراض هي واحدة من السمات المميزة للراسمالية. واضاف " ان سوق النقد كان دائما..... المقر الرئيس للنظام الرأسمالي". ومع ذلك فان ثمة تغير اساسي قد حدث في طبيعة الراسمالية خلال العقود الاخيرة من القرن الماضي. فقد غدا التراكم –تكون الراسمال الحقيقي في عالم السلع والخدمات –خاضعا اكثر فاكثر للتمويل، بحيث اصبح تخوف كينيز المشهور من هيمنة المضاربة على الانتاج واقعا متجسدا.

في حينها لم تحظ ملاحظة سويزي حول أمولة التراكم الراسمالي بالاهتمام المطلوب. لكنها اليوم، وفي اعقاب اكبر ازمة مالية واقتصادية منذ الكساد العظيم، جلية تماماالى الحد الذي لم يعد بالامكان التغاضي عن المسألة التي تثيرها. فاليوم، اكثر من اي يوم آخر، كما قال ماركس " فان تراكما للديون" يبدو وكأنه " تراكما لراس المال" مع تأثير متزايد للسابق على اللاحق.

وفعلا، فنحن نشهد ، منذ السبعينات، ما اسماه (كاري بولاني ليفيت) " الامولة العظيمة". يمكن تعريف الامولة على انها تحول طويل الامد في مركز ثقل الاقتصاد الراسمالي من الانتاج الى التمويل. وقد انعكس هذا التغيير في كل منحى من مناحي الاقتصاد، وبضمنها: (1) زيادة حصة ارباح التمويل من كامل الارباح؛ (2) ارتفاع الديون نسبة الى اجمالي الناتج المحلي؛ (3) نمو حصص التمويل، التأمين، والعقارات في الدخل الوطني؛ (4) اتساع دور الفقاعات المالية.

ففي عام 1957 كانت حصة التصنيع تبلغ 27٪ من اجمالي الناتج المحلي في الولايات المتحدة الاميركية، وحصة التمويل، التأمين، والعقارات لا تتجاوز13٪. اما في عام 2008 فقد انقلبت الصورة لتصبح حصة التصنيع 12٪ وحصة التمويل، التأمين، والعقارات 20٪. وبرغم توقف الازمة المالية العظيمة الا ان هناك العديد من الشواهد الى ان هذا النزوع العام لامولة الاقتصاد لا زال مستمرا خصوصا مع الدعم والتحريض الذي يتلقاه هذا الميل من قبل السياسة الاقتصادية النيوليبرالية في كل منعطف. ولهذا فان السؤال يكون: كيف يمكن ان نشرح انقلاب الادوار هذا بين الانتاج والتمويل؟

كينز وماركس

اول ما يثب الى العين، عند اية محاولة لمعالجة دور التمويل في الاقتصاد الحديث، هي اعمال (جون مينارد كينيز)، خصوصا اعماله في اواخر الثلاثينات (من القرن العشرين –المحرر) عندما كان يعمل على تأليف كتابه المعنون النظرية العامة عن العمل، الفائدة والنقد (1936). فهنا تبرز

شخصية ماركس كلاعب اساسي في تحليل كينز.

في عام 1933 نشر (كينز) دراسة قصيرة تحت عنوان " نظرية النقد في الانتاج"، الذي اصبح لاحقا عنوانا لمحاضراته عهدذاك. وقد شدد (كينز) فيها على ان النظرية الاقتصادية التقليدية حول التبادل قد صيغت على اساس اقتصاد المقايضة. وقد كان مفهوما ايضا انه بالرغم من توظيف النقد في جميع تعاملات السوق في ظل الرأسمالية، فان النظرية التقليدية او التقليدية الجديدة ظلت " تعامل النقد باعتباره محايدا بصيغة ما". اذ ليس من المفترض ان يؤثر النقد على " الطبيعة الجوهرية للتعامل" باعتباره يقوم" بين اشياء حقيقية". واقترح (كينز)، بالضد من ذلك، نظرية النقد في الانتاج يكون فيها النقد واحدا من الجوانب الفاعلة في الاقتصاد.

وتمثلت الفائدة الرئيسية لمثل هذه المعالجة في توضيحها لكيفية حدوث الازمات الاقتصادية. وبهذا يكون كينز قد شن هجوما على التصور الاقتصادي التقليدي الذي انطوى عليه قانون ساي والقائل بان العرض يخلق الطلب الخاص به - وبالتالي على التصور القائل بان الازمة الاقتصادية كانت، في الاساس، مستحيلة. فكتب متحديا ذلك :" الازدهار والكساد هما ظاهرتان خاصتان باقتصاد يكون فيه.... النقد غير حيادي".

ومن اجل تطوير هذه النقطة الهامة ميّز كينز بين ما اسماه " اقتصادا تعاونيا" (جوهريا يعني نظام المقايضة) وبين " اقتصاد صاحب العمل" entrepreneur economy حيث تتدخل التعاملات النقدية في تحديد علاقات "التبادل الحقيقي". ويمضي كينز، في محاضراته، شارحا بأن " لهذا التمييز علاقة بما طرحه ماركس سابقا....حيث اشار الى ان طبيعة الانتاج في العالم الفعلي هي ليست، مثلما يفترض الاقتصاديون عادة، علاقة سلعة – نقد - سلعة، اي حالة مبادلة سلعة ما (او جهد) بنقد من اجل شراء سلعة اخرى (او جهد آخر). فربما يكون هذا موقف المستهلك، لكنه ليس موقف صاحب العمل – البرنزمان – ، حيث العلاقة بالنسبة له هي نقد – سلعة – نقد، اي يفترق عن النقد لشراء سلعة (أو جهد) من اجل الحصول على المزيد من النقد".

واكد (كينز)، متفقا مع (ماركس)، من ان " صاحب العمل لا يهتم بكمية المنتوج، بل بكمية النقد الذي سيسقط في حضنه. وسيزيد من انتاجه فقط في حالة توقعه الحصول على المزيد من الارباح النقدية". وبعكسه، فان صاحب العمل، (او الرأسمالي) سيقلل من مستوى الانتاج اذا ما توقع عدم زيادة الارباح. ولهذا فان الجانب النقدي لعملية التبادل، مثلما تصفه معادلة ماركس نقد- سلعة – نقد، لا تطرح فقط ان الكسب النقدي كان الهدف الوحيد للانتاج الراسمالي، بل ان الازمات الاقتصادية يمكن ان تنشأ ايضا بفعل الاعاقات التي تحصل خلال العملية. وبعد مناقشته لمعادلة ماركس نقد – سلعة – نقد، مضى كينز ليعلن بلغة قريبة من لغة ماركس: "ان الشركة تتعامل على الدوام بصيغة اجمالي النقد. وليس لديها هدف في العالم سوى الحصول على نقد اكبر مما بدأت به. هذه هي الصفة الجوهرية

لاقتصاد صاحب العمل".

من المعروف ان كينز لم يكن باحثا ماركسيا. لهذا فقد اعتمد عند اشارته الى ماركس في محاضراته على عمل الاقتصادي الاميركي (هارلان ماكراكن)، الذي كان قد ارسل الى الاول نسخة من كتابه نظرية القيمة ودورات البزنس، بعد نشره عام 1933. وقد ركز تحليل ماكراكن، المالثوسي المنهج، على قضية الطلب المؤثر ودور النقد، بيد انه توسع في دراسة تاريخ الفكر الاقتصادي. وفي الفصل الذي خصصه لماركس كتب ماكراكن:

عند معالجته لعملية التبادل او استحالة السلع، بدأ [ماركس] اولا بمعالجة سلعة – نقد – سلعة (سلعة من اجل نقد من اجل سلعة). واعتبر ان مثل هذا التبادل لا يختلف من حيث المبدأ عن المقايضة طالما ان هدف التبادل كان تحويل سلعة ذات منفعة قليلة او عديمة المنفعة بالنسبة لمالكها الى سلعة اخرى ذات منفعة عالية، ويدخل النقد كوسيط ملائم للتأثير على عملية التعامل. وعمليتا التعامل لا تنطويان على استغلال، لان الفرضية كانت انه في كل تعامل كان التبادل يجري بين قيمتين متكافئتين، او بين كميات متكافئة من العمل المبذول فيهما، وبالتالي فان السلعة النهائية ليس لها قيمة اكبر او اصغر من السلعة الاصلية، لكنها ذات منفعة اعلى بالنسبة للمشتري. ولهذا فان استحالة سلعة– نقد – سلعة مثلت تبادلا لقيمتين متساويتين وليس هناك استغلال.....

لكن استحالة نقد – سلعة – نقد كانت تختلف تماما. وعند شرحه لهذه المعادلة فقد عالج ماركس، بتمكن عال، طبيعة ومصدر القيمة الفائضة. في هذه الحالة، يبدأ الفرد بالنقد وينتهي بالنقد. واذن، فان الحافز الوحيد للقيام بفعلي التبادل هو الانتهاء بالحصول على نقد اكبر من نقد البداية. وبالتالي فان قياس القيمة الفائضة يكون بحساب الى اي مدى يتفوق النقد الثاني على النقد الاول. ولكن، القيمة الفائضة لم تنشأ او تكتسب في تداول السلع بل في الانتاج.

في 31 آب 1933 وجه (كينز) رسالة شكر الى (ماكراكن) مؤكدا بانه قد وجد الكتاب "ذا فائدة كبيرة جدا، خصوصا تلك الفقرات التي تتعلق بماركس الذي لم اكن اعرفه كما كان ينبغي لي ان اعرفه".

وعلى اساس ما وفره ماكراكن من معلومات عن ماركس واصل كينز شرحه ليؤكد امكانية حدوث الازمة لو فاق النقد المستثمر النقد النهائي او المكتسب، اي لو لم يتمكن الرأسماليون من " تحقيق" ارباحهم المحتملة المتولدة في الانتاج وانتهوا الى خسارة اموالهم. ويضيف:

"لقد قارب ماركس الحقيقة عندما اضاف ان التفوق المستمر للنقد النهائي سيعاق حتما بسلسلة من الازمات، تزداد شدتها تدريجيا، او بافلاس صاحب العمل وتقليل عدد العمال، يصبح خلالها النقد المستثمر هو المتفوق حتما". ان الفكرة التي اطرحها، اذا ما قبلت، ستخدم على الاقل في قيام مصالحة بين اتباع ماركس وبين اتباع ميجر دوغلاس [متحدث بريطاني باسم المستهلكين]، تاركين الاقتصاديين الكلاسيكيين سكارى في اعتقادهم بالتساوي الدائم بين النقد المستثمر والنقد المكتسب!"

ان معادلة ماركس العامة حول رأس المال، او نقد – سلعة – نقد، برأي كينز لا توفر فقط مصداقية لاراء الميجر دوغلاس، بل ايضا لاراء" [جون] هوبسن، او [وليم تي] فوستر و [وادل] كاتشنغز... الذين أمنوا بالميل المتأصل [للنظام الرأسمالي] نحو الانكماش وتقليل العمالة". وبعد فترة قصيرة من قرائته لمؤلف ماكراكن نظرية القيمة ودورات البزنس، واكتشافه معالجة ماكراكن لمعادلة ماركس نقد – سلعة – نقد قام كينز بالاشارة بشكل مباشر في محاضراته الى " تحقق قضية ماركس" ارتباطا بقضية الطلب المؤثر.

لقد امسك كينز، دون معرفته المباشرة بالتحليل الماركسي، بجوهر تطبيقات المعادلة العامة لماركس حول رأس المال، وعلاقتها بنقد قانون ساي، واشارتها الى ضرورة التكامل ضمن نظام واحد بين الحقيقي والنقدي، بين الانتاج والتمويل. وقد تلاقى كل ذلك مع محاولة كينز نفسه في صياغة نظرية النقد في الانتاج (اي، النظرية العامة). ومثلما لاحظ (بول سويزي) بعد اكثر من خمسين عاما من نشر محاضرات كينز فان هذه الملاحظات على المعادلة العامة لماركس حول رأس المال قد اشارت الى: (1) ان كينز " كان في جانب هام منه اقرب الى طريقة ماركس في التفكير حول النقد وتراكم راس المال منه الى الطريقة الكلاسيكية الجديدة " و(2) " انه كان منتبها الى ما هو مهم عند ماركس اكثر من اي اقتصادي برجوازي آخر".

انه من اللافت للنظر حقا، عند النظر الى الماضي، ورؤية الى اي مدى كان تفكير كينز يتلاقى مع تفكير ماركس. لقد اشار ماركس في نظريات فائض القيمة الى ما دعاه هو " الاحتمال المجرد للازمة" اعتمادا على معادلة نقد –سلعة –نقد. "اذا ظهرت الازمة... بسبب انفصال فعلي الشراء والبيع، ستكون ازمة نقد" ومرتبطة بالنقد بصفته " وسيلة دفع... وطالما ان تطور النقد كوسيلة للدفع مرتبط بتطور الاقتراض والافراط في الاقتراض فان اسباب الاخير حرية بالدراسة [ايضا]". واذن، فبالنسبة لماركس، ان الازمة المتحققة، او ازمة الطلب المؤثر، كانت دائما متصلة بالطابع النقدي للنظام، وتمتد بالضرورة لا الى ظاهرة الاقتراض حسب، بل ايضا الى الافراط في الاقتراض. وهي بالتالي تشير الى ازمة كامنة للغارقين في الديون.

يؤكد ماركس على ان المعادلة العامة لراس المال، نقد – سلعة – نقد –، كانت تخبىء في داخلها نزوع رأس المال الى تحويل نفسه الى اقتصاد نقدي بحت (او مضارب)، أي، نقد – نقد، حيث يولد النقد نقدا دون صلة مباشرة بالانتاج السلعي. فكتب "في نقد – نقد تصل العلاقة الرأسمالية الى اكثر اشكالها سطحية وصنمية". لو كانت نقد– نقد تشير اصلا الى رأس مال حامل للفائدة، فقد استحال في مجرى التطور الراسمالي الى رأس مال مضارب يطالب بالنقد بصورة عامة. ويوضح ماركس "يحل القرض محل النقد ويغتصب موقعه. ويبدأ رأس المال شيئا فشيئا يرتدي شكلا" مستنسخا": (1) "رأس مال حقيقي" اي، اسهم المصنع، المعدات، والسلع المنتجة، و (2) "رأس مال خيالي" اي، بنية مالية مزعومة مثبتة على الورق تتعلق بالرأسمال الحقيقي. وطالما

كان النشاط الاقتصادي موجها للاعجاب بـ "رأس المال الخيالي" في عالم التمويل بدلا من تراكم رأس المال الحقيقي ضمن عملية الانتاج فقد استحال الى شكل مضارب محظ برأي ماركس.

الانتاج والتمويل

مثلما رأينا، فقد رفض ماركس وكينز، الفصل الصارم بين الحقيقي والنقدي الذي يميز النظرية الاقتصادية التقليدية. وبرغم الاختلاف في الاسلوب بهذا القدر او ذاك عند كل منهما فان نظرية النقد في الانتاج قد قادت الى نظرية عن التمويل باعتباره شيئا مندمجا بشكل تام في الاقتصاد وغير مفصول عنه – وبالتالي، الى نظرية عن الازمة المالية. ان القرار فيما اذا كان يمكن الاستثمار اليوم (او اين يمكن الاستثمار) بالمعنى الذي عرضه كينز خصوصا كان متأثرا بالارباح المتوقعة من هذا الاستثمار وبالطلب المضارب للنقد وشبه النقد (الاقتراض) ضمن علاقته بنسبة الفائدة.

لقد كان تعاظم اهمية التمويل نتيجة للتطور التاريخي للنظام. فخلال الطور الكلاسيكي للاقتصاد السياسي، عندما كانت الرأسمالية لا تزال فتية، كان من الطبيعي ان تستند النظرية الاقتصادية على تصور بسيط لاقتصاد المقايضة المعدل والذي كان النقد فيه مجرد وسيلة للتبادل ولم يؤثر ماديا على العلاقات الاقتصادية الاساسية. ولكن بحلول اواخر القرن التاسع عشر كانت ثمة مؤشرات على ما اسماه ماركس " تركيز وتمركز الانتاج" الذي كان مصاحبا لظهور المؤسسات العملاقة، مما اعطى دفعة لنظام الائتمان الحديث، اعتمادا على سوق الضمانات الصناعية.

لقد غير نظام الائتمان الحديث هذا، وبشكل كبير جدا، من طبيعة التراكم الرأسمالي، لان ملكية الموجودات الرأسمالية الحقيقية اصبحت ثانوية امام ملكية الاسهم او الموجودات التي ارتفعت قيمتها الى درجة عالية بواسطة القروض.

كتب (منسكي) في مؤلفه حول كينز " المضاربة على قيمة الموجودات الانتاجية هي خاصية من خصائص الاقتصاد.....الرأسمالي. ان النموذج المناسب لتحليل الاقتصاد الرأسمالي [المتطور] هو ليس اقتصاد المقايضة،" بل" نظام يضم مدنا [كمركز لندن للمال] او وول ستريت تمول فيها اسهم الموجودات والتعاملات المالية بواسطة القروض".

من الناحية المنطقية، فان الفصل الصارم بين الحقيقي والنقدي في الاقتصاد التقليدي– والمستمر حتى الوقت الحاضر – لا يمتلك اساسا صلبا. فالبرغم من المشروعية التامة للتميز بين "الاقتصاد الحقيقي" (والرأسمال الحقيقي) وبين عالم المال (وما سماه ماركس بـ "الاقتصاد الخيالي")، الا ان هذا التمييز لا يتوجب ان يفهم منه بان البيانات النقدية او المالية هي غير "حقيقية" بالمعنى العادي للكلمة. وقد ذكر كل من (هاري مجدوف) و (بول سويزي) ان " ليس هناك، في الواقع، فصل بين الحقيقي والنقدي: ففي الاقتصاد الرأسمالي المتطور، يجري التعبير عمليا عن كل التعاملات بصيغ نقدية وتحتاج الى وسيط من كميات حقيقية من النقد (نقد حقيقي او قرض)". والاصح، " هو ان

الفصل التحليلي المناسب هو بين القاعدة الانتاجية التحتية للاقتصاد وبين البنية الفوقية المالية".

ويمكننا تصور هذه العلاقة الديالكتيكية بين الانتاج والتمويل، باتباع (هيمان منسكي) بصيغة وجود هيكلين مختلفين للتسعير في الاقتصاد الحديث: (1) تسعير المنتوج الحقيقي الحالي، و(2) تسعير الموجودات المالية (والعقارية). ويوما بعد يوم تزداد هيمنة هيكل تسعير – الموجودات المضارب والمرتبط بتضخم (او انكماش) الثروة المثبتة على الورق على الهيكل تسعير "الحقيقي" المصاحب لاجمالي الناتج المحلي. وبالتالي، فان الرأسمال النقدي الذي يمكن ان يستخدم للتراكم (بافتراض وجود منتوج استثماري مربح) ضمن الاساس الاقتصادي يبدأ بالتحول الى نقد – نقد، اي، المضاربة باسعار الموجودات. وطالما ان ذلك أخذ شكل نزوع طويل الامد، فقد كانت النتيجة تغير بنيوي كبير في الاقتصاد الرأسمالي.

وعند النظر اليها، من هذه الزاوية فان الفقاعات المالية يمكن ان تظهر بوضوح على انها فترات قصيرة من تضخم سريع بشكل غير عادي لسعر الموجودات ضمن البنية الفوقية المالية للاقتصاد – نمو خاطئ في القاعدة الانتاجية التحتية. بالضد من ذلك، فقد مثلت الامولة ميلا اطول زمنيا نحو توسع حجم واهمية البنية الفوقية المالية ارتباطا بالقاعدة الاقتصادية، حيث تمتد لعقود. "وقد لاحظ جان توبوروفسكي، استاذ الاقتصاد في جامعة لندن، في كتابه نهاية التمويل ان" العقود الاخيرة من القرن العشرين قد شهدت نشوء عصر التمويل هو الاكبر منذ تسعينات القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، وبلغة القيم التي تحولت الى اسواق مضمونة، يمكن القول انه اكبر عصر مالي في التاريخ. واعني بعصر التمويل فترة من التاريخ يكون فيها الممول....صاحب الدور القيادي في التطور الرأسمالي بدلا من رجل الصناعة".

ان عصرا للتمويل كهذا يعزز من نهوض شبح اقتصاد المضاربة الخالص الذي اشار اليه كينز: "ربما ليس ثمة ضرر من المضاربين طالما كانت الفقاعات مستقرة فوق مسيرة ثابتة للمؤسسة. لكن الموقف يغدو جديا عندما تغدو المؤسسة نفسها فقاعة فوق دوامة المضاربة". كما لاحظ سويزي انه في تسعينات القرن العشرين " فان اعضاء مجلس الادارة [للمؤسسة]" كانوا "مقيدين بدرجة كبيرة ومحكومين برأس المال المالي الذي يعمل من خلال شبكة عالمية لاسواق المال". وبالتالي كانت "السلطة الحقيقية" تتواجد في "اسواق المال وليس في مجالس ادارة المؤسسات". واكد بان " هذه العلاقة المقلوبة بين المالي والحقيقي" كانت " المفتاح لفهم الميول الجديدة في الاقتصاد العالمي".

الازمة المالية والامولة

ضمن محاولاتهم لانكار وجود اية اهمية تاريخية حقيقية للازمة المالية العظيمة، سعى معظم الاقتصاديين والمحللين الماليين بالطبع الى التقليل من اهمية طابع تتكررها بانتظام، جاعلين منها ظاهرة كظاهرة "البجعة السوداء"، اي، نادرة الحدوث ولا يمكن توقعها، حيث يمكن ان تظهر بكل

تأثيرها الهائل من لا شئ مرة كل قرن من الزمان او ما قارب ذلك. (استمد تعبير " البجعة السوداء" من كتاب نسيم نيكولاس طالب الذي حمل هذ العنوان وتم نشره عشية الازمة المالية العظيمة، حيث جرى تعريفها بانها حدث ينطوي على تغير في قواعد اللعبة يحصل بشكل نادر ومن المستحيل التوقع به).

بيد ان البعض الاخر من الاقتصاديين، بمن فيهم من يعمل ضمن النظام، امثال نوروبيل روبيني وستيفن مايم ومؤلفهما المشترك اقتصاد الازمة، رفض نظرية " البجعة السوداء" ودعا الى تسميتها بظاهرة " البجعة البيضاء"، اي، اعتبارها نتاج عملية عادية تماما تتكرر باستمرار ويمكن توقع حدوثها، وبالامكان تحليل هذه العملية نظاميا. و من اهم المحاولات التي سعت الى توفير معالجة للازمة المالية استنادا على معطيات رقمية تمتد لقرون عديدة، ومشددة على انتظام حالة الاضطرابات في نظام القروض، هي محاولة (كارمن رينهارت) و(كينيث روجوف) ومؤلفهما المشترك انها تختلف هذه المرة: ثمانية قرون من الحماقة المالية. (عنوان الكتاب هو اشارة الى مرحلة النشاط في اية فقاعة مالية، حيث برز تصور بان الدورة المالية للبزنيس قد جرى تجاوزها وان بالامكان المضي قدما بتوسيع المضاربة الى ما لا نهاية).

لقد كان (منسكي)، بالطبع، من اشهر منظري البجعة البيضاء حيث وفر لنا فرضية عدم الاستقرار المالي، التي بنيت على رؤية كينز حول " الهشاشة التي تسربت الى عملية التراكم الراسمالي من خلال بعض خصائص البنية المالية الراسمالية التي لا مفر منها".

ومع ذلك فان ما فاتهم جميعا، واعني منسكي، روبيني، رينهارت، وروجوف، ضمن تركيزهم التام على الدورة المالية، هو التغيرات البنيوية الطويلة الامد في عملية التراكم للنظام الرأسمالي. كما ان منسكي سعى علنا الى تصحيح نظرية كينز، وخصوصا تحليله لحالة عدم الاستقرار المالي، بوضعها كلها ضمن صيغ دورات البزنس القصيرة الامد، مهملا الميول الطويلة الامد التي استند عليها كينز في تحليله للازمة المالية.

ولهذا فان ما طرحه كينز اصلا كان مختلف تماما عن ما عرفناه عنه من خلال منسكي. فقد شدد على الميل الى الركود – او الهبوط في مستوى الارباح المتوقعة من الاستثمار الجديد في اقتصاد راسمالي غني– قد خدم زيادة سلطة النقد والتمويل. وبالتالي، فانه بالنسبة الى كينيز، كما ذكر منسكي، " ان النقد هو الذي يحكم البيت عندما تهبط قيمة الناتج المتوقع للموجودات الحقيقية". اما كينز نفسه فقد صاغ ذلك :" بسبب كبر حجم التراكم الرأسمالي"، في الاقتصاد الرأسمالي الغني والناضج، " تقل جاذبية الفرص الاستثمارية الا في حالة هبوط كبير في نسبة الفائدة". كما ان عدم الموثوقية التي يصاحبها الميل الى توقع هبوط ارباح الاستثمار الجديد قد اعطى دفعة قوية الى " افضلية السيولة" (او كما دعاها كينز ايضا " النزعة الى تخزين" النقد) والى المضاربة المالية كبديل لتكوين رأس المال، الامر الذي زاد من صعوبات الاقتصاد اجمالا.

ان خلفية ذلك كله كان ميل الاقتصاد الى الخوض في حالة النمو البطيء وتقليل العمالة: "ان السمة البارزة للنظام الاقتصادي الذي نعيش فيه... هو قدرته على البقاء مريضا وقليل النشاط لفترة طويلة من الزمن دون اي ميل واضح لا للتعافي ولا للانهيار الكلي. زد على ذلك قصر الفترة التي نشهد فيها عمالة بوقت كامل او حتى بشكل شبه كامل" حسبما كتب كينز. وقد قادت هذه الظروف الى ما اقترحه منذ امد طويل من سياسة " استخدام رصاصة الرحمة" و " نوعا من اضفاء طابع اجتماعي على الاستثمار".

لم يطور كينز نظريته القديمة حول الركود والمضاربة المالية. ولكن بعد فترة جرت سلسلة من التطويرات على يد (آلفن هانس)، وبروحية ماركسية جديدة على يد مايكل كاليتسكي، جوزيف ستيندل، بول باران، وبول سويزي. من حيث الجوهر كان هناك طريقان لنظرية الركود التي جرى تطويرها اعتمادا على كينز (وماركس). الاول، الذي شدد عليه هانسن، ومن ثم سويزي – لكنه يميز جميع هؤلاء المفكرين بطريقة او باخرى – يعاين مسألة نضوج الرأسمالية، اي، تطور اقتصاد رأسمالي غني مع طاقة انتاجية عالية غير مستعملة يمكن ان تتوسع بسرعة نسبية. وهذه القدرة الكامنة لبناء قوة انتاجية كانت تقف في مواجهة واقع تلاشي فرص الاستثمار، حيث جرى اعاقة الاستثمار الحالي (في ظل ظروف النضوج الصناعي) باستثمار جرى سابقا. "مأساة الاستثمار هي في انه يسبب ازمة لانها مفيدة " حسب ملاحظة كاليتسكي. الطريق الثاني، وخير مثال عليه مؤلف باران وسويزي الرأسمال الاحتكاري، ركز على نمو الطابع الاحتكاري في الاقتصاد الحديث، بمعنى، " ميل الفائض للازدياد" في اقتصاد تهيمن عليه شركة عملاقة، والتأثيرات السلبية لذلك على التراكم.

وفي كلا الحالتين، فان الادخار المحتمل او الفائض المتولد من الاقتصاد يفوق، في العادة، فرص الاستثمار المربح لهذا الفائض، مما يقود الى نزعة الركود (نمو بطيء وارتفاع معدلات البطالة/ شبه البطالة والتخلف وتعطيل القدرات). وقد كتب باران وسويزي" ان الحالة الطبيعية للاقتصاد الرأسمالي الاحتكاري هي الركود". ولهذا فانه ليس بالامكان افتراض نموا سريعا، في الادب الاقتصادي السائد، لان الثمرة الطبيعية للنظام ضمن مرحلة النضج/ الاحتكار، غدت معتمدة، حسب رأي كاليتسكي، على " عوامل َ تنمية َ معينة" لرفع الانتاجية. على سبيل المثال، فان الصرفيات العسكرية، والتنزيلات التي تجري بهدف زيادة المبيعات، وتوسع الخدمات المالية والابتكارات الجديدة في السيارات والتي كانت كلها بمثابة الرافعات للنهوض بالاقتصاد، تقع جميعها خارج المنطق الداخلي للتراكم.

يجب الانتباه هنا الى انه لا احد من هؤلاء المفكرين كان قد ركز اصلا على العلاقة الماكرواقتصادية بين الانتاج والتمويل، او على التمويل باعتباره منتجا للفائض. فعلى الرغم من اشارة الرأسمال الاحتكاري الى ان التمويل والتأمين والعقارات يمكن ان تساعد في امتصاص الفائض الاقتصادي، الا ان هذه الاشارة

جاءت في ختام الفصل المخصص لموضوعة التنزيلات، ولم يجر التشديد عليها. ولكن، شهدت السبعينات والثمانينات اعلانا لنسبة نمو للاقتصاد الراسمالي في قلب النظام، مما ادى الى انتفاخ التمويل ولعبه دور العامل المكافئ. وبسبب العوز الى منفذ في الانتاج التجأ رأس المال الى المضاربة على التمويل بالقروض. ففي السبعينات كانت الديون تتجاوز بمقدار مرة ونصف حجم اجمالي الانتاج المحلي. وفي عام ٢٠٠٥ تجاوزته بثلاثة مرات ونصف، واقل قليلا من ٤٤ ترليون دولار وهي قيمة اجمالي الناتج المحلي العالمي.

ويوما بعد يوم اخذ التمويل المضارب يقضي على حياته نفسها. فعلى الرغم انه في التاريخ السابق للنظام وصلت الفقاعات المالية الى نهاية دورتها من الازدهار، وكانت بمثابة احداث قصيرة الامد، لكن الاموالة اليوم تبدو، وبشكل محير، لا تتغذى فقط على الازدهار بل على الركود ايضا ولفترات طويلة الامد. وكان من لعب الدور الاساسي في استمرار هذه العملية هي البنوك المركزية في البلدان الرأسمالية القائدة، حيث اصبحت " الملاذ الاخير للحصول على القروض"، ولعبت دور الساند والكافل لاكبر المؤسسات المالية حيثما تطلب ذلك (اعتمادا على قاعدة " لا يمكن ان نجعلها تسقط لانها كبيرة جدا "). وكان التناقض الرئيسي هو ان الانفجار المالي يولد حالة اكبر من عدم الاستقرار والتقلب على المدى البعيد، برغم حثه للنمو الاقتصادي على المدى القصير. ولهذا، وجدنا ان ماجدوف وسويزي، اللذان واصلا الكتابة عن هذه التطورات منذ السبعينات الى اواخر التسعينات، قد شددا على انه عاجلا ام آجلا –طالما ان هناك عولمة للتمويل واستحالة ادارته على هذا المستوى – فان رفع البنية الفوقية المالية على اكتاف قاعدة انتاجية راكدة سيؤدي حتما الى انهيار كبير اشبة بانهيار الثلاثينيات. ولكن حتى لو حصل انهيار مالي كهذا، يبقى السؤال ان كان ذلك سيوقف عملية الامولة مفتوحا للمستقبل حسب رأيهما.

يكتب (توبوروفسكي): "في عصر التمويل، يقوم التمويل، في معظم الحالات بتمويل التمويل". وبالتالي، فان الانتاج في العقود الحالية غدا، وبصورة مضطردة، " عرضيا لمعظم الاعمال المربحة".

فمع تعطل مكابس محرك التراكم الرأسمالي الانتاجي، كان لا بد من تشغيل المحرك الاحتياط للتوسع المالي ليحل محل الاول. وقد ساعد نمو العمالة والارباح في قطاع التمويل، التأمين، والعقارات على تنشيط الاقتصاد، في حين ادى النمو المضاربي للموجودات المالية الى " احداث ثروة " تمكن بواسطتها قسم معين من الرأسمال المستحصل من تقييم الموجودات من التوجه الى زيادة الاستهلاك المرفه، ومن ثم تنشيط الاستثمار. فحتى بالنسبة للطبقة الوسطى العريضة (مهنيون، وموظفون، والمدراء الوسطيون، والعمال المهرة) ادى التضخم السريع في سعر موجوداتهم الى تمكن قسم كبير منهم، من مالكي البيوت، من رفع وتيرة استهلاكهم عبر الاقتراض من جديد على اساس "الرأسمال المستحصل" من ارتفاع اسعار بيوتهم. وبهذه الطريقة، فان توسع القرض

رفع من اسعار الموجودات، التي ادت بدورها الى ازدياد الديون التي رفعت من اسعار الموجودات وهلم جرا وهذه هي : الفقاعة.

ان بالامكان النظر الى الديون بمثابة الدواء الذي ينشط الاقتصاد في ظل ظروف الركود المستوطن. لكن استخدامه بجرعات اكبر لن يقضي على المرض بل سيؤدي هو نفسه الى اعراض جانبية وكارثية طويلة الامد. وستكون النتيجة مصيدة الركود – الامولة. وخطورة هذه المصيدة تبدو جلية للعيان اليوم في حقيقة ان رأس المال ودولته لا يمتلكان اجابة على الازمة المالية العظيمة الحالية سوى انقاذ المؤسسات المالية والمستثمرين (شركات وافراد) بتزويدهم بالآف المليارات بهدف ان يتم استخدام الدين كرافعة للنظام مرة اخرى.

ان ديناميكية الامولة بعلاقتها باقتصاد راكد هي لغز الرأسمال الاحتكاري – المالي.

النهاية المنطقية للرأسمالية

واذا، في الوقت الذي تنعش فيه الامولة تراكم رأس المال من خلال عملية توسع المضاربة، فانها، في نهاية المطاف، تساهم في تآكل كامل النظام الاقتصادي والاجتماعي، معجلة بانهياره. ان ما نشهده اليوم في مجتمعاتنا بشكل عام هو ما يمكن تسميته بـ "أمولة الطبقة". وحسب ما لاحظ (ديفيد هارفي) فان "نظام الائتمان قد اصبح الان...الرافعة الاساسية الجديدة للحصول على الثروة بواسطة رأس المال الممول من بقية السكان. وفي السنوات الحالية جرى تجميد اجور العمال ووقف التعيينات الجديدة، في حين زادت حالة التفاوت في الدخل والثروة بين الاغنياء والفقراء. ففي عام 1976 كان 1٪ من السكان يحصل على9٪ من دخل الولايات المتحدة الاميركية، ثم ارتفعت النسبة الى 24٪ عام 2007. ووفقا لما ذكره (راغورام راجان) (كبير اقتصاديي صندوق النقد الدولي السابق) فان " كل دولار من نمو الدخل الحقيقي في البلاد – اميركا– بين الاعوام 1976 و2007، كان 58 سنتا منه يذهب الى 1٪ من السكان". مثال بسيط على هذا نذكر ان (جون بولسن)، وهو احد المدراء الماليين، حصل على دخل في عام 2007 حوالي3.7 مليار دولار اي 74 الف مرة أكثر من متوسط دخل الاسرة في اميركا. كما ان حصة ما نسبته 5٪ من الاغنياء بين الاعوام1989 و 2007 ارتفعت من59٪ الى62٪ في حين شهد 95٪ من السكان تدهورا في مداخيلهم. اما اصحاب البيوت الذين استفادوا بعض الشيء من ارتفاع اسعار منازلهم فاننا نجدهم اليوم وقد سحب البساط من تحت اقدامهم بعد انفجار فقاعة المساكن. لقد ارتدت هذه الزيادة في حالة التفاوت في المداخيل والثروات في عصر الامولة شكل" تنامي التمايز بين الاغنياء والفقراء"، وذهبت مدخرات الفقراء الى جيوب الاغنياء.

لقد انعكست الزيادة السريعة في استقطاب المداخيل والثروات خلال العقود الحالية في نمو تركيز وتمركز رأس المال. ففي عام 2000 وفي قمة حالة الاندماج والاستحواذ بين الشركات ضمن فقاعة الاقتصاد الجديد، وصلت قيمة الاندماجات والاستحواذات الى3.4 ترليون دولار – ثم

تدهورت بشكل سريع جدا بعد انفجار الفقاعة. ولم يجر تجاوز هذا الرقم الا في عام 2007 ضمن فقاعة ارتفاع اسعار البيوت والعقارات حيث وصلت قيمتها الى 4 ترليون دولار ثم تدهورت ايضا بعد انفجار الفقاعة. وكانت النتيجة من كل ذلك تناقص عدد الشركات التي تسيطر على الصناعات الاساسية. وقد اتضحت حالة تنامي الاحتكارات في السنوات الحالية ضمن قطاع التمويل نفسه. بحيث ارتفعت حصة موجودات الصناعة المالية المحتكرة من قبل 10 شركات احتكارية عملاقة حوالي ستة اضعاف بين عام 1990 وعام 2008، من 10٪ الى 60٪.

ان هذا التحليل الذي يوضح كيف عززت الامولة من حالة التفاوت في المداخيل والثروات والسلطات يساعدنا في توضيح وجهة النظر، السائدة اليوم في اوساط اليسار، من ان الليبرالية الجديدة، او حلول ايديولوجية السوق الحر، هي المصدر الاساسي لمشاكل اليوم الاقتصادية. وبدلا من ذلك يمكن النظر الى الليبرالية الجديدة على انها التعبير السياسي لاستجابة رأس المال لمصيدة الركود- الامولة.

ويوما بعد يوم، ولدت امولة التراكم في مركز النظام الرأسمالي، والمدعومة بالسياسة النيوليبرالية، منظومة عالمية "لمعالجة الصدمة"، وبدلا من ان نشهد" رصاصة الرحمة" لكينز، فاننا نشهد اليوم تهديدا بالقتل الرؤوف لكل مناحي المجتمع والطبيعة. ونتائج ذلك، مثلما اقترحته (نعومي كلاين) في كتابها مذهب الصدمة، تمتد الى ماوراء التراكم الممول المرافق لعصر الليبرالية الجديدة، ونتائج اكثر سعة بحيث يمكن وصفها " رأسمالية كارثية" تتمثل في اتساع حالة التفاوت الاجتماعي والاقتصادي وتعمق اللااستقرار وتوسع العسكرة والحرب، واخيرا في دمار بيئي متواصل دون توقف.

من هنا يتوجب علينا ان نعمل من اجل مجتمع جديد قائم على المساواة الحقيقية وعلى تنمية بشرية مستدامة: علينا بناء اشتراكية القرن الواحد والعشرين

* مداخلة قدمت في المؤتمر الوطني الخامس عشر حول الاقتصاد لجمعية الاقتصاد السياسي البرازيلية في جامعة ماراناو، ساو لويس في 3 حزيران 2010.

65 عاما في خدمة الغرب
صندوق النقد الدولي مؤسسة متعددة الوجوه

يـــــورغ روزلـــــر ❖
ترجمة: رشيد غويلب

يعتبر السابع والعشرون من كانون الأول 1945 التأريخ الرسمي لتأسيس صندوق النقد الدولي IMF، ولكن هذا اليوم يرمز لعملية إنشاء هذه المؤسسة، إذ إن النقاش حول تأسيس مركز لتنظيم العلاقات النقدية العالمية بدأ في تموز عام 1944 في مدينة بريتن وودز الأمريكية. في آيار 1946 استطاع صندوق النقد الدولي أن يبدأ عمله، ولكنه بدأ النشاط الفعلي في آذار 1947. وفي مرحلة تأسيسه التي استمرت أكثر من عامين حدثت تغيرات أساسية في السياسة العالمية، فمنذ منتصف عام 1944 بدأ التحالف المعادي لهتلر يفعل فعله، وكانت هناك توقعات لفترة طويلة من السلام بعد النهاية المنظورة للحرب التي كانت بادية للعيان.

في ذلك الوقت كان يتم استخلاص دروس الأزمة الاقتصادية العالمية (1939 – 1933)، في الوقت الذي كانت جميع

البلدان الصناعية، باستثناء الاتحاد السوفيتي، تعاني من هبوط مفزع في الإنتاج، وكان حجم تقلص الصادرات يفوق تراجع الإنتاج، ولا يعود ذلك الى ضعف الطلب عالميا، ولكن أيضا لأن كل بلد أراد حماية سوقه الداخلي لصالح الشركات الوطنية من خلال إنشاء جدران الرسوم الجمركية. لقد بدأت حرب الجمارك بعد حدوث مشاكل في ميزان المدفوعات جراء التخلي عن اعتماد الذهب كمعيار في اعوام 1931/1930 بالإضافة إلى حرب العملات. فقد حاول كل بلد، من خلال خفض قيمة عملته، ان يحصل على موقع أفضل في مواجهة منافسيه في أسواق التصدير التي أصبح الوضع فيها صعبا. إن رفع وخفض قيمة العملات الوطنية خلق ظروفاً مواتية لممارسة المضاربة، وكان المفترض أن يخفف

من تأثير الأزمة على الصعيد الوطني، ولكنه ساهم في تصعيدها (الأزمة) على صعيد الاقتصاد العالمي.

ضمان هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية

في مؤتمر بريتون وودز اتفق الجميع على عدم تكرار حرب العملات (الجميع ضد الجميع)، في إطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد، وقد تم ذلك على أساس المقترحات التي قدمها البريطاني جون كينز والأمريكي هاري وايت. وكانت هذه المقترحات ترمي أولا إلى إنشاء نظام لسعر صرف ثابت لتحويل العملات الوطنية بين بعضها البعض ولجعل العمليات التجارية و المالية أكثر شفافية و توازنا. وتم تحديد سعر صرف ثابت للعملات الوطنية بالنسبة للدولار الأمريكي، الذي حددت له قيمة تبادلية بالنسبة للذهب. وكانت مهمة صندوق النقد الدولي مراقبة الالتزام بأسعار الصرف التي اتفق عليها. كما ان أي تغير يزيد على ١٪ في سعر العملة كان يتطلب موافقة الصندوق، وبهذا تم منع تخفيض سعر العملة لأسباب تنافسية.

المهمة الثانية التي حددتها المقترحات هي تقديم صندوق النقد الدولي المساعدة للدول الأعضاء في حالة وجود عجز قصير المدى في ميزان المدفوعات، ومساعدتها في التغلب على الأزمات الدورية الصغيرة المتوقعة دائما، من خلال التوفير السريع للقروض المنتظمة والاستثنائية. وتمتع بعضوية الصندوق، في البداية، 29 بلدا، أما اليوم فيبلغ عدد الدول الأعضاء 186 دولة تلتزم بدفع حصة محددة وفقا لإمكانياتها الاقتصادية بالذهب أو بالعملات الأجنبية أو بعملتها الوطنية. وعند وجود مشاكل في ميزان المدفوعات تتمتع الدول الأعضاء بـ"حقوق السحب"، أي الحصول على قرض غير مشروط يصل إلى 25٪ من حصتها الإلزامية. وبهذا أصبح صندوق النقد الدولي وصيا على السيولة النقدية العالمية و داعما للتوسع الاقتصادي الخارجي.

لم يؤخذ بمقترح (جون كينز) الداعي لإنشاء عملة عالمية مستقلة (بانكور)، بسبب الهيمنة السياسية و الاقتصادية للولايات المتحدة التي تبنت مقترح (هاري وايت) الداعي إلى اعتماد الدولار كعملة عالمية، بالإضافة إلى ذلك تمتعت الولايات بأفضلية في التصويت الذي يجري في صندوق النقد الدولي وفقا للحصة التي يدفعها البلد المعين، و قد كانت حصة الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من 30٪، على عكس نظام التصويت في الأمم المتحدة إذ يتمتع البلد العضو بصوت واحد فقط بغض النظر عن حجم البلد أو عدد سكانه، وبهذا استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية إيقاف أي سياسة نقدية تتعارض مع مصالحها.

سلاح في الحرب الباردة

عندما بدأ صندوق النقد الدولي عمله الفعلي في آذار 1947، كانت التصورات المشتركة لتطور اقتصادي عالمي سلمي لفترة ما بعد الحرب التي شهدتها (بريون وودز)، تفسح الطريق لحرب باردة أكيدة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي والبلدان المتحالفة معهما.

وفي أيلول1946 صرح وزير الخارجية الأمريكي (جيمس بيرنز) إن على البلدان

الواقعة "في دائرة النفوذ السوفيتي" أن لا تتوقع الحصول على قروض لإعادة البناء، وفقا لسياسة الاحتواء التي أعلنها الرئيس الأمريكي ترومان في آذار 1947. وعلى هذا الاساس قاطع صندوق النقد الدولي الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى.

وقدم صندوق النقد الدولي للدول الصناعية والسائرة على طريق التصنيع في العالم الغربي دعماً لنموها الاقتصادي و دعماً اكبر لعملية التبادل التجاري العالمي. ونظراً لعدم وجود توسع هائل في حركة رأس المال أدى ذلك إلى زيادة الطلب على القروض الدولية وأيضا إلى زيادة العرض. ولم تكن الأزمات الدورية في الخمسينات والستينات من القرن العشرين حادة ولم تحدث في جميع البلدان الغربية في آن واحد. ولذا استطاع صندوق النقد الدولي بواسطة القروض التي يمنحها أن يؤثر بشكل متوازن على الدورة الاقتصادية، وبمساهمته المباشرة في تحقيق المعجزة الاقتصادية استطاع الصندوق أن يساهم بشكل غير مباشر في تعزيز البلدان الغربية سياسيا وعسكريا.

وسببت "صدمة سبوتنيك" ** للغرب مخاوف من تفوق المعسكر المعادي اقتصاديا، ولكن هذه المخاوف غادرت وعفا عليها الزمن في الستينات. واستمرت هيمنة الولايات المتحدة على صندوق النقد الدولي طيلة هذه العقود، بغض النظر عن النمو الاقتصادي السريع في اليابان وبلدان أوربا الغربية، وقبول الولايات المتحدة على مضض بتخفيض حصتها إلى اقل بقليل من 20٪. وعلى اثر ذلك جرى اشتراط الحصول على85٪ من الأصوات عند اتخاذ القرارات الهامة، وبهذا احتفظت الولايات المتحدة بما يسمى بالـ " الأقلية ألمعطلة" Blocking minority

بداية التعامل العالمي

في بداية السبعينات انتهى استقرار الأسواق المالية في العالم الغربي، الذي تحقق على خلفية قرارات بريون وودز. ففي النصف الثاني من الستينات تزايدت ديون الولايات المتحدة بسبب تمويلها الحرب الفيتنامية، وبدأت بطبع كميات من الدولار خارج حدود الغطاء المالي الذي وفره احتياطيها من الذهب الذي تراكم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وبهذا وضعت الدولار كعملة للاحتياطي العالمي موضع تساؤل. وأصبح واضحا حينها انه كان يجب عدم رفض مقترح جون كينز خلال مرحلة تأسيس صندوق النقد الدولي، الداعي إلى إنشاء عملة عالمية مستقلة. وفي عام1973 الغى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ارتباط الدولار بمعيار الذهب مما أدى إلى تحرير أسعار الصرف، فأصبحت مرة اخرى من أدوات المنافسة الاقتصادية.

فقد صندوق النقد الدولي، من جانب آخر، تأثيره كعامل للاستقرار الاقتصادي خلال الأزمات الاقتصادية العالمية التي حدثت للمرة الأولى (بعد الحرب العالمية الثانية) في السنوات 1975/1974 و 1982/1981، والتي أثبتت عدم قدرة الصندوق على مواجهتها إلاّ بشكل محدود. وعموما أصبح النمو الاقتصادي في العالم الغربي بطيئا جدا خلال عقد السبعينات والثمانينات بالمقارنة مع العقدين السابقين.

مع ذلك، كانت الثمانينات والتسعينات فترة أتاحت لصندوق النقد الدولي ان

يتوسع. وإذا أردنا استخدام لغة الحرب الباردة، كانت سياسة الانتقال "من الاحتواء إلى الردع" منذ بداية السبعينات بسبب نمو مديونية البلدان الناشئة والبلدان الاشتراكية لحساب المصارف الغربية. ودخلت بلدان مجلس التعاضد الاقتصادي في هذا الوضع بعد تبني بولندا بزعامة ادورد غيركه إستراتيجية فاشلة، تبنتها كذلك يوغسلافيا وألمانيا الديمقراطية وهنغاريا ورومانيا، قامت على استيراد التكنولوجيا الحديثة وسلعاً استهلاكية إضافية ومن ثم تمويل تسديد القروض التي حصلت عليها من واردات صادراتها إلى الغرب التي تنتجها مواقع الإنتاج الجديدة. ولكن هذه الخطة أثبتت فشلها، واضطرت يوغسلافيا وبولندا ورومانيا على التوالي، في 1981/ 1982، الى طلب تأجيل مواعيد التسديد. أما في هنغاريا، فقد بلغت أزمة السيولة النقدية فيها في عام 1982 ذروتها، وعلى اثر ذلك كانت هنغاريا أول دولة اشتراكية تتوجه لطلب المساعدة من صندوق النقد الدولي.

وعانت بلدان أمريكا اللاتينية، هي الأخرى، من صعوبات مالية مماثلة لما كان قائما في بلدان أوربا الشرقية وفي نفس الفترة تقريباً، حيث استنفدت عملية النمو الناتجة عن محاولة التصنيع المتأخرة في نهاية الستينات طاقتها. ومع هبوط معدل النمو الاقتصادي فقدت أيضاً القاعدة المادية لتحسين الواقع الاجتماعي. ولضمان استمرار السياسة الاقتصادية – الاجتماعية السابقة، طرحت في الأسواق المالية العالمية المزيد من السندات التي تزايدت باستمرار صعوبة ضمان سدادها. ولذا توجهت حكومات أمريكا اللاتينية، التي كانت تواجه تهديدات المصارف الدولية الدائنة بوقف التسليف، إلى صندوق النقد الدولي أيضاً لطلب المساعدة والقروض، رغم إنها كانت تعتبره على مدى ثلاثة عقود "أداة الامبريالية الأمريكية" المنبوذة.

محرك لهجوم الليبرالية الجديدة

بدأ صندوق النقد الدولي منذ نهاية السبعينات وبدايات الثمانينات يربط مساعداته غير المشروطة للبلدان الصناعية بشكل رئيس، أو المساعدة في وضع السياسيات النقدية، بشروط (أي تقديم مساعدات مالية مشروطة). وهذا يعني مطالبة البلد المتقدم لطلب المعونة بالقيام بـ "تكييف هيكلي" لاقتصاده الوطني. وتمشيا مع سياسة الليبرالية الجديدة لرونالد ريغان ومارغريت تاتشر، فرض الصندوق الليبرالية الجديدة على التجارة والأسواق المالية، بالإضافة إلى رفع القيود عن السياسات الاجتماعية وكذلك خصخصة البنوك والشركات الصناعية وفقا لما عرف "بإجماع واشنطن"، والذي تضمن حزمة من التدابير الليبرالية الجديدة التي شارك في وضعها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ووزارة الخارجية الأمريكية وعدد من المؤسسات الاقتصادية العالمية المؤثرة التي تتخذ من العاصمة الأمريكية مقرا لها.

كانت القروض التي قدمها الصندوق إلى البلدان الاشتراكية في أوربا الشرقية مشروطة بالقيام بـ"إجراء الإصلاحات" المزعومة لإزالة مواطن الضعف في اقتصاد بلدان "الكتلة الشرقية". وتم تقديم جزء من القروض المتفق عليها وأشترط التنفيذ الكامل لـ"إجراءات الإصلاح" للحصول على الأجزاء المتبقية من القروض، وفي حال

التلكؤ في التنفيذ يستطيع الصندوق فرض عقوبات تصل إلى حد التوقف الكامل عن تقديم القروض.

مارس صندوق النقد الدولي ضغطا اقوى على بلدان أوربا الشرقية بالمقارنة مع البلدان الناشئة كالمكسيك و البرازيل والأرجنتين. فقد عقد الصندوق اتفاقات لإعادة جدولة الديون مع بولندا في 1981 و 1982 و 1983 ومع رومانيا في 1982 و 1983ومع يوغسلافيا في 1983. لقد كانت الشروط قاسية، فقد طالب الصندوق بتخفيض قيمة العملة الوطنية و تخلي الدولة عن دعم السلع الاستهلاكية وإلغاء دعم الدولة للمصانع التي تمنى بخسائر. وترتب على ذلك أن تتخلى بلدان أوربا الشرقية المعنية عن المبادئ الأساسية لنظام الاقتصاد المخطط، باستثناء المانيا الديمقراطية التي نجحت بواسطة إدارة ذكية لملف الديون، وفق تقديرات خبراء المال الأمريكيين، وتجنبت الإفلاس المالي في عامي1982/1981. إن من أنقذ ألمانيا الديمقراطية من شروط صندوق الدولي في عام1983 هو المليارات التي تلقتها بواسطة " قرض شتراوس" *** الذي انهى حصار القروض الذي فرضته البنوك الغربية.

وساهمت شروط صندوق النقد الدولي قبل خريف1989 إلى حد كبير في تشويه وتفكيك الاقتصاد المخطط، من خلال إدخال غير مناسب لعناصر إضافية من اقتصاد السوق إلى الاقتصاد المخطط، كما كان الحال في هنغاريا، أو من خلال اختزال الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد أوامري ينفذ إجراءات التقشف التي طالب بها صندوق النقد الدولي، كما كان الحال في رومانيا بزعامة تشاوشيسكو. ولكن التأثير الأسوأ لشروط الصندوق كان على يوغسلافيا حيث أدى إلى انهيار الدولة الاتحادية فيها.

بدأ انهيار يوغسلافيا مع إصرار صندوق النقد الدولي في عام 1989 على إقرار برنامج "ميلوسيفيتش –ساكسن"، نسبة إلى الرئيس اليوغسلافي ميلوسفيتش والاقتصادي الأمريكي جيفري ساكسن، الذي سبق له وبتكليف من الصندوق أن قدم "المشورة" لبوليفيا لـ"إعادة تنظيم" شؤونها المالية. في غضون أشهر قليلة من عامي 1990/1989 جرى رفع جذري للقيود على الاستيراد، وهو ما أدى حتى نهاية1990 إلى إعلان 2435 مصنعاً، عمل فيها1.3 مليون عامل، الإفلاس، بالإضافة إلى تعليق دفع أجور نصف مليون عامل آخر. لقد انخفض الناتج الإجمالي القومي في عام 1990 بنسبة 7.5٪ و في عام 1991 بنسبة 15٪. ولغرض التخفيف من آثار الكارثة حاولت جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي تبني سياسة منفردة، أي ضد بعضها البعض وضد الاتحاد. وتمثل ذلك في رفض دفع الضرائب للحكومة الاتحادية، ثم تحول إلى حرب اقتصادية كانت المقدمة لتفكيك الاتحاد اليوغسلافي وأدت إلى اندلاع الحرب الأهلية.

في الأزمة وخلالها

جرت خلال سنوات التسعينات إدارة الاقتصاد في جميع بلدان العالم الثاني السابق والعالم الثالث تقريباً وفق تعليمات "إجماع واشنطن" مع استثناء كبير هو الصين. في أمريكا اللاتينية أدت السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة بدءاً من عام 1990 إلى نمو اقتصادي، بعد تجاوز الركود الذي شهدته الثمانينات، ولكنه تميز بتباين اجتماعي حاد. وعندما انتهى بيع مصانع القطاع العام وانخفضت أسعار

المنتجات الزراعية في الأسواق العالمية، انخفض النمو الاقتصادي مجدداً. وكلما زاد التزام الحكومات بتعاليم الصندوق ازداد النمو الاقتصادي انخفاضا، كما هو الحال في الأرجنتين التي اعتبرت "التلميذ النموذجي" لصندوق النقد الدولي. وكما قال الخبير الاقتصادي الأمريكي والحائز على جائزة نوبل (جوزيف ستيغليتز) فانه "نظراً لانخفاض النمو، ازداد العجز باستمرار في ميزانية الأرجنتين". وعندما فرض الصندوق على الأرجنتين خفض النفقات وزيادة الضرائب، ادخل البلاد في حلقة مفرغة من الضعف الاقتصادي والاضطرابات الاجتماعية. وفي عام 1999 ساد الركود الاقتصادي الأرجنتين، وفي عام 2001 كانت الأرجنتين مفلسة. وعلى اثر هذه الكارثة الاقتصادية غادر مليون إنسان البلاد الواقعة على نهر ريو دي لا بلاتا (النهر الفضي)، عائدين إلى بلاد أجدادهم في ايطاليا واسبانيا.

وفي اعقاب الانهيار الاقتصادي في الأرجنتين، توصلت الحكومات اليسارية الصاعدة إلى الحكم في العقد الأول من القرن الجديد في أمريكا اللاتينية إلى عمل كل ما في وسعها للإفلات من قبضة صندوق النقد الدولي مستقبلاً. إن النمو الاقتصادي على الصعيد العالمي حتى 2008 وارتفاع أسعار المواد الخام ساعد بلدان أمريكا اللاتينية على تسديد ديونها لصندوق النقد الدولي. فالبرازيل والأرجنتين تمكنتا من انجاز ذلك حتى عام 2005، ثم وظفت فائض الصادرات لتنمية الاحتياطي من العملات الأجنبية، وفي نفس الوقت عملتا مع الحكومات الأخرى على تأسيس "بنكو ديل سور" (بنك الجنوب).

وعاشت بلدان شرق وجنوب شرق آسيا وضعاً مشابهاً لبلدان أمريكا اللاتينية من قبل. فلقد كان لها مع شروط الليبرالية الجديدة لصندوق النقد الدولي خلال الأزمة الآسيوية في عام 1997 تجربة سيئة جدا. وتأسس في عام 2000 بواسطة مبادرة "شيانغ – ماي" صندوق للسيولة النقدية مستقلاً عن صندوق النقد الدولي. ويعود الفضل في توفير هذا الاحتياطي النقدي الى الصين التي رصدت أكثر من 3000 مليار دولار أمريكي، ما جعل اقتصاديات بلدان شرق آسيا قادرة على صد هجمات المضاربة ضد عملاتها الوطنية وكذلك منع التسرب الهائل لرؤوس الأموال، حتى بدون المساعدة المشروطة التي قدمها صندوق النقد الدولي بقيمة 110 مليار دولار في 1997

ودخل صندوق النقد الدولي في العقد الأول من القرن الجديد في أزمة مزدوجة، فهو يلبي الوظيفة التنظيمية – السياسية التي وضعها لنفسه في العقود الثلاثة الماضية، بشكل محدود، ويعاني في الوقت نفسه من صعوبات مالية لاستخدامه الارباح المترتبة على القروض التي منحها في التمويل. ولذا جرى التفكير بشكل جدي، مع بداية الأزمة الاقتصادية العالمية، ببيع جزء من احتياطي الذهب الذي يوجد بحوزته.

وواجه صندوق النقد الدولي الأزمة الأخيرة بحيرة تامة، فقد اعترف (اوليفييه بلانشار) رئيس الاقتصاديين في الصندوق في وثيقة نشرت في آذار 2010 ، بأن الصندوق، وبالضد من وظيفته الأصلية التي تقوم على التدخل في الاقتصاد المالي العالمي لخلق حالة من التوازن، تسبب بفعل

رفع القيود والإجراءات الليبرالية إلى التعجيل بالأزمة بدلاً من إعاقتها، وبالمقارنة مع مشروع التأسيس نرى انه فشل في تحقيق أهدافه. لقد استطاعت البلدان الناشئة كالبرازيل والأرجنتين وكذلك دول شرق آسيا، بفضل الاحتياطي النقدي، ان تواجه الأزمة المالية والاقتصادية في الوقت الحاضر على نحو أفضل من الولايات المتحدة وبعض بلدان الاتحاد الأوربي.

وجاءت الدراسة التي أعدها في نيسان 2010 القسم الاستراتيجي في الصندوق لتعبر عن الأزمة التي يمر بها، حيث تضمنت أفكاراً تدعو إلى التخلي عن الدولار كعملة احتياطية، وبالتالي إنهاء الهيمنة الأمريكية على هذه المؤسسة المالية العالمية، على أن تحل محل الدولار عملة عالمية هي "البانكور" (وهو مقترح سابق لجون كينز). وتناولت الدراسة المنافع المتأتية من ذلك بالقول ان "عملة عالمية تصدر عن بنك مركزي عالمي ذات قيمة مستقرة يجري تكوينها ويمكن الحفاظ عليها ولا يمكن ربطها بأي شروط اقتصادية"، وهي عملة احتياطية لا نحتاج بعد الآن إلى كنزها. ان وجود بنك مركزي عالمي بمثابة بنك للتسليف (كملاذ أخير) يهدف إلى توفير السيولة النقدية الضرورية غير المقيدة وغير المشروطة عند حدوث الصدمات الدورية يمكن أن يعيد صندوق النقد الدولي إلى أساس الإجماع الذي بدأت فيه مرحلة التأسيس.

الهوامش:

* البروفيسور يورغ روزلر: مؤرخ اقتصادي، ولد عام 1940 و درس العلوم السياسية في برلين عاصمة المانيا الديمقراطية السابقة، مارس التدريس في جامعة مبولت اللامانية، وكان مديراً لقسم البحاث في أكاديمية العلوم في ألمانيا الديمقراطية حتى إلغائها. وهو أستاذ زائر في جامعة لايفربول البريطانية وجامعتي بورتو وموريال الكنديتين وجامعة بورتلند الامريكية، وعضو جمعية علماء الاجتماع)لينين(والجمعية العالمية للسياسة والاقتصاد العالميين في برلين. له العديد من المؤلفات كان آخرها "التاريخ الاقتصادي لمركل الليبرالية من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين" الصادر عام 2009 عن دار نشر جامعة لايبزك اللمانية.

** نسبة إلى إطلاق الاتحاد السوفيتي القمر الصناعي "سبوتنيك1" في 04/10/1957 وخطل العقاد امريكي بالتفوق على السوفيت في أبحاث الفضاء وعلوم الصواريخ.

*** فرانس جوزف شتراوس)1915- 1988(: احد أهم زعماء الايمين اللماني بعد الحرب العالمية الثانية. كان زعيماً للحزب الاجتماعي المسيحي ورئيساً لوزراء مقاطعة باداريا لسنوات طويلة، وتولى منذ بداية الخمسينات عدة حقائب وزارية في الحكومة الاتحادية. بدأ حياته السياسية عضواً في الشبيبة النازية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

حـــــــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الناقد بشير حاجم

■ حـــاوره قـــاســم العـــزاوي

بشير حاجم من مواليد (1968) ببغداد، حاصل على بكالوريوس في اللغة العربية، كلية الآداب وهو عضو في اتحاد الأدباء والكتاب في العراق واتحاد الأدباء العرب، نشر عشرات المقالات والدراسات والبحوث النقدية في الادب والتشكيل والمسرح في الصحف والدوريات العراقية والعربية، مشرفا على المحاور النقدية لمهرجان المربد في جميع دوراته بعد2003 .واصدر كتابين في النقد الادبي هما:

- زمن ألحكي..زمن القص / تقنية الحوار في الرواية العراقية، مركز الثقلين للدراسات الستراتيجية - بغداد 1993.

- النص النسقي والنص المتني /في الحركتين المتضافرتين للقصيدة (الانبناء / الانهدام)،الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق / بغداد 2010.

- وله تحت الطبع كتاب ثالث (رأي الشاعر.. رؤية القصيدة/ العقدان الحياتي والفني للجيل التسعيني).

● إشكالية المبدع/الناقد والعلاقة بينهما. من خلال متابعة ما نشر وينشر قد يجد المرء نفسه مضطرا لصياغة استنتاج ربما يكون مثيرا للجدل وقوامه: محدودية مستوى النقد في بلادنا وقلة الناقدين الجادين. والسؤال: ألا يشكل ذلك خطورة على تطور العملية الإبداعية وارتقائها الى فضاءات معرفية أرقى؟ ما هي باعتقادكم العوامل الكامنة وراء ذلك؟ وما هو السبيل لتجاوز هذا الخلل؟

- لا "إشكالية"، في اعتقادي، إسمها "المبدع/ الناقد" لنسمِّ " العلاقة بينهما"،هنا، بـ (الجدلية). أعني بها، إجمالا،

تضافريتهما. أي، تفسيريا، تضافرية النشر الابداعي والجهد النقدي. بيد أن هذه التضافرية، التي يفترض أنها واحدة، ذات حدين: سلبي وإيجابي. حين أتحدث عن الحد الأول، تصريحيا، سوف أتحدث عن الحد الثاني، تلميحيا، بالضرورة. حدها السلبي، أولا، متمثل في النظر إليها "نرجسيا" من طرف (الابداع). نظرٌ كهذا، "نرجسي"، أستشفه الآن، مثلا ليس حصرا، مما قلته أنت (من خلال متابعة ما نشر وينشر قد يجد المرء نفسه مضطرا لصياغة استنتاج ربما يكون مثيرا للجدل قوامه: محدودية مستوى النقد في بلادنا وقلة النقاد الجادين)! فاستنتاجك هذا، الذي صغته "مضطرا"، يعد "مثيرا للجدل"، دون "(ربما) كـ" الاحتمالية، بحق. لكنه "حق" النرجسية"، ليس إلا، بدليل أن استنتاجا كهذا، أو "قوامه" تحديدا، إقتصر على بعدين (مهمين)، نعم، ولم يتعدَّهما إلى بعد (أهم). فثمة، أولا، البعد النوعي (محدودية مستوى النقد). وثمة، ثانيا، البعد الكمي (قلة النقاد الجادين). أين، إذن، البعد الكيفي؟ هكذا بنيتَ على استنتاجك، الذي سها عن (أهم) أبعاد الجهد النقدي، ثالوثا سؤاليا: ألا يشكل ذلك خطورة على تطور العملية الابداعية وارتقائها إلى فضاءات معرفية أرقى؟ ما هي باعتقادكم العوامل الكامنة وراءه؟ ما هو السبيل لتجاوز هذا الخلل؟ رغم ذلك، سيما "السهو" الذي فيه، سأتجاوب مع "الثالوث السؤالي" هذا. ليس تصريحيا، لا، بل تلميحيا. لأن تجاوبي، معه، سينطلق مما قبله. من الاستنتاج، ذي البعدين "النوعي + الكمي" دون البعد "الكيفي"، هذا (محدودية مستوى النقد وقلة النقاد الجادين). فهو يكرر القول، الذي بات متواترا، بأن هنالك "أزمة نقد" و"أزمة نقاد" عندنا. إذ يقال، اليوم، إن في العراق، على سبيل المثال، ثمة تكاسلا عن الجهد النقدي وسط تراكم من النشر الابداعي! هكذا هو فعل المبدعين، من الأمس إلى الغد، دائما.. دائما، وأبدا، حتى ينقطع النفس. فما هو رد النقاد، من الماضويين إلى المستقبليين، حيث لكل فعل رد (يساويه في القوة ويعاكسه في الإتجاه)؟ قد يكون مبللا للطين، هنا، سؤال كهذا: ما دور الجهد النقدي إزاء مد النشر الابداعي؟ لكن، أيضا، ما يزيد الطين بلة، فوق بلته، سؤال كهذا: هل هنالك أزمة نقد أم أزمة نقاد؟ بالنسبة لي، الآن وقبله ثم بعده، إنما السؤال الأول خاص، وإن كان مَثَليا، بينما السؤال الثاني عام، وإن كان حصريا، هنا. لذا سأسمح لنفسي، إذا سمحتَ لي، أن أجيب عن العام، أولا، ثم أجيب عن الخاص، ثانيا، حيث العام وسيلة والخاص غاية. في أي مجال، من مجالات الكتابة، ثمة مبدأ، وحيد؟، له تفاصيل، عديدة!، من دون ما أدنى شك. الأزمة، أية أزمة، إن حدثت، هنا أو هناك، فإنما تحدث من حيث التفاصيل لا من حيث المبدأ. عليه، أوليا، إن كانت هنالك أزمة نقدية، بدمج شقي السؤال العام، فهي أزمة نقاد لا أزمة نقد. لكنني، الحق أقول، لطالما تساءلت، مرارا وتكرارا، وأنا مندهش منذهل، معا، عما، أو فيما، إذا كانت عندنا "أزمة نقاد" حقا؟ ذلك لأنني، من جانبي، لا أعتقد بوجود أية أزمة كهذه. ففي النقد الأحدث، علاوة على النقد الحديث، لم يعد الناقد متابعا ماراثونيا، لهاثيا، لما ينشر في الصحف والمجلات والكراريس والكتب من أشعار وقصص وروايات ومسرحيات. الناقد عندي، ـ حسب منهجي، في الأقل، وهو منهج نصي، هذا مؤكد، ليس منهجا سياقيا ـ ، مَن

يـؤمن، حـتمـا، في أن (النقد بنيـوي بفعل جوهـر وبفعل مـصير) إستنـادا إلـى جـاك ديريدا. نـاقد كهذا، بنيوي الجوهـر والمصير بكلا فعليـهما المتضامنين هذين، صار، اليوم، يكتب الـنقد نـصا إبداعيا، بـالضـرورة، كما يكتب المبـدع نصه الإبداعي. بات، اليـوم، يفكر، دائما، بـ، أو لـ، أن يكون نصه النـاقد مـوازيـا للـنص المنقـود، في الإبـداع، بل متجاوزا له. إنه، اليوم، يريد، قولا وفعلا على السواء، أن يفوق المبـدع. يريد، همّاً واهتماما في الآن ذاته: بعينه/ بنفسه، أن يتفوق عليه. يريد، قلبا وقالبا ـ كما في القول المأثور؟، أن يصير ـ بحق ـ جـهدا نـقديـا. لذلـك، وصولا للسؤال الخـاص، حين يتـابع الجهد الـنقدي ذاك الـنشـر الابـداعـي، حيث دور الأول ومدّ الثـاني، يتابعه قـارئا، إستثنـائيا لا اعتياديا، لكنه، بين حين وآخر، ينتقـي جزيئا منه كاتبا. بهذا الإنتقـاء، الحـيني، يحـاول جهد كهذا، نقدي، أن يخلق من الجـزيء المنتقى ـ هذا ـ نصه: المبدع/ المتجـاوز/ الفـائق/ المتفوق/ الفذ. إذن، في المحصلـة، إزاء مـد النشـر الابداعي، الذي يـزعم أصحابه أننـا متأزمون حيـاله في العـراق، هـذا هـو دور الجهـد الـنقدي. أو لأقلْ، حيث علمية أكبر، هـذا هو (تصـور الـوعـي النقـدي) بتعبير جـوليـا كريستيفا. من ثم، إستنتاجا ملخصا بكلمات ثلاث فقط، هـذا هو النـاقد. لا أزعم انـي ناقد كهذا، له جهد ذو دور، بل أدعي، بقدرٍ مـا، أنني أحاول، مدققا ـ على طول ـ في أدواتي، أن اكـونه. لـست "مـصححـا" لغـويـا، أو "مشـرفـا" بتهذيب أكبر، لألاحق الأخطاء الـنحوية والإملائيـة للمبدع ـ أي مبدع ـ في نصـوصه. ولا محـررا ثقـافيـا، كـذلك، لأفـرز الـصالح عن الطـالح من هذه الـنصوص. كما أنني، فضلا عن ذينك، لست مقصا رقابيا، لا حكوميـا ولا شعبيـا، أوالي هـذه النص، لأنه مادح، وأعارض النص ذاك، بأنه قادح، البتة. أنـا نـاقـد، بشـرط أن، أنـطلق من الـنص، كل نـص، لأعـود إلـيه، وحـده، بـتحـليل حـر، أو بحرية تحليلية، فلا يؤثر علي أي مؤثر، يذكر، ممـا هو خـارج نطاقه. لا نصٌّ جيدا عنـدي، نعم، ولا نـصٌّ رديئـا لـدي. بل، أشـدد، حتـى (إذا قـبلـت أن أحكم علـى نـص مـا حـسب اللـذة، فلا يمكنني أن أنسـاق إلى القول: هذا نص جيد وذاك رديء) بعبارة رولاند بارت. كل نـص، قبـالـتي، إنمـا يحمل، لا بـدّ له من ذلـك، خـصـوصـيته وفـاعليته وأدبيته، كلها مجتمعة، أي يحمل ثراءه النصي. في الشعر، مـثلا وخصـوصـا، سيّان، أمـامي، إن كـانت القصـيدة هـذه قصـيدة شـعريـة خالـصة أو قصيدة نثرية بحتة أو قـصيدة شعر مختلط بنثر أو قصيدة نثر مطعم بشعر. وسيّان، أيضـا، إن كانت قصيدة أبياتية أم تشطيرية أم سطرية. كذلك ليس لي شأن، أي شان، إن كانت القصيدة، التي أشـتغل عليـها، لأكبر شـاعـر أم لأصغـر شـاعـر. ولا شـأن لي، تـأكيدا، إن كـانت أقدم معلقـة علـى جـدران الكعبة أم أجْدد منمقـة في نشرة مدرسية. ما يـعنيـني، كل الـذي أنـا مـعني به، هـو ذلك الثـراء، الخـصوصي/ الفاعلي/ الأدبي، الذي يحمله النص، أي نص، سيما الشعري.

● ***يقـول الفيلسـوف جـاك دريـدا: النص سـرداب مظلم يفتح علـى منـافذ من نـاحيـة وهـو غـامـض ومعتـم من نـاحيـة أخـرى. سؤالـي يتـركـز علـى ضـرورة تنـاول هـذه الأطـروحـة من النـاحيـة الابستمولـوجيـة بتـركيـز الجهود علـى نـوعيـة الشـروط التـي ينبغي أن تتوفر للقيام بقراءة صحيحة منهجيا وابستمولوجيا تسمح بتفكيك***

النص وتقويضه، تخرجه من " صمته " وتقوض أمنه المعرفي وسلطته، أي تدفعه الى قول مالم "يتعود " قوله. هنا تنطرح علينا إشكالية أخرى تتعلق بالقراءة ونوعيتها، وهل هي قراءة " بريئة " تعتمد " لجم" تناقضات النص؟ أم أنها قراءة تسعى لتفجير " الاختلاف " الكامن في صلب النص وإبراز مستوياته المتعددة مما يسمح بخلق فضاء رحب للتحاور يدفع العملية الإبداعية على المستوى المعرفي الى ذرى أعلى وبالتالي تجاوز " ثقافة " الواحد الذي ينفي التعدد والتمايز والاختلاف ويمجد الانسجام والتطابق وخلق مناطق أمنة تضمن له "ضبط الأمور"؟

– كنت، في جوابي السابق، قد استندت إلى (جاك دريدا). وها أنت الآن، في منطوق سؤالك الحالي، تستشهد به. هذا يشجعني، هنا في الأقل، لأن "أغوص" فيه. إنه من أهم مرجعياتي الفرنسية، بل "الأجنبية" عموما، سيما مؤلفه (الكتابة والاختلاف). لطالما استندت إليه، مرجعيا، في نقديتي. لذلك يُتَقوّل عنها، دائما، بأنها "تغرد خارج السرب". بيد أن (وليم راي)، مثلا، يجعلني، دائما كذلك، لا أعبأ بتقول كهذا. فهو يرى أن الكثير من قراء دريدا، بمن فيهم "إستثنائيون" ربما، يجدون أن كثافة نصوصه، سيما هدمها الألفاظ الحاسمة غير المألوفة، ذات ثمن باهظ، مكلف، لا يستطيعون دفعه. هكذا هو الحال، بالتأكيد، مع قوله إن (النص سرداب مظلم يفتح على منافذ من ناحية وهو غامض ومعتم من ناحية أخرى). لقد امتثلت لهذا القول، ولأمثاله، حيث كتابي الثاني (النسق النصي والنسق المتني ـ في الحركتين المتضافرتين للقصيدة "الانبناء/ الانهدام"). هنالك، في ذلكم الكتاب الصادر خلال العام الماضي، أجزت لنقديتي، منهجيا ومعرفيا، أن تطور استنتاجا قوليا بأن "لكل قصيدة إيقاعها الذي تصنعه المهيمنة سواء على المستوى الدلالي أو الصوتي أو التركيبي". مفاد ذاك التطوير، الذي رمتُه آنذاك، هو اعتقادٌ في أن لقصيدة النثر ـ حيث هي منصوص شعري ـ إيقاعا داخليا "إحساسيا، وإدراكيا،" ذا مهيمنة واحدة (صانعة) على مستويات ثلاثة "دلالي/ صوتي/ تركيبي" معا. هذي المَعْيَوِيّة، الدلالية/ الصوتية/ التركيبية، تعني، مما تعنيه، أن كل مستوى من تلكم المستويات ـ الثلاثة ـ إنما هو: مؤدٍّ منه ومؤدّى إليه ـ سواء بسواء ـ في جلّ نصوص هذه القصيدة. ثمة جلاءات فعلية لهذا المعنى، المعْيوي، لعلها تفاصيلية، بدرجات متفاوتة، حاول الكتاب، ذاك، أن يقدمها. لقد اشتغل، لتركيز هذا التقديم، على نصوص، مثَلية لا حصرية، تبدو فيها مَعْيَوِيّة (الدلالة/ الصوت/ التركيب) عُقْدَوِيّة ـ بتوترية خطاباتها الشعرية ـ حتما. تلك النصوص، هناك، تم اختيارها، إشتغاليا، لكونها ملتبسة، وعرة وشائكة، لغويا في الأقل وشكليا في الأكثر. لذا بدت الجلاءات الفعلية، عليها، صعبة، عسيرة، كونها امتثلت لتأكيد جاك دريدا، خصوصا، أن هنالك إمكانية، دائما، لأن نجد في النص المدروس، عينه، ما يدفع، بالضرورة، نحو استنطاقه، تكليمه، وجعله، حتما، يتفكك بنفسه. هكذا قلت، أظنني، بـ ضرورة الامتثال لطروحات دريدا ـ سيما تأكيده هذا ـ من الناحيتين المنهجية والمعرفية. هذه الضرورة، وأنا معك، تحتاج، إذن، لأن يركز الجهد النقدي "نوعية الشروط التي ينبغي أن

تتوفر للقيام بقراءة صحيحة، منهجيا ومعرفيا، تسمح بتفكيك النص، وتقويضه، لتخرجه من صمته، وتقوض أمنه وسلطته، حين تدفعه إلى قول ما لم يعتد قوله". وهذا التركيز، نسبيا في الأقل، هو، كما أزعم، ما حاولت، وأحاول، أن أقوم به. أي، توضيحا، أن أستنطق النص، كل نص، وأُنطقه، من ثم، عبر إعادة قراءته بعيدا عن سلطة الناص، مبدعه، بحيث ليس من سلطة على هذه القراءة سوى سلطة التلقي. قراءة كهذه، في ما هو متعلق بـ"نوعيتها"، ليست "بريئة تعتمد لجم التناقضات". بل هي، بحسبي كما بحسبك، تلك التي "تسعى لتفجير الاختلاف الكامن في صلب النص وإبراز مستوياته المتعددة ما يسمح بخلق فضاء رحب للتحاور يدفع العملية الابداعية إلى ذرى أعلى". وأيضا، على الصعيدين المنهجي والمعرفي، ثمة "تجاوز ثقافة الواحد الذي ينفي التعدد والتمايز والاختلاف ويمجد الانسجام والتطابق وخلق مناطق آمنة تضمن له ضبط الأمور". القراءة الأخيرة، دون الأولى، إنما تستند للمنهجية النصية (المناوئة) للمنهجية السياقية. من هنا، خصوصا، يقال إن كتابات النقاد النصيين، على قلتهم، تثير اعتراضات من "أقرانهم" السياقيين، كثيرين، في الأغلب. ثمة، أولا، إعتراضاتهم، الغايوية لا الوسيلوية، على المنهج واللغة والأسلوب والتحليل. وثمة، ثانيا، إعتراضاتهم، المماثلة لتلك الاعتراضات، حتى على المصطلح، النقدي، الذي، أو إذا، لم يكونوا، أولاء السياقيون، قد سمعوا به. بل ثمة، ثالثا، إعتراضاتهم، ذاتها، على كل شيء ـ نعم ـ وأيّ شيء. الناقد النصي، من جهته، عندما يكتب عن قصيدة مثلا، مهما كانت، يكون، بدءا، قد صمم على إبداعِ نص، نقدي، لا ينتابه أيُّ إحساس بأية عقدة دونية قبالة هذه القصيدة. غير أن "قرينه" السياقي، المعترض ـ مبدئيا ـ عليه، لا يروق له تصميم كهذا. إنه، دائما دائما، يكتب عن الشاعر لا عن قصيدته. ذلك، تعليلا، لأنه "يشتبك" مع القصيدة واقعا تحت تأثير شاعرها عليه. إذ أن النقد السياقي، على النقيض من "قرينه" النصي، لا يضع ما هو "خارج قصيدة"، = سياقها؟!، جانبا. هكذا هو، في عمومه، ينسى القصيدة، إبداعا، ويركز على شاعرها، إنسانا، فقط. كأنه، في النسيان والتركيز هذين، لا يعي أن هذا الشاعر، الإنساني، هو أول المسميات الخارجة عن قصيدته، الإبداعية، بالضرورة. أي أن المنهجية السياقية خارجية، تقليدية، أصحابها، غالبا وربما دائما، يكتبون نقدا عن المبدع لا عن نصه. أما المنهجية النصية فداخلية، تجديدية، تنطلق إلى فضاء التعامل مع النص دون الاكتراث بكاتبه. أزعم، مجرد زعم!، أنني أحد دعاتها. ففي الدرس النقدي الأحدث، الذي أحترفه منذ منتصف التسعينات، ثمة ما هو من أهم التعاليم الرَأيوية. ذاك، تعليم رَأيوي كهذا، أنه ليس هنالك ناص ناجح وثان فاشل. أو، إن شئت الدقة، لم يعد هنالك نص جيد وآخر رديء. فوفق نظرية هذا الدرس، التي أؤمن بها، كل نص، أي نص، يحمل ثيمته وخصوصيته وثراءه. أما الجودة والرداءة، أو النجاحية والفشلية، فقد صارتا، عندي في الأقل، من "كلاسيكيات" النقد القديم. بمعنى، أوضِّح، أن الناص، أي ناص، لا يعنيني، إطلاقا، كما يعنيني نصه. الأكثر، من هذا، انْ لا فرق عندي، في العملية النقدية، بين نصٍّ صاحبه كبير، كـ"مالئ الدنيا وشاغل الناس"، وبين آخرَ صاحبُه صغير، ما زال في أول الطريق،

بتاتا. هذا اللا تفريق، الذي أقول به هنا، متأت، في المقام الأول، من أنني بنيوي الاشتغال. حيث البنية، أية بنية، ليست شكلا ومضمونا، كما قسم التقليديون السياقيون مكوناتها، في اشتغالي البنيوي. بل إنها، فيه، تجاوز للمضمون بالشكل، للجزئيات بالعلائقيات، كما عند ترنس هوكز، مثلا، وهكذا هي لدى التجديديين النصيين.

● ***الخطاب الثقافي الراهن، في بعض تنويعاته تحديدا، يعيش حالة من الرتابة والنمطية. وهو منذ فترة طويلة حبيس موضوعات متداولة ورهين أحداث معينة تمجد البطل الوهم أو يخاطب حالة اللاوعي وبعضه يمجد السلفية والطائفية ويستخدم اصطلاحات متأنقة ومختارة، يخاطب بها حالة اللاوعي (أو قل ما قبل الوعي) عند الجمهور، يمارس وظيفته الإيديولوجية في ظروف الأزمة وهي خلق حالة من اللاوعي بتلك المشكلات مما يحرف القضايا الثقافية عن حقلها الصحيح، كمحاولة لتهميش الجمهور ثقافيا، وكجزء من محاولة إعادة إنتاج سيطرته الإيديولوجية المتسمة بحالة متفجرة دوما.***

السؤال هو: كيف السبيل الى خطاب جديد يتجاوز اللحظة الراهنة؟ وما هي شروط وإمكانيات إنتاج خطاب ثقافي يكافح حالة الرتابة والانغلاق على الذات ويخلق مساحة رحبة " لتفجير " الطاقات الإبداعية وازدهارها في ظل التنوع والتمايز؟ وبنظركم ما هي القوى الاجتماعية القادرة حقا على صياغة مشروع ثقافي بديل؟

– حسنا صنعتَ، وأنت تنتقد "الخطاب الثقافي الراهن"، حين قلتَ " في بعض تنويعاته تحديدا". أنا أؤيدك، بشرط "البعضية" هذه، في أن خطابا كهذا، ثقافيا راهنا، بات "يعيش حالة من الرتابة والنمطية". هكذا هو، فعلا، لـ"فترة طويلة". أظنها، عمريا، قرابة خمسين عاما. لا أريد الخوض في السياسة البحتة، هنا، بقدر ما أن مرادي توضيحٌ، فقط، لهذه الأعوام الخمسين. لقد ابتدأت منذ "خسارة اليسار" و"جسارة اليمين"، معا، إثر الثامن من شباط (فبراير) 1963. وبصرف النظر عن تذبذب "الخسارة اليسارية"، إلى ما قبيل "الضربة القاضية" عند نهاية السبعينات، أرى أن "الجسارة اليمينية"، سيما جناحها "الراديكالي"، قد تكرست منذ السابع عشر من تموز (يوليو) 1967. هذا التكرس، الذي سيستمر لأكثر من ثلاثة عقود، هو، في الدرجة الأولى، ما جعل "الخطابات ـ العراقية ـ الراهنة" رتيبة ونمطية. إنطبق ذلك، شيئا فشيئا، على "الخطاب الثقافي الراهن". إذ صار "حبيس موضوعات متداولة"، نعم، ثم صار "رهين أحداث معينة". كلتا الصيرورتين، هاتين، أدتا، به، لأن يمجد "البطل الوهم"، أي ((اللا بطل))، وأن يؤبد "حالة اللا وعي"، أو "ما قبل الوعي"، عند الجمهور، جُلّه، لتهميشه. لست واثقا، حتى الآن، إنْ كان، خلال التمجيد والتأبيد ذينك، قد استخدم "اصطلاحات متأنقة ومختارة". لكني متأكد، تماما، من أنه، بحكم "سلطويته"، ظل "يمارس وظيفته الآيديولوجية في ظروف الأزمة" لـ"يحرف القضايا الثقافية عن حقلها الصحيح". حتى "السلفية والطائفية"، التي أشرتهما ـ عليه ـ أنت أيضا،

كانتا، كلتاهما، مما مجدها، مصرا ومترصدا، من الوسائل الخطيرة. لكنهما صارتا عنده، بإصرار وترصد كذلك، من الغايات الأخطر، هذه المرة، وهو يمجدهما، كلتيهما، "كجزء من محاولة إعادة إنتاج سيطرته الآيديولوجية المتسمة بحالة متفجرة دوما"، طيلة سبعة أعوام فائتة، منذ ما بعد التاسع من نيسان (أبريل) 2003. اليوم، ونحن في بدايات العام 2011، هل من سبيل نحو "خطاب جديد متجاوز للحظة الراهنة"؟ لدى (ميشيل فوكو)، خصوصا، يشمل الخطاب كل إنتاج ذهني له منطقه الخاص وارتباطاته السياقية. إن آمنا بشمول كهذا للخطاب، أي خطاب، أمكننا التجاوب مع هذا السؤال بـ نعم. ثمة (سبيل) إذن، صوب "خطاب متجاوز"، لكن "كيف"؟ بحسب فوكو، أيضا، الخطاب (ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فردية، يعبر عنها أو يحمل معناها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرعا معرفيا ما). ماذا لو أن هذه الكينونة له، دون الاعتبار بـ"قد" هنا، غير انفصالية (مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما) إنما اتصالية (مؤسسة وفترة زمنية وفرع معرفي ما)؟ الفرع المعرفي الـ"ما"، أولا عندي، يمثله النقد. أستطيع القول، بثقة، إن نقدنا، في العراق، ذو منهجيتين رئيسيتين. الأولى تقليدية، سياقية، والثانية تجديدية، نصية، حيث كلتاهما متأثلتان. يجب، في رأيي، أن نكون مع ثانيتهما ضد أولاهما. حينئذ ثمة الفترة الزمنية، ثانيا، حيث المنهجية التجديدية، النصية، دون المنهجية التقليدية، السياقية، صارت خلال العقدين الأخيرين، التسعيني وما بعده، هي الأهم. جيل النقاد الجدد، من التسعينيين ومن بعدهم، هو المعول عليه، أكثر مما على أجيال سابقة له، بأن ينتج خطابا ثقافيا "يكافح حالة الرتابة والانغلاق على الذات". فنقاد هذا الجيل، حتى الآن، أغلبيتهم، تقريبا، من أصحاب المنهجية التجديدية، النصية، في النقد. وهذه الأغلبية، ملموسة لا محسوسة، تؤهل جيلهم، حتما، لأن يعول عليه في إنتاج "خطاب جديد يتجاوز اللحظة الراهنة". بيد أن هذا التعويل، على الجيل النقدي الجديد، يحتاج إلى المؤسسة، ثالثا، كي يتم الانتاج. أعتقد أن (الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق)، إستنادا إلى يساريته/ أقلّها التأسيسية، خير ممثل لمؤسسة كهذه. بدليل، مصداقا لاعتقادي هذا، أنه استحدث (رابطة النقاد العراقيين). لكني، إستدراكا، لن أكون منحازا، لمن هم في عمري من النقاد، حين أقول إن استحداثها، أواخر تموز (يوليو) 2010، قد انبثقت فكرته من عقول نقاد جدد، "شباب"؟، رأوا أن الجلسات الإبداعية للاتحاد، بكافة (هيكلياته)، إنما تحتاج إلى (تهذيب) و(تشذيب)، متساوقين، سيما في ما هو متعلق بالمداخلات، النقدية؟!، التي تشهدها جلسات كهذه. هذا يعني، مما يعنيه، أن الرابطة، هذه، التي انضمت (هيكليتها) إلى الاتحاد، أخيرا، سوف تكون مشرفة ـ بالضرورة ـ على جميع (هيكلياته) السبع، أمانة الشؤون الثقافية/ نادي الشعر/ نادي القصة العراقية/ منتدى نازك الملاكة/ ملتقى الخميس الابداعي/ نادي السينما/ نادي الترجمة، من حيث المفاصل المتعلقة بحركتنا النقدية، الأكاديمية والأدبية، التي تشهدها طيلة أيام الأسبوع الواحد تقريبا. فضلاً عن أنها، وبالضرورة أيضا، ستقوم بالتعاون مع كل من المجلس المركزي والمكتب التنفيذي في الاتحاد لرسم الخريطة

النقدية للمهرجانات الإبداعية، في بغداد والمحافظات، من خلال وضع المحاور الجادة لها، وترشيح الأسماء المهمة للمحاور هذه، لكي تكون مهرجانات إبداعنا أكثر جدية ورصانة وعلمية. كذلك هي، بالتأكيد، سوف تواكب الحركة الأدبية، الشعرية والقصصية والروائية، منهجيا واصطلاحيا ومفهوميا. عليه، وفقا لهذا المعنى، يمكن "إنتاج خطاب ثقافي يخلق مساحة رحبة لتفجير الطاقات الابداعية وازدهارها في ظل التنوع والتمايز". من ثم، في خطوة لاحقة، يمكننا اعتبار هذا الانتاج، مبدئيا على الأقل، بمثابة "صياغة مشروع ثقافي بديل". لكني، أنا شخصيا، لا أحبذ لـ(إتحاد الأدباء)، رغم انشدادي إليه، أن ينفرد بصياغة كهذه. بل أنني، علاوة على ذلك، مع إشراك حتى (وزارة الثقافة)، وإنْ هي (سلطة رسمية)، في الصياغة هذه. سوى أن هنالك عائقا قبالة إشراكها، ولو افتراضا، من طرف مثقفين، كثر؟، يتحفظون عليها، مبدئيا أو تفاصيليا، لأسباب مختلفة. أما "القوى الاجتماعية"، التي سألتني عن (ماهيتها) في هذا الصدد، فأظن أن "القادرة حقا" منها، لإشراكها في "صياغة مشروع ثقافي بديل"، بعض (منظمات المجتمع المدني). إذ أن هذه المنظمات مجتمعية، وإنْ ليس بالمفهوم الدقيق لـ(السوسيولوجيا)، على وجه أعم. لذلك قلت (بعض)، هنا، من حيث أن بعضها، سيما في العاصمة بغداد، يغلّب وجهة الثقافة على وجهات غيرها. وفي تقديري، النقدي لا الشخصي، أن (جمعية الثقافة للجميع)، التي يرأسها د. عبد جاسم الساعدي، أبرز هذا البعض، من (منظمات المجتمع المدني)، في ما هو متعلق بالقدرة الحقة لـ"صياغة مشروع ثقافي بديل".

● إشكالية المفاهيم وضرورة ضبطها متطلب ابستمولوجي في مواجهة الفوضى المنهجية التي تضرب أطنابها في مختلف فروع المعرفة في بلداننا. ومن بين ذلك الاضطراب المفاهيمي هناك مفهوم " المثقف " الذي يحتاج الى تدقيق وضبط وصياغة جديدة يتجاوز تلك التعريفات التي تسطحه الى ذلك المثالي، الحالم الهامشي الذي يعيش خارج المجتمع، أو نظرة السلط المسيطرة التي تنظر الى " المثقف " كونه يمارس دور الموظف الذي يمجد السلطة ويسهم، في حقله، في إعادة إنتاج سيطرتها، انه " موظف " الثقافة أو تقني المعرفة حسب سارتر. هل من ملاحظات تسمح بتدقيق مفهوم " المثقف " أولا، وثانيا في ظل سيادة القمع والملاحقة وقهر الديمقراطية، وتنمية التبعية والتخلف التي تطول بلداننا هل يمكن لمثقف حقيقي متسائل، ناقد وعضوي معرفيا (على حد تعبير غرامشي) أن يتواجد دون أن يضع في حسبانه حمل نعشه معه، إذ يمكن في كل لحظة أن تطوله سلطة القمع أو سلطة الميليشيات المنفلتة وتغيبه فكريا أو جسديا؟

– لا تصدقني، أبدا أبدا، حين أقول لك، أو لسواك، إني أتوفر على مفهوم قار، ثابت: محدد/ معين، للمثقف. فأنا، كما غيري من النقاد، جزء من "إشكالية المفاهيم". لكنني، في المقابل، من الداعين إلى "ضرورة ضبطها"، أي "المفاهيم"، على أساس أن هذا الضبط "متطلب" نقدي.. منهجيا ومعرفيا. لهذا أنا معك، هنا، في أن مفهوم "المثقف"،

أنّى اضطرب، بحاجة إلى ضبط، تمحيصي وتدقيقي، نتجاوز به "التعريفات" المسطّحة للمثقف. نعم، أولا، قد يكون من المثقفين ثمة "المثالي الحالم الهامشي الذي يعيش خارج المجتمع". ونعم، ثانيا، قد يكون منهم ثمة "الموظف الذي يمجد السلطة ويسهم ضمن حقله في إعادة إنتاج سيطرتها". لكنْ لا هذه الكينونة ولا تلك، للمثقف، هي كينونة (المثقف) مفهوميا. فكينونته هذه، المفهومية، متجسدة، حاصلا وتحصيلا، في تلكم (المنظومة القيمية) الموسومة من صبري حافظ بـ (القاعدة الاجتماعية التي يجيء منها). من يظل متجسدا فيها، حتى "انقطاع النفس"، إنما هو ذلك "المثقف الحقيقي المتسائل". ولا بأس، عليّ، أن أماهيك، باقتناع، في ما هو متعلق بـ (المثقف) حسب (أنطونيو غرامشي). فهو، إستثنائي، من يؤمِّن توحيد الأجهزة الأمنية والتشريعية والتنفيذية والآيديولوجية للدولة. من هنا، بهذه الهوية له، يعد عضويا. إذ أنه، حتميا، يشكل "الاسمنت العضوي" الرابط ما بين البنية الاجتماعية والبنية الفوقية متيحا تكوين "الكتلة التاريخية". ولهذا، طبقا لأحد تأسيسات غرامشي ذاته، ثمة "الهيمنة على الثقافة كوسيلة للابقاء على الحكم في المجتمع الرأسمالي". غير أن هيمنة كهذه، وسيلوية، إنما تتأتّى، لمن يرومها، عن طريق ("المثقف" التابع) الذي لا "ثقافة" له سوى تحت "ظل سيادة القمع والملاحقة وقهر الديمقراطية وتنمية التبعية والتخلف". أي، هو، من تجرد عن (القاعدة الاجتماعية التي جاء منها)). فلم يعد معبرا، نتيجة لهذا التجرد، عما يُفوْهمها (رايموند وليامز) بـ "بنية المشاعر"، وهي جمعية، إذا افترضنا، تنازلا، أنه كان قبل ذلك، في يوم ما، قد عبر عنها. لذا، سوف، لا يكون أمام (المثقف ألفهومي) سوى خيارين (مرَّين). أحدهما مرٌّ ماديا، بالملموس، وآخرهما مرٌّ معنويا، بالمحسوس، !!. فإما "أن يتواجد"، حيث مهمته (تفكيك التصورات الاختزالية السائدة التي تحد من إمكانيات التفكير الإنساني) بعبارة إدوارد سعيد، لكنْ عليه "أن يضع في حسبانه حمل نعشه معه"، ليس أقل من ذلك، لأنه "يمكن في كل لحظة أن تطوله سلطة القمع وتغيبه جسديا". وإما، تصريحيا أو تلميحيا، أن يتوارى، فلا يعود "مزعجا للوضع الراهن" ولا صوتا للحقيقة المواجِهة، ما يعني "تغيبه فكريا". ربما سيتصور البعض، ممن سيقرأ هذا الحوار، أني أبالغ في صدد هذين الخيارين (المرين). لا، أنفي بحسم، لست مبالغا. فأنا، تعلقا بأولهما، لم أقصد أن كل من "يتواجد" معرض للتغييب "جسديا"، على يد "سلطة القمع"، بل قصدت ثبوتية (التغييب الجسدي)، أمرا واقعا، وإنْ كان (آخر العلاج). ولا أخفيك سرا، هنا، أنني مؤمن، دوما، بأن هنالك ("مثقفين" تابعين)، دعك عن كمهم ونوعهم، يتحملون مسؤوليات كبرى، بلْه عظمى، عما تصل إليه "سلطة القمع"، وما يماثلها أيضا، من "تغييبات جسدية" لـ (مثقفين مفهوميين). فهم يسوّغون لها، بانهياراتهم وترديداتهم وهواناتهم، ما تقوم به ضد هؤلاء الأخيرين، من (المثقفين المفهوميين)، ويحرضونها على "إدمانه". ولعل أشرس أولاء المسوغين والمحرضين، من ("المثقفين" التابعين)، مَن تعرضوا منذ بدايات "ثقافاتهم" لاضطهادات "قيدية"، توقيفا أو اعتقالا أو سجنا، ثم "تابوا"، ترغيبا أم ترهيبا، ما ولّد لديهم عقدا بالدونية إزاء الصامدين بوجه الانهيارات والترديات والهوانات. لكنني، تعلقا بثانيهما، أقصد

فعلا أن كل من (يتوارى) معرض للتغيب "فكريا"، على يديه هو!، كما (التغيب الفكري) للأكاديميين "الإطروحويين". إذ أن ثبوتيته، في خلدي، تتجلى، للوهلة الأولى ربما، حين نتساءل عنهم منهجيا ومعرفيا. هل تتنازل أكاديمياتنا المعرفية عن منهجها في البحث النقدي، وهو المنهج المتمسك بطريقة الإطروحات، فتنفتح على المعرفيات الحداثية الجديدة؟ أغلب الأكاديميين المعرفيين، كونهم جامعيين "بحتيين"، نقاد سياقيون. هؤلاء، مجملهم، لن يتنازلوا عن إطروحاتهم، "الماجستيرية" و"الدكتوراتية"، قبالة معرفياتنا الجديدة والحديثة. ولك، الأن وبعده، أن تتصور، معي، أنهم ينعتوننا، نحن المعرفيين الجدد، بأننا نحب الإثارة فقط! غير أننا، وعذرا للمعنيين، لسنا مطربين، ولا ممثلين، لنحب الإثارة. ليدعوها، أقول لهم، لأصحابها. ولْيأتوا، لكن بصفتهم متلقين محايدين، لأُجْمل لهم "وجهات نظرنا" المنعوتة منهم بأنها "تخالف النقد"! أنا مثلا، ليس حصرا، أرى أن على النقد، الحق، أن يفوق الأدب، الحق أيضا، ويتفوق عليه. لذلك، حتما، عندما أكتب نصا نقديا لأي نص أدبي، مهما كان، أكون، بدءا، قد صممت على إبداعِ نص نقدي، نَعَمْ إبداعه، لا ينتابه أيُّ إحساس بأية عقدة دونية قبالة هذا النص الأدبي. بيد أن التقليديين "السياقيين"، خصوصا، لا تروق لهم رؤيتي هذه. العجيب، كل العجب، أن هذي الرؤية، التي "تختلف عن رؤيات النقاد الآخرين" بحسبهم، ليست بغريبة عن وسطنا النقدي. فهي تلك المنادية، في العملية النقدية، بالنص فقط، دون ناصه، وبالتالي، حتما، هي تلك المنادية، في المقام الاول من هذه العملية، بـ (موت المؤلف) حسب (رولاند بارت). هذا ما يتعلق بأغلبهم، تقريبا، وهم، كما قلت قبل قليل، تقليديون سياقيون. أما بعضهم، وأولاء قلة قليلة جدا، فهم تجديديون نصيون. لكنهم، على الرغم من تجديديتهم النصية هذه، متقوقعون على أنفسهم، داخل الأسوار الجامعية، ومنعزلون عن وسطنا الأدبي. حتى أنني خلال الدورة الأخيرة لمهرجان المربد، الذي يقام سنويا في البصرة، وكنت عضوا في لجنته الثقافية، مشرفا على البحوث النقدية، حاولت زجهم في محاوره الدراسية، النقاشية، دون جدوى. لقد اتصلت بأهمهم، من جامعات مختلفة، لكي أكلفهم، بإسم اللجنة العليا، بكتابة بحوث نقدية للمهرجان، ضمن عدة محاور دراسية نقاشية، لكنهم، أكثرهم، إعتذروا عن الكتابة له، ومن ثم عن المشاركة فيه، بداعي أن لديهم التزامات وظيفية في جامعاتهم!!!

● ***إشكالية المثقف والسياسي والعلاقة بينهما. تشير التجربة الإبداعية في العالم العربي الى أن هناك خلافات عميقة حول هذه القضية حيث تطرح المثقف كنقيض للسياسي؟ كيف السبيل الى تحديد دقيق للعلاقة بين السياسي والثقافي (الفكري) بشكل عام بحيث نفهمهما في إطار إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة؟ تصنع السلطة السائدة " مثقفيها " وهناك المثقفون المبدعون المطاردون من طرف حراس ما يسمى بـ " الثقافة الوطنية ".***

– لطالما تمثلت، مرارا وتكرارا، وأنا أُسأل عن العلاقة بين المثقف والسياسي، إشكاليةً، بمقولة يسوع الناصري (ما للّه للّه وما للقيصر للقيصر). فقياسا عليها، عندي، ثمة مقولتي: ما للمثقف للمثقف وما للسياسي للسياسي. إنها تعني، لو تأملتها مليا، أن المثقف والسياسي، حيث المعرفي

(الإبستمولوجي) والعقائدي (الآيديولوجي)، هما (عملتان لبورصات عديدة) لا (وجهان لعملة وحيدة). أي أنهما غير متشابهين، أصلا، لكي يتغايرا، لاحقا، بحيث يبدو "المثقف كنقيض للسياسي" أو العكس. من ثم، إذا اقتنعتَ بتفسيري هذا، فإن إشارتك "إلى أن هناك خلافات عميقة حول هذه القضية"، معتمدا على "التجربة الابداعية في العالم العربي"، لن تلقى مني إلا تحفظا شديدا. لعل من أبسط مبررات هذا التحفظ الشديد، أو لعله أبسطها، هو، مقارَنِيًا، أن "المثقف" إستثنائي، إعجازي، بينما "السياسي" إعتيادي، إمكاني، والاستثنائية، الاعجازية، ليست "كنقيض" لـ الاعتيادية، الامكانية، بَعدياً، أو لاحقيا، بل (نقيضها)، وفي الأقل (نقيض) لها، قَبلياً، أو سابقيا، وشتان ما بين "المثقف كنقيض للسياسي" و (المثقف نقيض السياسي). ذا، إذن، ما أردته، كيفيا، بخصوصهما، علاقويا، وهو "السبيل إلى تحديد دقيق للعلاقة بين السياسي والثقافي بشكل عام". أما أن "نفهمهما في إطار إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة"، وفقا لحيثيتك، فهذا مراد آخر، غير ذاك، يستوجب الاستفهام عن ماهية "السلطة" هنا. أهي، ولْيبق الـ"إطار" ذاته، سلطة السياسة أم سلطة الثقافة؟ إنْ كانت الأولى، ولعلها الأرجح عندك، فأية سلطة سياسية هي؟ ذلك، تعليلا لتساؤلي الأخير، أن للدكتاتورية "سلطة سياسية" أحدية (صمدية) بينما للديمقراطية "سلطة سياسية" تعددية (توزعية). سهل، يسير، أن نفهم "السياسي" و"الثقافي" ضمن "إطار إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة" من ناحية كون "السلطة" دكتاتورية. حينها يمكن البحث، بدرجة ما، في (كيف: تصنع السلطة السائدة "مثقفيها" وهناك المثقفون المبدعون المطاردون من طرف حراس ما يسمى بـ"الثقافة الوطنية"؟). وحينها، أيضا، يمكن التحدث عن عملية تحول (س)، ما، من (مثقف مفهومي) إلى ("مثقف" تابع).. أو، بتعبير صبري حافظ، من (حرس للكلمة) إلى (كلب للحراسة). لكنْ صعب، عسير، أن نفهمهما ضمن الإطار عينه من ناحية أن "السلطة" ديمقراطية. عندنا، في العراق، بعد نيسان (أبريل)2003، حتى الآن، سلطة كهذه، على نحو ما، ذات تعددية (توزعية). إنها من حيث خصوصية المبدأ "سياسية"، صحيح، لكنها من حيث عمومية التفاصيل (تشريعية/ تنفيذية/ قضائية). فقط هذه الثلاث، دعك عن تفرعاتها، هي سلطات عديدة (جمعية)، لا "سلطة" وحيدة (فردية)، لكلٍّ منها (رئيس "ومشتقاته"). أنى لنا إذن، والحال هذا، أن نؤطر "إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة". هذه "إشكالية" بحد ذاتها، هنا، لكنها ("إشكالية" صغرى). إذ ثمة ("إشكالية" كبرى)، كذلك، إنْ كانت "السلطة" المقصودة في "العلاقة بين المثقف والسلطة" هي "سلطة الثقافة". ففي العراق، أيضا بعد نيسان (أبريل) 2003 حتى الآن، ثمة (سلطات) ثلاث لـ (ثقافة) واحدة. مؤخرا، على وجه التخصيص، تجلت بالملموس، فضلا عن كونها متجلية بالمحسوس، إثر (أيام الثقافة العراقية في القاهرة). لم أتابعها، تلك الـ (أيام)، سوى من على شاشة قناة (الحضارة) التابعة لوزارة الثقافة. ولا أدري، صراحة، إن كانت القناة، هذه، قد قدمت صورة حقيقية لأيام الوزارة في العاصمة المصرية! من جهتي، وأقولها بحيادية معقولة، لم أشعر، إطلاقا، وأنا أتابع فعالياتها، هناك، بأن ثمة ارتجالا و"خفة"،

كما قيل، قد وسما هذه الفعاليات. بيد أني، في المقابل، أحترم، رأيويا، من رأى عكس ذلك. هل هنالك إشكالية، إذن، في أن رأيي بفعاليات كهذه إيجابي ورأياً لسواي بها سلبي؟ لا أعتقد بذلك، بتاتا، سيما أن المعاملات الموضوعية والفنية هنا ـ للإشكالية المفترضة ـ نسبية غير مطلقة. لكنْ نعم، وأجزم، إن سؤالا كهذا (من يمثل ثقافة العراق في عواصم العرب والعالم) سؤال إشكالي بامتياز. إشكاليته، هذه، ليست متأتية من أنه صعب (= معقدا/ مركبا "كومبلكس")، لا، بل كامنة في "ديمقراطية الحاضر" بعد "دكتاتورية الماضي". فقبل التاسع من نيسان (أبريل)2003، عودا إلى بدء، كانت (السلطة السياسية) هي الممثل ـ "الشرعي والوحيد" ـ لـ (ثقافة العراق في عواصم العرب والعالم). كان ذلك التمثيل "منحصرا" في (وزارة الثقافة، والاعلام)، مع احتواء منها لـ (إتحاد الأدباء)، مركزا وفروعا، إذ يقال، بتواتر، إنه كان سلطويا أكثر من الوزارة نفسها. أي كانت لـ "ثقافتنا" سلطة واحدة، وحيدة، لا معارضة لها إلا "باطنية" من بعض مثقفي "الداخل" وهم قلة جدا. أما خلال السنوات السبع الأخيرة، 2003ـ2011، فصارت للثقافة هذه ثلاث سلطات: سلطة رسمية (وزارة الثقافة/ تحديدا) ـ سلطة مهنية (إتحاد الأدباء والكتاب/ خصوصا) ـ سلطة مجتمعية (جمعية الثقافة للجميع/ مثلا). كل سلطة، من هذه السلطات، صارت، أو راحت، تعتبر نفسها المسؤولة الوحيدة، لا مجرد "مسؤولة واحدة"، عما تعارفنا عليه بـ (رسم صورة العراق الثقافية في المحافل العربية والعالمية). ثم باتت، تبعا لهذه الصيرورة، تعتقد أنها (عادلة ومنصفة في اختيار الأسماء الموفدة لتمثيل العراق وثقافته) في محافل كهذه. لذا.. فهي، تطبيقا لاعتقادها هذا، لا تسمح لأي أحد، مهما علا شأنه، أن يساءلها عما، أو فيما، إذا كانت، عفويا أم قصديا، قد شاورت (جمهرة المثقفين، أفرادا ومنظمات)، قبل (هذا الاختيار)، لأنها ـ وبسلطة؟! ـ سلطة. من هنا، تعيينا، تتجلى إشكالية أي مثقف مع "سلطته" بصرف النظر عن كونها رسمية أو مهنية أو مجتمعية. فلا جدوى من الانتقاد، إنتقاد الوزارة أو الاتحاد أو الجمعية، وإن كان انتقادا ذا أعلى درجة من درجات القسوة. ولا كيفية للمثقفين، كلهم، في تخليص "سلطتهم" من ارتجالها حيث (الاعتماد على أشخاص بعينهم ليكونوا سفراءها الدائمين). هكذا، ودائما دائما، سيظل (تأبيد الأسماء في كل وفد عراقي مسافر) من طرف كل سلطة من سلطات "الثقافة العراقية".

● ***هناك الآن جيل من المبدعين، شعرا والأجناس الأخرى، خرج من رماد القيامات العديدة والحروب وصراعات الطوائف، يشق طريقه للإبداع بقوة محاولا التحليق بعيدا عن ارغامات المؤسسة وتوابعها التي حاصرت السؤال الإبداعي في مناطق الصمت وراح همها ينحصر في توزيع الوظائف ووضع أكاليل الغار على صدور المقلدين والعائدين بخشوع الى بيت " الأب "، وبالمقابل تشطب على كل مشتبه في طاعته. إن هذا الجيل يقدم صورة شعرية ونصوصا إبداعية مدهشة باهرة وباذخة الثراء والحس وتخترق كلماته مناطق الصمت وكثير من " المحرمات "، انه جيل يمتاز بوعي حقيقي بالقضايا والإشكاليات***

والأسئلة الحارقة التي تنشق بها الحداثة على ذاتها لتكسر حجر الوثوقية وثقافة السلطة السائدة. هل لك أن تحدثنا عن ابرز المعالم والسمات المميزة للجيل الجديد وهو يسير بقوة في مغامرته الإبداعية، بمختلف تلاوينها؟

– أعتقد أن المرحلة الحالية، الحاضرة، التي تشهدها حركة إبداعنا عموما، منذ العام2003، مرحلة ذهبية. لأنها تزامنت، ولا تزال كذلك، مع حقبة ملموسة من متن الحرية في المجال الثقافي. والنقد، على مختلف تنوعاته وتكيفاته، ملزم، إستنادا إلى مهمته، بأن يواكب هذه الحركة الابداعية، ذات المرحلة الذهبية، مواكبة فاعلة ومتفاعلة. أنا، من جهتي، أحاول، ما استطعت، أن أواكب مشاهدها الأدبية: الشعرية والقصصية الروائية، بخاصة، على مستويين نقديين. ثمة نقدي للشعر، أولا، حيث أعتمد المنهجية البنيوية الأخيرة (رولاند بارت/ مايكل ريفاتير/ جوناثان كلر). وثمة نقدي للقصة والرواية، ثانيا، حيث أعتمد النظرية السردية الحديثة (جيرار جينيت/ كلود بريمن/ جوليان غريماس). من خلال هذين الاعتمادين، النقديين، أمكنني استكناه "أبرز المعالم والسمات المميزة للجيل الجديد". ففي شعره، وهو المتجلي الأعظم له، ثمة ثلاث بنيات (اسلوبية/ شعرية/ لسانية)، أهم بنياته، متجادلة/ متضافرة. بهذه التجادلية/ التضافرية، تعليلا، ثمة بنيته الأولى، الاسلوبية، متأثلة في لغته، حصرا، أي في بنيته الثانية، اللسانية، التي تظهر بيانه، للعيان، حيث بنيته الثالثة، الشعرية، أخيرا. عليه، تعليل كهذا، يمكن القول إن هذه البنيات ـ الثلاث ـ متواترة في مجمل قصائده، العمودية والتفعيلية والنثرية، ممثلةً في ثلاثة من المظاهر "التنوعية/ الاختلافية" الأهم. ثمة، أولها، مظهر (التدويم)، صياغيا (تعبيريا)، من حيث البنية الاسلوبية. وثمة، ثانيها، مظهر (الانزياح)، كلاميا (تجاوزيا)، من حيث البنية الشعرية. وثمة، ثالثها، مظهر (التناص)، إشاريا (إمتصاصيا)، من حيث البنية اللسانية. وكنت في مهرجان المربد الشعري السادس، نيسان 2009/ البصرة، قد شاركت ببحث، عنوانه (رأي الشاعر ـ رؤية القصيدة)، عن العقدين الحياتي والفني للجيل التسعيني. هناك، آنذاك، خلصت إلى أن لا صحة، إطلاقا، لما يقال، مثلا، بأنه يوجد "ضباب تسعيني". ربما كان "الضباب" موجودا، نعم، عندما كان "التسعيني" تجريبيا. لكنْ، لاحقا، حل "صحو" عقب "الضباب" ذاك. حيث "نضوج" التسعيني، تاركا مرحلة التجريب، واضح في قصائده الأخيرة منذ العام 2005 تقريبا. بهذا الوضوح في النضج، عندهم أبْكرُ مما عند سابقيهم، يكون التسعينيون، مجملُهم، قد انفتحوا على المتلقي ـ اعتياديّه واستثنائيّه ـ إنفتاحا فذا. هذا الانفتاح الفذ، ذاته، هو، في المقام الأول، ما يحاول شعراء الجيل الأخير، من اللاحقين بالشعراء التسعينيين، أن يصلوا إليه، اليوم قبل الغد، كضرورة. من أهم علامات هذه الضرورة، لديهم، أنهم يكتبون قصيدتهم شعريا قبل كتابتها عموديا أو تفعيليا أو نثريا. ففيها، في القصيدة هذي، لا حدودَ، والحدود وهمية غالبا، لشعريتهم المتواترة في نصوصهم، جُلِّها، بصرف النظر عن عموديتها وتفعيليتها ونثريتها. هو ذا الأقصى الممكن للإنزياح، إذن، حيث شعرية الجيل الأخير (ما بعد التسعيني) في العراق. به أمْكَنَ لشعراء جيلٍ

كهذا، أخيرٍ، أن يستعيدوا الكثير، الكثير، مما فقدته قصائد العمود والتفعيلة والنثر، من شعرياتها، على يد شعراء الأجيال السابقة لجيلهم (الجوكر). هذه الاستعادة، الضرورية، ما كانت، أصلا، لتتأتّى لهم، وبهم، لولا أنهم، إنشغالا واشتغالا، إنما يكتبون نصوصهم، عمودية/ تفعيلية/ نثرية، و"عينهم" على (الشعرية) لا (التجنيسية). ذلك يعني، في المحصلة، أن كل واحد منهم، من أولاء الشعراء الأخيرين، قد تفهّم، ولا يزال، ما يريده الشعر. وفي كتابي الأول (زمن الحكي.. زمن القص/ تقنية الحوار في الرواية العراقية)، الذي صدر خلال العام الماضي، قلت إن نصنا القصصي، العراقي، أهم من جميع النصوص القصصية العربية، إجمالا،على الرغم من أنه وإياها وريث شرعي - واحد - للحكايات، الشعبية والخرافية، التي انتشرت في العالم الاسلامي، حيث العرب جزء منه، منذ حكايات ((أسفنديار)). تلكم الأهمية، التي قلت بها، علاماتها: نجاعة اللغة/ متانة البناء/ سلاسة الاسلوب. وهذه العلامات، الثلاث، تتجلى، وإن بدرجات متفاوتة، في مجمل النصوص القصصية للجيل الأخير. أيضا همَّني القول، في كتابي ذاته، بأن روايتنا، العراقية، سيما نماذجها الأخيرة، التي ظهرت ما بين العامين 2003 و2010، تتسيد جميع الروايات العربية، إجمالا كذلك، بما فيها الرواية المصرية. يتجلى ذلك التسيد، قبالتي، على مستوى التقنيات الأدائية، المجتمعة، التي تعد أهمها أربع تقنيات: تهيئة السرد/ مغايرة الراوي/ تعددية الصوت/ مركزة الحوار. هذه هي "أبرز المعالم والسمات المميزة للجيل الجديد"، بحسب رأيي ورؤيتي النقديين، مصداقا لتوصيفك، له، بأنه "يسير بقوة في مغامرته الابداعية بمختلف تلاوينها". وأنا معك، مبدئيا وتفاصيليا، في مجمل توصيفاتك لهذا الجيل. فهو، حقا، قد "خرج من رماد القيامات العديدة والحروب وصراعات الطوائف ليشق طريقه للابداع بقوة". وهو، حقا، إنما "يقدم نصوصا ابداعية مدهشة باهرة وباذخة الثراء والحس تخترق كلماتها مناطق الصمت وكثيرا من المحرمات". و، حقا، هو "يمتاز بوعي حقيقي بالقضايا والاشكاليات والأسئلة الحارقة التي تنشق بها الحداثة على ذاتها لتكسر حجر الوثوقية". لكنني لست معك، في المقابل، بشأن "إرغامات المؤسسة وتوابعها". فأنا أعتقد أن التجارب الابداعية الجديدة، في الشعر والقصة والرواية وغيرها، معتنى بها من المؤسسات الثقافية، الرسمية واللارسمية، في العراق. وزارة الثقافة، ممثلة في دائرة العلاقات الثقافية ودار الشؤون الثقافية العامة، معنية بالمسابقات والنشر. الاتحاد العام للأدباء والكتاب، ممثلا في نادي الشعر خصوصا، معني بالجلسات الاحتفائية. فضلا عن بعض منظمات المجتمع المدني، ذات التوجه الابداعي، سيما جمعية الثقافة للجميع. كلها، وأمثالها، تعتني بأية تجربة إبداعية جديدة. من ثم، بالضرورة، يأتي دور النقد. يُستأنس برأيه في ما هو متعلق بإطلاق مسابقة ما أو نشر كتاب لهذا الشاعر ولذاك القاص. كذلك يلبي أي تكليف رصين بكتابة مداخلة نقدية لمبدع، بعينه، تقرر هذه المؤسسة، أو تلك، أن تقيم له جلسة للاحتفاء بمنجزه الأخير. فضلا عن أنه، أي النقد، حاضر بقوة في الملتقيات والمهرجانات والمؤتمرات الابداعية لتقييم تجارب ابداعية جديدة معينة ولتقويمها أيضا.

أدب
و
فن

أديب ديمتري ... وداعا !

هيئة تحرير (الثقافة الجديدة)

في الخامس من شباط 2011 توقف عن الخفقان قلب المناضل والمفكر التنويري اليساري، **أديب ديمتري** عن عمر يناهز88 عاما، وذلك أثناء إجراء عملية جراحية في باريس. وبرحيله تطوى صفحة مهمة في تاريخ حركة اليسار المصري. فقد فقدت مصر، وكل الوطنيين والديمقراطيين وأنصار العدالة الاجتماعية في البلدان العربية واحداً من أصلب وأخلص المناضلين من اجل هذه الأهداف، فقد وهب أديب ديمتري حياته كلها لمعركة التنوير والحداثة والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، ومقاومة سياسات الاستبداد والاستسلام.

كان الفقيد ديمتري مناضلا يساريا صلبا، عرفته الأوساط السياسية والثقافية في مصر منذ عدة عقود، وأستاذا مدافعا عن تطوير التعليم وسياسيا وكاتبا في كل من (**الكاتب**) و (الطليعة) و(**اليسار العربي**).

انضم أديب منذ شبابه إلى صفوف اليسار المصري، وأعتقل أكثر من مرة في العهد الملكي (فقد اعتقلوه من عام 1948 حتى 21 فبراير 1950 ثم من منتصف مارس 1952 حتى 30 يوليو 1952)، وعهدي عبد الناصر والسادات. فبرغم تأييده للنهج الوطني لجمال عبد الناصر، ذهبت به معارضته الجريئة لمظاهر الاستبداد إلى سجن الواحات الرهيب. وفي عهد أنور السادات سُجن ديمتري مع المناضل أحمد نبيل الهلالي والمئات من نشطاء ومثقفي وعمال وفلاحي اليسار والديمقراطيين سنوات أخرى لمعارضته الانقلاب على النهج التحرّري والتقدّمي، ولإسهامه في إعادة تأسيس الحزب الشيوعي المصري.

وبعد خروجه من المعتقل في عهد أنور السادات غادر الى (باريس) للعلاج وذلك في عام 1978 وبطلب من رفاقه استقر في العاصمة الفرنسية ليسهم في إصدار مجلة (اليسار العربي) الشهرية مع ميشيل كامل ومحمود أمين العالم في أواخر السبعينيات.

كان أديب ديمتري مهموما بالشأن المصري والعربي، وقد أثرى المكتبة العربية بالعديد من الكتب والدراسات التي تركت علامة. ولم يتوقف الراحل عن العطاء من خلال مقالاته رغم تقدم السن والمرض. فقد انشغل بالبحث في ظاهرة الإيديولوجيات القومية والدينية في العديد من الحضارات. وقد نشر من هذا البحث في كتابه " **نفي العقل**" بجزئيه وفيه يقف أديب ديمتري، مرة أخرى أمام مسألة مهمة للغاية هي: اللاعقلانية في أشكالها المختلفة، التي تزحف على العالم متجسدة في ألوان متعددة: العنصرية، الفاشية، الظلامية

والرؤى الكوارثية. وفي "نفي العقل" لا يقارب أديب ديمتري قضايا فلسفية مجردة، ولا يغوص في تجريد تلفيقي، إنما يقارب أسئلة العقل ونفيه، من وجهة نظر التقدم الإنساني بعامة، وتقدم و انعتاق الإنسان في عالمنا العربي بخاصة. وهذا الكتاب يوحد بين مادة توثيقية شديدة الغنى والتنوع، ومنهج تحليلي متسق يبدأ بالمشخص ويتعامل مع العياني، كي يقدم في النهاية دراسةً جديرة بالقراءة و التأمل. إن ديمتري في " نفي العقل " يذكرنا بسفر (لوكاش) الشهير " **تحطيم العقل**" وما يشهد على فكر مضيء يتجدد بتمرد لا يشيخ.

وبالمقابل أسهم أديب ديمتري في السنوات الأخيرة في بحث آثار العولمة الرأسمالية على نضال الشعوب من أجل الديمقراطية والتقدّم الاجتماعي. وكان آخر ما نشره من مؤلفاته، كتابه الهام الموسوم: " ديكتاتورية رأس المال" الصادر عن دار المدى عام 2002، فقد كان سفرا فكريا عميقا خصصه لدراسة الآثار الكارثية للعولمة الرأسمالية وتجلياتها وللنضالات الشعبية من اجل الخبز والحرية ومن اجل الديمقراطية. وفوق كل ذلك كان أديب ديمتري مثقفا وطنيا بامتياز التزم منذ ستة عقود و أكثر، بأفكار العدالة والتقدم والتحرر الوطني، وبقي مخلصاً لما آمن به، على مسافة شاسعة عن أصحاب "الالتزام الموسمي". لهذا كان عدواً للاستبداد في ألوانه كلها، ومناضلاً مصرياً لا يساوم وشيوعياً لا يتنكر لماضيه.

لقد رأى أديب ديمتري في حركات الأجيال الشابة وأنشطة المعارضة الوطنية في مصر بارقة أمل، وكان يتتبع الأخبار يوميا عبر الشبكة العالمية للانترنت بعد أن تعلم استخدام الكومبيوتر وهو في سن الرابعة والثمانين. وكان يردّد حتى قبل وفاته: "**أريد أن أعيش حتى أرى نهاية الكارثة التي تمسك بخناق مصر** ".. وها هي أمنيته تتحقق.. فلم تذهب تضحيات جيل أديب ديمتري والأجيال التي تلته وهي تكافح ضد الاستسلام والاستبداد ومن اجل الخبز والحرية والكرامة والديمقراطية.. فها هي مصر وقبلها تونس تتحرران من أنظمة القمع... والقادمات أكثر.

لقد فقدنا برحيل أديب ديمتري مناضلاً صلباً ومفكراً ماركسياً وكذلك صديقاً وفياً للحزب الشيوعي العراقي والقوى الديمقراطية ومناصراً ثابتاً لنضال شعبنا العراقي طيلة سني الدكتاتورية، فقد كان يحضر، رغم عمره المتقدم جميع النشاطات التي يدعى لها، كما لم يكن يتخلف عن أية فعالية أو نشاط تضامني مع شعبنا.

و(**الثقافة الجديدة**) التي هزها من الأعماق رحيل المفكر التنويري الديمقراطي أديب ديمتري، تنتهز هذه الفرصة لتتقدم بخالص مشاعر العزاء مقرونة بصادق مشاعر التضامن لمن شاركته معاناة الاضطهاد في الوطن ومرارات حياة الهجرة والغربة، للسيدة الكريمة (إيزيس) زوجة الراحل الكبير، والى أبنائه وأحفاده وكل رفاقه وأصدقائه ومحبيه.

الذكر الطيب لأديب ديمتري..الرجل الذي ظل يمنح الناس، والكادحين منهم على وجه الخصوص، الأمل بانتصار قضية الإنسان رغم كل الصعوبات والتحديات !

قصة قصيرة

إبن الجدّة

سلام حربة

نشأت في احد الاحياء الشعبية الكبيرة في مدينة الحلة، الحي يربض على ضفة النهر وتستحم بيوته القديمة من نسائمه الرطبة ليل نهار..كان الحي قديما وتسند جدران بيوته الحائلة اللون بعضها بعضا ومعظمها موشوم بالرسوم القديمة والكتابة المسمارية، فقد بنيت من طابوق مدينة بابل الاثرية، فبدت من بعيد ظلالا هرمة متمايلة..اما ازقته فمتربة تعودنا ان نشم منها رائحة الارض الثملة ونتذوق طعم محنتنا الطرية منذ الاف السنين وخاصة في اوقات العصر حين ترش النساء التراب امام عتبات بيوتهن فيتطاير شذى المحبة والبراءة مع جفلة التراب الغافي وينفذان من الشبابيك الخشبية المطلة على الازقة ومن الابواب الواطئة فتمتلىء النفوس بالدعة والسكون..في وسط البيوت كانت هناك امرأة وحيدة تعيش في بيتها الكبير، من اقدم البيوت في الحي وهو كالقلب الذي يضخ لاطراف الحي دفقات الحب الراعشة ويقال بانه كان في سالف الازمان مقبرة للملوك وللاولياء والعلماء والصالحين والشعراء وارضه مباركة تضج بالاصوات المنسية في الساعات المتاخرة من الليل حتى ان ابي المتوفي قبل اكثر من اربعين عاما كان يقول ان عمر بيت الجدّة، وهذا ما كان الجميع يسميها، لا يعرف احد تاريخه وقد كان النواة الذي تشكل عليه حيّنا وزوج الجدة قد توفي في مطلع القرن الماضي اما عمرها فعصي على التخمين، ربما قد تجاوزت المئة بكثير ولكن قوامها ما زال منتصبا وعلى الرغم من بصرها الشحيح لكنها تفرزن وجوه ابناء المحلة جيدا وتتلمس طريقها دون تعثر وحين كنا نسألها عن عمرها..كانت تضحك بفم ادرد تغطيه بمريلتها وترد علينا..

–لا يجوز يا ابنائي ان تسألوا امرأة عن عمرها فأنا ما زلت اشعر بالشباب رغم هم

فقدان ابنائي في الحوادث والحروب ولكنها مشيئة اللّه وقد عوضني بكم..

لا ينكر احد سواء كان من حيّنا او من الاحياء الاخرى افضال الجدة عليه فقد وقفت على ولاداتنا جميعا والبستنا اسماءا مع اولى صرخاتنا ما زلنا نرفل بها فأنا اسمي سلام، هي من اختارته ورفضت اسم سفيان الذي اختاره ابي ووقفت امامه بحزم لتقول له كيف لا يكون اسمه سلاما والهدوء يتدثر في وجهه وفي انفاسه وفي رفة السلام في عينيه وكذا الحال بالنسبة لباقي اخوتي واخواتي ولمعظم ابناء المدينة.. في صبيحة احد الايام الشتائية القارصة البرد قبل ما يقرب من الخمسين عاما وكعادة الجدّة وهي ترش عتبة البيت والزقاق قبل ان تخرج الشمس من دفء خدرها، تقرأ الايات القرآنية وتبسمل باسماء اللّه الحسنى ان يحفظ خطوات اهل الحي وهي تدوس التراب اللدن صوب اعمالها ومدارسها وهمومها، تناهى الى سمعها الكليل بكاء طفل قريب من عتبة الباب..اصغت وهي تدير اذنها اليمنى وانحنت نحو مصدر الصوت، كان لا يبعد عنها الا بمقدار استغاثة طفل رضيع..حملته بكلتا يديها .. كان لا يبان منه وسط قماطه الابيض سوى وجه ابيض شاحب يشع باللوعة والبرد والجوع..قبلته بحرارة وقلّصت عينيها ناظرة في الزقاق عسى ان تعثر على اثر او رائحة ام ما تزال معلقة بقماط وليدها وانفاسه..كان الزقاق مقفرا يخدره السكون ،والظلام كالجفون الناعسة محشورا بين طابوق الجدران..دخلتْ به الى البيت وهي تشبعه دلالا وترويه بماء حنانها الذي شرب منه الجميع..وما ان مشطت الشمس ظفائرها على اسطح البيوت ورسمت ظلالها في قامات الرجال والنساء والاطفال الغادين والرائحين حتى طرقت الجدّة ابواب كل البيوت تسأل عن أم هذا الطفل الجميل ولم تكتف بحيّنا بل طرقت اسماع الاحياء المجاورة فكان الجواب واحدا ان لا احد يعرف عن اصله شيئا..تعهدت الجدّة برعايته وخرج من بيتها، بعد سنين ،طفلا يلعب معنا نحن اقرانه...كنا نسميه ابن الجدّة رغم انها اسمته (جميل)، كان هذا الامر يحزنه حتى انه غالبا ما يذهب الى الجدّة باكيا..

– ماما، لماذا يدعونني ابن الجدّة ولا يسمونني جميل..؟

تطلق ضحكة دافئة وهي تأخذه بين احضانها وتمطره قبلا في رأسه ووجهه ويديه..

– لا تهتم يا حبيبي..انهم يحبونك ولا ضير ان يسموك ابن الجدّة لانهم يحبونني، ثم لا تنسى بان لك اسمان ، جميل اسمك بين الناس وفي السجلات وانا اسميك (نعيم) لانك جعلت ايامي نعيما..

شبّ ابن الجدّة والاسم يلاحقه كظله والتصق بانفاسه وهو يجتاز عتبات الدراسة الابتدائية والثانوية ولم يستطع محوه حتى وهو متوارٍ عن الانظار في سنتي دراسة في المعهد الفني في بغداد ،وكان يشعر بعد تخرجه بان قلبه تتقطع اوتاره الماً حين يناديه احد المراجعين في دائرته بهذا الاسم..عجبا، لماذا يذوب اسم جميل في لعاب الافواه ويبقى على الالسن عنيدا ابن الجدّة..؟ هرب من الاسماء جميعا وابتدأ يعاقر وحدته منتشيا بان اعطى ظهره لكل الناس في مقهى على الجانب الصغير

للمدينة والمشيدة كوشم فارق منذ عشرات السنين على حافة النهر، لم تفلح كل محاولاتنا من تخفيف كؤوس عزلته المركزة بصودا دعابتنا وفكاهتنا ولهونا وتصفير بوصلته والعودة الينا كأبن الجدة الذي عرفناه وتربينا سوية وتطليق ابحاره كالنورس مع امواج نهر الحلة المسافرة نحو المجهول..تيبست افواهنا حرقة نحن المقربين اليه وتقطر حزننا لوعة حين لمحنا الاستاذ علوان في عصر احد الايام قبل بضعة سنين، والذي نسميه شيخ المقامرين في المدينة، بمظهره الجذاب واناقته المفرطة وطوله الفارع والذي لم ينحنِ لسياط الزمن رغم اقترابه من الستين وهو يختلي به مع صديقه طالب، الغريب والذي لا نعرف له اصلا ،والذي ظهر فجأة بصحبة علوان حين ذاع صيته كمقامر خسر كل ما يملك في دورة قمار واحدة حتى ان عائلته العريقة ذا الحسب والنسب ،والتي تفترش بيوتها معظم مناطق بغداد نزولا عند اقصى بقعة يابسة في البصرة ،تُلم صيتها وطأطأ رأسها خجلا بما ارتكبه اكبر ابناء شيخهم المبجل من طيش وحماقات وراهن على حاضرها بعد ان قايض كل مآثرها وبطولاتها واحلامها بتاج ملك داعر في لعبة بوكر خاسرة.. كان الثلاثة يتجاذبون اطراف الحديث والنشوة تجثم بأمان على ملامح ابن الجدة القلقة..تكررت لقاءاتهم وامتدت حتى ساعات متأخرة من الليل دون ان يعرف احد منا ماذا كانوا يلوكون في كلامهم؟ في احد الصباحات الرتيبة التقيت به وهو يخرج من بيت الجدة..كانت الجدة بسحنتها الشمعية وعظامها الظامرة وعيناها اللتان لا تريان الا ظله الباهت ترش خطواته بالماء وتلهج، ما دامت ترى سراب خياله، بالدعاء وبما تحفظ من سور القرآن ..سألتَه بعد ان نثرت بوجهه الابتسامات واجمل ورود تحايا الصباح..

– يبدو ان علاقتك هذه الايام وطيدة مع الاستاذ علوان..؟

لم يجب، طعن الوجوم الكامد بياض بشرته. قسّط لي ابتسامة ساخرة على دفعات.. تسارعت خطاه في الزقاق المترب واختفى من الزقاق ومن الحي كله ، كان يلتقي مع علوان بعيدا عن تنصت موجات النهر وعن فراسة نوارسه ويتسلل الى بيت الجدة بعد ان يحكم اشباح السكون في انصاف الليالي قبضتهم على الازقة وبعد ان يرتفع الشخير منافسا الديكة اليقظة في اعلانها عن صباح جديد..

افاد علوان، الموقوف في مديرية الجرائم الكبرى، في محضر اعترافاته بانه التقى ابن الجدّة وعينه على اموال الجدّة وبيتها والتي ذاع صيتها بامتلاكها الخزائن والكنوز والاسرار فتفتحت شهية المقامر النهمة لديه وقرر ان يستولي عليها باية طريقة كي يسدد فواتير ديون القمار المتراكمة ووجد بعد بحث وتعقب ان كلمة السر التي سيلج بها الى الثروة ودندنة المال المعتق في الاقبية والدهاليز هي (افتح يا ابن الجدة ..)

– اسمع.. سأمنحك عشرات الأسماء بدلا من اسم ابن الجدة..

قال علوان جملته وهو يراقب كيف سينزلق الكلام على صفحة وجه ابن الجدّة والذي تفحص معادن الحروف كلقى نفيسة ،سأل بلهفة..

– كيف..؟

اجابه علوان وهو يدقق بعيني طالب الماكرتين كي يرى فنارات النجاة التي تغريه بالتجديف للوصول الى شواطىء الخديعة..

– انت تعرف عائلتي وشجرة افرادها تضلل كل مناطق العراق..توفي ابي الشيخ وانا الان كبير ابنائه ولكني لن اتفرغ لقيادتهم ،مشاغلي كثيرة ولدي بعض المشاكل التي لم تحل لحد الان..

صمت علوان..كان ابن الجدة ينتظر زخات اسرع من الكلام كما تنتظر الارض العطشى المطر..تنحنح علوان وارسل اشارة من طرف عينه الى طالب الذي انتصب في جلسته على الاريكة الوثيرة في بيت علوان وهو على يقين بانه على موعد مع قرار خطير ..

– انت يا ابن الجدة ستكون كبير العائلة ،وعندها ستكون اسماؤك بعدد انفاسك..

– انا..؟

– نعم انت..لدي اخ يعيش في الخارج منذ اكثر من اربعين عاما لا احد الان يتذكر ملامحه وقد اخبرت العائلة الكبيرة بانه سيتولى قيادتهم ،هم الان بانتظارك على احر من الجمر..سوف لن ينادوك باسمك بل بالالقاب العظيمة التي يسبغونها عليك..

اعتدل ابن الجدة في جلسته..عيناه لائبتان تتقلبان على جمر الحيرة..بلع ريقه بصعوبة..سعل كلاما جافا محشورا بحنجرته..

– وكيف ستعرفني عائلتك الكبيرة..؟

تأمل علوان اصابع ابن الجدة الطويلة والناعمة ، كانت ترتعش من دبيب القلق فيها..

– من خاتمين خاصين تلبسهما في بنصري اصابع يديك..انا من سيجهزك بهما..انظر انهما يشبهان هذين الخاتمين..من يلبسهما سيعتلي كرسي المجد وستضحك له الأيام ولن يجد الكدر ممرا الى قلبه..

افرد علوان كفي يديه حيث تضيء شذرتا الخاتمين سمرة اصابعه، كانتا تتلألآن في خدر القدر البعيد وتومضان في عيني ابن الجدة كأصطفاق اجنحة طيور لاهية سوف تأخذ سفن اسمائه التائهة الى شواطيء الشهرة والمجد والالقاب ..كان الخاتمان ذا فأل حسن عليه ما ان ترصع بنصري ابن الجدة بهما، اعتقدَ بانه رأى خواتم مثلهما عند ابواب الاضرحة ومقامات الاولياء الصالحين، حتى سرت في جسده رعدة كبرى وتسلقته نشوة من اصابع قدمية حتى فروة راسه الناعمة والتي انتصبت كتاج الملوك المرصع بالاحجار والدر الثمين، في الطريق الى بيت الجدة كان يتاملهما مبهورا ويتبختر في مشيته كالطاووس فاردا يديه باصابعهما المتحجرة والتي تتماوج فيها اطياف الشذرتين ولكن الذي لم يخطر على باله ان الكثير ممن صادفهم في الطريق كانوا يحيونه وجباههم تلامس الارض..

– مرحبا امير الشيوخ المعظم..

– دام ظلك علينا يامعالي القائد الاوحد..

– نفديك بارواحنا يا دولة رئيس الشيوخ

– ليزدهر سرّ اسمائك ياحامي القانون والعائلة..

وعشرات من الالقاب التي لم يسمعها ولم تنقر طبلتي اذنيه من قبل وقد فخخها في طريقه علوان وهو يزرع اتباعه من المقامرين والمفلسين حتى بيت الجدة.. نام ذو الاسماء التي لا تعد ولا تحصى ملأ

جفونه تلك الليلة وانسلت الكوابيس تباعا من مخدة احلامه وتفتحت منذ ساعات فجره الاول اكمام ورود اسمائه الجديدة والتي تفوح منها الالوان والاريج..وما ان نزلت الشمس من على سرير الافق وتمطت فاردة اذرع اشعتها على اسطح بيوت الحلة وقارصة خدود امواج نهرها الهارب من جفاء واهمال اهلها حتى وقف ذو الاسماء امام علوان الذي لم يغسل بعد رماد سهر الليلة الفائتة من عينيه في داره الذي استأجره في احد الاحياء البعيدة عن رصد اعين الدائنين..

– استاذ علوان ..انا موافق على ان اكون كبير عائلتكم..

احتضن علوان ذا الاسماء وامطره بالقبل..قال بانفعال.

– هذا حسن..انا متوقع مجيئك فانت الاصلح لهذه المهمة..

وهو يداري ارتباكه بان رسم ضحكة مبتسرة عصرت خديه فانطعنا بحمرة غريبة رغم سمار وجهه الطاغي ..

– ولكن اتعرف ثمن ان تكون كبير العائلة..؟

رد ذو الاسماء ذاهلا..

– وما هو الثمن..؟

مرت سحابة زمن كانت الاثقل بظنونها ووعيدها فما بناه علوان طيلة هذه الفترة سيجنيه قحطا او ربما، كما اخبر الضابط المحقق، بانه سيدثر حياته العارية باردية المال الواقية ويستعيد نشاط مائدة القمار من جديد..

– الثمن هو ثروة الجدة..

صرخ ذو الاسماء بعصبية..

– ماذا قلت..ثروة الجدة..؟

– نعم ثروة الجدة..كل ما احتاجه مبلغا من المال افك به الضائقة التي اعاني منها..

تفرس ذو الاسماء في وجه علوان، تقاطيعه مهتاجة نافرة وشفتاه متشققتان من عطش الانتظار، علق ذو الاسماء بحيرة..

– ولكني لا اعرف طريقا الى ثروة الجدة، لقد عشت في البيت الا اني لا اعلم اين تخفي ثروتها، اعتقد بانها في ادراج سرية في باطن الارض..

اجاب علوان بثقة المقامر..

– دع هذا الامر لي ..ستبات هذه الليلة عندي وغدا ستبكر بالذهاب الى بغداد فالجميع بانتظارك هناك وانا سأتكفل موضوع الكنز وانبش البيت شبرا شبرا وثق باني لن اؤذي امك الجدة ولن اقترب منها..

في صباح اليوم التالي وفي منطقة علاوي الحلة كانت العائلة الكبيرة بانتظار شيخها الجليل ذي الاسماء المباركة...كانت الساعة تشير الى العاشرة رغم ان ذا الاسماء قد خرج مبكرا فهو لم ينم ليلته في بيت علوان الخالي الا من بعض الاثاث المستعمل القذر فقد كانت الاسماء تدوي في اذنيه وتتصادى بين جدران الغرف الملساء وزحام الطرق المشوهة هذه الايام يجعل الوصول الى اي مكان صعبا وعسيرا..وما ان اقتربت سيارة ذي الاسماء حتى تحرك نحوها جنون العائلة الكبيرة ، كانت الافواه ترغي وتزبد تصورها ذو الاسماء بانها تتغنى باسمائه الغريبة والتي تطرب لها آذان السماء وتُغزَل على ايقاعاتها رقصات

الطيور..نزل من السيارة وهو يلبس بدلة جديدة تلصف بالوانها البراقة..فرد اصابعه امامهم وهم ينظرون بعيون خرس الى الخاتمين المعروقين اللذين جرا عليهما المآسي والكوارث.....كان الهياج يقطّع شرايين الشوارع ويمنع مرور المركبات ويحرّم على ظلال نسمة ان تنفذ من بين الاجساد المتراصة ، تصور ذو الاسماء بانه لو نثر طنا من الدخن فان حبة منه لن تسقط على الارض..قال في سره هذا يوم تتويجي وليا على العائلة..كانت الافواه الجافة تهدر بصوت واحد..

– كل الاسماء ما تغير اسمك يا ابن الجدة..

لم يصدق ذو الاسماء ما تسمعه اذناه..رفع يديه الى الاعلى حتى يريهم خاتميه الشذريين وما ان ارتفعت اليدان اعلى فاعلى حتى تلاقفتهما كلبجات الشرطة المعدنية البراقة التي كانت ترطن بفرح من حوله وانهالت عليه صفعات ابناء العائلة الكبيرة وركلاتهم ،فقد اعترف علوان وطالب اللذان هدما البيت وقتلا الجدة وسرقا الكنز بكل شي وهما من دلا الشرطة على مكان غرقه في صحراء اوهامه واصبحت اسماؤه وسيرته وما نسج من مؤامرة ضد الجدّة متصدرة نشرات الاخبار في القنوات الفضائية وبكل اللغات العالمية منذ منتصف الليلة الماضية، حين القي القبض على علوان وطالب متلبسين بالجريمة، حتى صباح هذا اليوم وظهرت صورته المشوشة على الصفحة الاولى من كل الجرائد وفوقها بالخط الاحمر العريض، هذا الرجل الذي بلا اسم وبلا ملامح هو من خان أمنا الجدّة وخرب البيت الكبير..

قصة قصيرة

رجل الثلج

قـــــاســـم حـــــول

قاسم حول من مواليد ناحية المدينّة –البصرة، سينمائي، وممثل، ومسرحي، وكاتب، ومؤسس (أفلام اليوم) و(مسرح اليوم) ومجلة (السينما اليوم)، كما انه أحد مؤسسي تيار السينما العربية البديلة في بداية السبعينات من القرن الماضي في دمشق. صدرت له مجموعته القصصية الكاملة بعنوان "منامات"، وعدة روايات: "العزيز"، " الخندك "، "على أبواب بغداد" و "سوق مريدي"، اضافة الى الكتب التالية: "تأملات سينمائي"، "بستان السينما"، " السينما الفلسطينية " ، " ثلاثة أفلام عن القضية الفلسطينية". أشرف قاسم حول على الصفحات الثقافية في صحف عراقية ولبنانية، وساهم في الكتابة وفي تحرير العديد من الصفحات الثقافية في العراق ولبنان والكويت. كما انتج عدة افلام واخرج اكثر من عشرين فيلما بين طويل ومتوسط الطول، وحازت أفلامه على جوائز في مهرجانات السينما.

دخل في محل لبيع الهدايا. كان يريد أن يختار هدية لإبنته في عيد ميلادها الثاني عشر. كانت هي قد أعجبت بتمثال صغير من الزجاج رافعا يده. تمثال شفاف كأنه مصنوع من الثلج. طلب التمثال من البائع وقدم بطاقته المصرفية للمرأة التي تجلس في الكابينة الزجاجية لدفع قيمة التمثال.

إعتذرت أمينة الصندوق منه قائلة:

– نحن لا نبيع بالبطاقة المصرفية وعليك أن تسحب المبلغ نقدا من صندوق المصرف الموجود على مسافة من هنا.

طلب منها أن تحضر التمثال وأن تلفه بورق الهدايا مع شريط أزرق وأبيض لأن إبنته تحب هذين اللونين. وخرج لسحب مبلغ من

صندوق المصرف.

كان المحل يقع في مجمع تجاري. المجمع واسع ومكون من عدة طوابق وبين أطرافه ممرات أشبه بالجسور. محلات لبيع الأثاث والأدوات الكهربائية وثمة شاشات تلفزيونية تعرض عليها دعايات البضائع وتتخللها الأغاني والرقصات. مواقع للحراسات المدنية ورجال يحملون أجهزة الإتصال. مطاعم صغيرة لبيع الشطائر ووجبات الأكل السريع. مقاه وألعاب أطفال ومحال واسعة لبيع الحمامات الحديثة والمطابخ. معارض لآخر مبتكرات الأزياء ومعارض لوحات معاد رسمها للوحات كلاسيكية تشبه الأصول تماما. وسط كل هذه المخازن والمحال التجارية كان يخشى أن يضيع موقع المحل أثناء عودته فبدأ وهو يمشي يركز على بعض معالم المجمع التجاري حتى يعود إلى حيث محل بيع الهدايا. لم يعثر على صندوق المصرف لسحب المبلغ النقدي فسأل أحد رجال الحراسات الذي يحمل جهازا للإتصال عن مكان الصندوق المصرفي فاشار له الحارس نحو الأعلى. ذهب نحو مكان المصعد. ضغط الزر وأنفتح الباب وكبس على زر الطابق العلوي. تحرك المصعد عاليا ثم توقف. وإنفتح الباب وخرج. وجد نفسه على سطح البناية. سطح واسع إستعمل كموقف للسيارات. كان الوقت غروبا ولم يبق الكثير حتى تغلق المحال أبوابها. كانت بضعة سيارات على سطح البناية. أيقن أنه صعد في المكان الخطأ وأن صندوق المصرف في الطابق الذي تحت. عاد إلى المصعد فلم يجد بابا للمصعد أخذ يدور في جوانب سطح البناية فلم يجد أثرا لباب ولا مخرجا بالسلالم. ذهب نحو حارس موقف السيارات وسأله عن مكان المصعد أو فتحة السلالم فقال له لا أدري وعليك أن تعود من حيث أتيت. حاول أن ينزل من المكان الذي تخرج منه السيارات فمنعه الحارس قائلا هذا خاص للسيارات فقط وهو على شكل منحدر ولا يجوز المشي فيه. بدأت السيارات تخرج من السطح. يضع السائق بطاقته ويفتح الحاجز وتخرج السيارة. وقف أمام بعض السيارات وطلب من أصحابها أن يخرج معهم بسياراتهم فلم يستجب أحد لطلبه. خرجت كل السيارات وبقيت سيارة واحدة هي سيارة حارس موقف السيارات. أغلق الحارس باب الكابينة الزجاجية وتوجه نحو سيارته ليغادر فرجاه أن يحمله معه إلى خارج البناية لكي يدخلها من الباب الرئيسي من أجل العودة إلى المجمع التجاري ويسحب المبلغ ويشتري هدية عيد ميلاد إبنته رجل الثلج. لم يستمع الحارس إلى حديث الرجل بل فتح باب سيارته ووضع البطاقة في جهاز الموقف وأنفتح الحاجز وخرجت آخر سيارة من مكان موقف السيارات. حاول أن يخرج من نفس المكان الذي تخرج منه السيارات إلا أن بابا من الحديد قد نزل وأغلق الفتحة.

بقي واقفا فوق السطح. عبثا حاول العثور على باب المصعد الذي خرج منه. لا يوجد مثل هذا الباب ولا أية فتحة لسلالم تؤدي إلى المكان الذي كان فيه. السماء ملبدة بالغيوم التي صارت تنث مطرا خفيفا باردا أشبه بزخات من الثلج. مر بعض الوقت وبدأ يشعر بالبرد وبدأ الثلج يتساقط أشبه بنتف القطن. صار يمشي فوق السطح محاولا أن يحرك دورته الدموية ويقفز حينا ويفرك يديه حينا آخر. وقرر أن يستسلم

للأمر الواقع حتى يطل الصباح ويأتي الحارس وأصحاب السيارات ويجد لنفسه حلا. ما كان يقلقه فقط هو قلق عائلته وإبنته في حفل عيد ميلادها تلك الليلة. بدأ الثلج يتكاثر ويتساقط بكثافة ووجد نفسه أبيضا وبدأ يهز نفسه ويتساقط الثلج من ملابسه ولكن سرعان ما تلتصق نتف الثلج على ملابسه وشعره. بقي يتعامل مع هذا الواقع. مرة ينظف نفسه من الثلج ومرة أخرى يترك الأمر حتى شعر بالنعاس فإستلقى في وسط مساحة السطح ونام والثلج يتكدس فوق السطح وفوقه حتى غمره تماما فشعر أنه متدثر بلحاف من الثلج وغفا وداهمته بعض الأحلام البيضاء والسوداء ثم تلاشت الأحلام.

أشرقت الشمس عند الصباح وبدأت تذيب الثلج إلا أن الثلج الذي كان يغمره لم يذب بل تداخل في جسمه وأصبح جزءا منه. إنفتح باب موقف السيارات ودخلت أول سيارة وهي سيارة حارس الموقف. أوقفها وإنتبه إلى كتلة من الثلج تشبه الإنسان في وسط ساحة سطح البناية. إندهش الحارس. حرك الكيان الثلجي بقدمه وكان ثقيلا. تمعن فيه. وجده يشبه إنسانا بكامل تفاصيله بدون ملابس ولكنه إنسان مصنوع من الثلج الشفاف أشبه بقالب الثلج المنحوت على هيأة إنسان ويده اليمنى مرفوعة قليلا. كان يشبه تمثال الزجاج الذي نوى أن يهديه إلى إبنته.

إتصل حارس موقف السيارات برجال الحراسة في "البساج" وصعد الحراس إلى سطح البناية الكبيرة. عندما وصل الحراس كان رجل الثلج ينز ماءاً ولكنه لا ينقص من حجمه وكان الماء يسيل على سطح البناية والشمس تلقي بخيوط أشعتها عليه وتحدث إنعكاسا. وقف الحراس الثلاثة. تطلعوا إلى رجل الثلج وأخرج أحدهم عصا صغيرة مشدودة على حزامه وضربه على يده المرفوعة ولكن يده لم تنكسر ولم تتصدع. نظر جانبا فوجد حجرة كونكريتية في داخلها أسلاك ناتئة من الحديد من بقايا بناء المجمع التجاري. مسك الحارس بالحجر وضرب رجل الثلج على رأسه ولم ينكسر ولم يتصدع بل كان ينز ماءاً دون أن ينقص من حجمه. سألوا موظف موقف السيارات عن سر هذه الظاهرة وفيما إذا قد حدث شيء غير طبيعي أثناء عمله قبل يوم فخبرهم أن رجلا كان هنا وسأله عن المصعد ومكان السلالم التي تؤدي إلى المجمع التجاري وهو لا يعرف إن كان قد غادر أم بقي في السطح وخبرهم أنه غادر ورفض أن يحمله معه في السيارة.

مسك الحارس بهاتفه المحمول وأخبر بلدية المدينة بما يجري فوق سطح المجمع التجاري.

لم يمض وقت طويل حتى تواجد رئيس البلدية وعدد من الموظفين ومعهم بعض رجال الصحافة ومصورو الصحافة والتلفزة. أعطى الحارس قطعة الحجر الكونكريتية إلى رئيس البلدية وطلب منه أن يضرب التمثال على رأسه ففعل ولم ينكسر الرأس ولا تصدع فيما أضوية فلاشات المصورين وأضوية مصوري التلفزيون موجهة نحو رجل الثلج والجميع يتهامسون مندهشين.

وصلت سيارة الإسعاف تتبعها سيارة الإطفاء وسيارة البوليس وحملوا رجل الثلج على نقالة الموتى وإنطلقت السيارات من

السطح تتقدمها سيارة رجال الشرطة وهي تطلق صفارتها في شوارع المدينة. دخلوا في موقف للسيارات تحت بناية البلدية. وهناك جلبوا مجموعة من المطرقات الحديدية وبدأوا يضربون برجل الثلج دون أن تسقط منه قطعة واحدة ولم يتصدع ولكنه ظل ينز ماءاً دون أن ينقص ذلك من حجمه. فقرروا إرساله إلى فرن لشوي الطين وصناعة السيراميك لإذابته.

حملته سيارة من جديد نحو فرن السيراميك في المدينة. أخرجوا رجل الثلج وأدخلوه في باحة فيها فرن كبير. وضعوه على قطعة خشبية كبيرة كتلك التي يستعملها الخبازون وأصحاب مطاعم البيتزا ولكن حجمها كان كبيرا.

وتركوا المكان وجلسوا في مكتب المدير منتظرين النتائج.

دفع الفران برجل الثلج داخل الفرن وبقي ينتظر وينتظر وبعد زمن إستغرق قرابة خمسة عشر دقيقة بدأت نار الفرن تتلاشى حتى إنطفأت فأخرج رجل الثلج وكان ينز ماء دون أن ينقص حجمه.

جلس الفرّان أمام رئيس البلدية واللجنة وأقسم لهم أنه سمع أنينا من داخل الفرن وسمع صوتا يقول لماذا أدخلتموني في جهنم وأنا بريء.

ظهرت عناوين صحف اليوم التالي تتحدث عن المعجزة في المدينة. وقرروا أن يتباركوا برجل الثلج في مدينتهم وأن يضعوه على قاعدة في أكبر وأهم ساحات المدينة.

وضع رجل الثلج على قاعدة عالية في أكبر وأهم ساحات المدينة وتجمع الناس وثمة فرقة موسيقية تعزف موسيقى القرب والناس ترمي بالورود تحت أقدام رجل الثلج. تجمع الناس من كل الأديان والملل.

قال المسلمون: أنه رجل هاجر من مدينة البصرة في العراق قبل عشرات السنين وكان طيبا وصامتا طوال هذه السنوات.

وقالت النصارى: إنه مسيحي كان يعيش في روسيا وهرب من النظام الشيوعي قبل عشرات السنين وكان رجلا طيبا وصامتا طوال هذه السنوات.

وقالت اليهود: إنه من اليمن. أمه يهودية وأبوه مسلم وقد غادر اليمن خوفا من التنكيل به بسبب ديانة أمه. وكان رجلا طيبا وصامتا طوال هذه السنوات.

وقالت الصابئة: إن في كتابهم المقدس "الكنز" إشارة ما بين السطور توحي أن رسولا ليوحنا المعمدان سيظهر بصورة بيضاء شفافة.

وقال البوذيون: لا توجد ملامح تدلل على بوذيته ولكن ثمة عمق في مكان عينيه وصغر فيهما ما يشير إلى أسيويته وبوذيته.

صعد الفرّان على منصة الخطابة وقال: أيها القوم أقسم أني سمعته يأن ويقول: لماذا أدخلتموني في جهنم وأنا بريء، ثم شاهدت نار الفرن تخفت حتى إنطفت وبدأ الماء يخرج من الفرن وأخرجته منه وكان باردا لم ينقص من حجمه شيئا وكما ترونه الآن.

قررت إدارة البلدية الإستفادة من الماء الذي يسقط منه لعمل نافورة وإعتبار المكان موقعا للقاء العشاق وكتابة مواعيدهم وعناوينهم.

عمت الفرحة ساحة المدينة وبدأ العشاق يرقصون على أنغام موسيقى القرب ورجل الثلج رافعا يده.

قصة قصيرة

إبتسامة أمى

محمد عباس على داود/لاسكندرية

المهندس محمد عباس على داود قاص وروائي وشاعر من الاسكندرية بجمهورية مصر، نشر روايتين: أشياء لا تحدث، حلم الذي هوى، كما نشر العديد من القصص في المجلات والصحف في مصر و البلدان العربية الأخرى، وحاز على عدة جوائز أدبية. علما انه عضو في العديد من النوادي الأدبية ومنتديات الانترنيت.

نوع من الفرح جديد أطل من حدقتي أمى..كساهما بلمعة متألقة..أبى أيضاً رأيته حليق الذقن ..يجلس راسماً على شفتيه إبتسامة مرحبة بضيوفه الكرام، بينما صورة جدى على الجدار جالساً فى إطاره الداكن مفرود الصدر، مستقيم الطربوش أعلى الرأس، شاربه يبدو من خلف الزجاج مبروماً على جانبى وجهه، ونظراته مغلفة بقوة وإعتداد .. تركته رامياً بنظرتى حولى ..أضواء النجفة تهطل من السقف صفراء مشرقة، تتألق على بياض الجدران، الستائرحرس شرف تقف زاهية حول الشرفة المفتوحة الشيش، بينما منال أختى هناك بالداخل تعد المشروبات التى ستقدمها للضيوف. همست أمى فى أذنى بصوت يشى بتوترها:

– أختك تأخرت.

هرولت الى الداخل أبحث عنها ..مرتبكة كانت ..زائغة العينين ..تطل على المرآة مدققة.. تلمحنى بطرف عينها ..تهمس وهى مازالت تفحص فستانها الجديد وزينتها : مارأيك ؟

تبتسم عيناى ..أقول بمكر: رأيي أنا ؟!

تصطنع الغضب ..أتركها الى المرآة

..وجهى يحمل بسمة هائلة..حافظت عليها لأواجه بها الضيوف.

عبر الممر الضيق الواصل بين الغرف الداخلية والردهة الواسعة حيث نجلس والضيوف سارت منال. مضت كأنما تعبر برزخاً الى ميلاد جديد ..مرفوعة الرأس كانت.. باسمة الوجه.. يمتد شعرها ذيل حصان ناعماً حالك السواد خلف ظهرها..بينما أنوار النجفة تغلف بصفرتها بياض الحوائط ، وطاقم الأنتريه الطوبى، والسجادة الحمرأء المزركشة بالخطوط والتعاريج الزرقاء .. تحمل منال الصينية وفوقها العصير فى أكواب مزينة الزجاج بفروع الشجر الخضرأء، ومعها فناجين القهوة المزركشة بماء الذهب ذات الوجه الثقيل الذى يدل على تمرسها ومهارتها.

تقدمت الى أم العريس وخداها يلتهبان إحمراراً لاقتها المرأة ببسمة حانية وحملت أقرب الأكواب اليها..تركتها الى والده الذى هش لها:- مرحباً بعروس إبنى ..أرخت جفنيها ستاراً يخفى ماأعتراها ..استدارت الى العريس ..تلا قت الأعين فى نظرة ذات مغزى ..جفلت واهتزت الصينية بين يديها ..هب لمساعدتها.. تلامست الأيدى ..إزداد ارتعاد الصينية .. فرت الى أمها ..جلست تحت جناحها مرخية أهداباً ترقب من تحتها مايجرى.

رأيت عينى أمى تتألقان ..ترفع يدها أعلى فمها وتطلق زغرودة مدوية ..مشرقة الوجه كانت بعد قراءة الفاتحة وتحديد موعد العرس.. شفتاها تُنغّمان الزغرودة ووجهها، رغم التجاعيد، يتفتح عن سعادة وهى تطيل وتمد فى صوتها.. تشاركها أم العريس بزغرودة أكبر ..أحدق فى الشرفة التى تعمدت أمى أن تتركها مفتوحة ..مؤكد الجيران الآن يتحرقون شوقاً لإنتهأء الزيارة كى تأتى وفودهم للتهنئة ..أتطلع الى صورة جدى على الجدار.. يقولون أن الموتى يحسون بالأحياء ..ترى ماشعورك الآن ياجدى؟..

بدأت عبارات المجاملة تنتقل كطيور مرحة بين الشفاه ..فجأة وسط هذا سقط أبى ..رأيته يميل على جانبه الأيسر فاقداً القدرة على الحركة، ناظراً الينا بعينين متسعتين تشعان ببريق دهشة ..غطت وجه أمى صفرة..تصلبت قسماتهاوهى تهرول اليه ..تنسى الفرح والضيوف وتحدق فى عينيه هامسة بصوت كأنما يصدر من غور عميق: مالك؟

وهو يبادلها النظر مذموم الفم.

كما أمرتنى أمى وقفت أمام الباب أستقبل المدعوين..أقودهم الى الداخل حيث عرس منال، بينما أمى هناك فى كل مكان ..تشرف على كل مايجرى حولها فى تمرس شديد..كانت قد رفضت الغاء الموعد الذى تم الإتفاق عليه .. أصرت أن يتم العرس قائلة أنها لن تخلف وعداً قطعه المرحوم والدى ..تذكرتها قبل الحفل بأيام وهى تتحدث الّى .. كان وجهها غير الوجه الذى أعرفه وكلماتها غير الكلمات التى تعودتها. حدقت فى عيّنى وهى ممسكة بيدى بين كفيها فى قوة وهى تقول:

– لقد كبرت الآن ..صرت رجل البيت ..هل تعى ماأقول؟

هززت رأسى ..نعم ..وقلبى يرفرف داخل صدرى بقوة ..أردت أن أقول شيئاً ..لم أجد بين شفتى حروفاً تصف مابى ..تريدنى كبيراً..كيف؟ وماذا أفعل..؟

همست ببطء:- ماذا أفعل لأكون كبيراً؟

قطع أفكارى قدوم العروسين والضجة التى ثارت حولهما ..درت أصّور تلك اللحظات بالكاميرا ..الشاب الذى حمل مديتين وأخذ يرقص بهما وسط الزفة ..تصفيق الآخرين..زغاريد النساء ..السعادة التى تغلف نظرات منال وعريسها، بينما أمى هناك تتابع عيناها مايجرى حتى اذا جلسا فى الكوشة تنهدت بعمق ملقية بجسدها على مقعد قريب.

تركتها اليهما ..الورود يانعة حولهما.. الأنوار خلفهما على هيئة قلبين يضمان مقعديهما، وأمامهما الموسيقى والغناء.

استدرت لأمى أسألها أن تأتى ..أريد تصويرها معهما ..كانت تبكى.. إرتعدت الكاميرا فى يدى ..لأول مرة منذ وفاة أبى تفرج عن دموعها ..تترك لها العنان لتنطلق سهلة على ثنايا وجهها دون أن تفكر فى ملاحقتها، أو اعتقالها قبل أن تفكر فى البزوغ كما كانت تفعل.

أدرت الكاميرا اليها ..انتبهت لى.. من بين الدموع بزغت بسمة صغيرة حيية أضاءت وجهها كأنما هى نهار صحو بهى الطلعة، يطل حيياً من خلف أستار الليل مؤذناً بزوال الظلمة.. شد نى المنظر ..التقطت الصورة ..بعدها حين طبعت الفيلم تأملت بسمتها بشغف.

والى الآن أنتقل من صورة الى أخرى متعجلاً، لكننى دائماً أقف أمام هذه الصورة بالذات، ألبس نظارتى ذات العدسات السميكة لأراها بوضوح وعادة كلما نظرت اليهاأسأل اللّه لها الرحمة و أسألها جاداً ..ماذا أفعل لأكون كبيراً؟..ورغم الشجون أبتسم.

عَرَق السواقي ..

اسماعيل جاسم

اسماعيل جاسم كاظم،مواليد 1950 بغداد بكلوريوس اداب لغة انكليزية / الجامعة المستنصرية 1974- 1975. له قصائد عديدة نشرت في الصحف المحلية كتب عدة مقالات سياسية وكتابات نقدية وادبية.

مَدَ الغيمُ انامِلَهُ، تجمعتْ في رأسِ مودتهِ
خطاه
حكايات رستْ في شواطيءِ مهجورة
هاجر الى مدن القطا
ارتعشتْ يداه ،الصوت كان صديقا
المدى كان لغزٌ
رسم من بريق الغيم خيطاً
من هلام
سافر الى جهاتٍ الموغلةِ بدم النيام
ظلتْ انامله تبحث بساقيةِ المنون عن
كنز ، لألؤه اغتسلتْ من عرق السواقي
وظل الكنز مخبوءً
عليه الغيم حراسا
وتراتيل امطاري قناديلا تدلتْ

فغطتْ جميع امصاري
سحابةُ الصيفِ خلعتْ خِمارَها
لعلَ الصيفَ هنا يمطر
فيسقي ما تسلل عبر الليل حتى
الصبح
الغيم لايدري من اين جاء صدى الانامل
في لحظاتها كان الغيم تعبا يرمم ما راح من
الاعوام
ابصر تْ سواقي دجلةَ دموعي خائفةً
تمطر من تعاريج سماواتها المزن
تكتب على صفحاتها قطرات ندى
تعتصر حالمات زمن بصحراء جنوني
تسافر في متاهات موتي ولكن
الورد تُضمرُ كف

وكفي تُضمد العيونُ
الشمس هنا سلالم للغناء
الشمس هنا اغنيات على اعتاب فجر
الليل زبالة كأس،
تسقط من وحي المناجاة
من حصون لن يطأها وسن
او يرجلها الاتون بلا فرس جموح
اقرأ آياتك ، تأتي على وجل ، عندها اكون
رملا
اكون فراغ
انت ايها الواقف كالثلج، كلانا كالماء يصب
على زيت لم يشتعل
انت وطن مهاجر
انا سأبقى اساطير
لتأريخ لن يقرأه غير الصمت ،انتم

طاولات يأكلها الصدأ
وتأكلها السنوات ويأكلني عطر القارورات
المحتضر
بين زقورات الفردوس
امد انامليَ ترتجف
اسحبها ترتعش
يوقظني عشق منفي
يستقر في لحظات البوح
انت طريق نازف
أنا في صولات الزحف كثبان رملية
اغوي جميع اشجار الصحراء
فتلوز خلفي
اتبرأ من رأس
صوتٍ يستجير
وأناملي تبقى ترتعش ...

مجموعة قصائد

حسينة بنيان

إعلان

قِطعٌ سودٌ
يتلاعبُ فيها الصيهود
تعلنُ اسماء
مثل الساعة ..مثل الماء
حين يلبّي عطش الارض
حينَ ..وحينَ
والقطعُ السود
تُسمعُ صوتاً للاتين
صوبَ ديارٍ لانعلمُها
تعدو ..تلهثُ
تتمزّقُ ..تحت رياحِ الصمتِ
وهديل الموج المطريِّ ..تذوب
يختلطُ الحفلُ
بشظايا الاحرف
ليمرَّ الليلُ ..بدون شهود
وتظلُّ القطعُ السود
سوداً ..والاسم ..يغيب

قريباً

يتمادى في أرق المحنة
تستوقفه آيات الله
لركن التمجيد
سأدعو الليلة
ان يسمو ويعود
ويعود القارب من غفلته
في ساعات الغفلة
برهان النسيان ..
سيعود ويجلب آفاق الشفق
من حاق الجنة
قد غاب كثيراً
قبيل خمير الخبز ..وبعد رحيل الخبز
أفترش الموج ..سفيناً يرسو

فوق رفوف المحنة
والغربة صارت داراً
تتباهى في سعة المنفى
سيعود قريباً
بين الليل وبين البرد
نحو أزيز الموقد
ومطبات الخطوة
والهارب تسكنه النار
وظلال الخوف المعتوه
من لمظات الفيء الاولى
وقبل الظاهرة المكسوة
بدماج أحمق
سيعود قريباً
يرسو فيها
يسبقه ..هدم الدار
وولوج النار
وفضول الفجر
في همهمة الثكلى
والفش المنثور
وبقايا طائر..
ونهيراتٌ جفت فوق جذور كحلا
وزقاقٌ لم يعد الاول
في مرآه
وسجونٌ مازالت اولى
وشحوبٌ يسكب
في تجويف مرسوم
تحت الخطوات المنسية
في كتب التموين الاصفر
سيعود قريباً..من خيبته المروية
ليزور الخيبات الاخرى
وبيوت الطين المهدومة
وفق القانون الكاتم للصوت
والعجلات المدفوعة للخلف
تعرفها كل عيون الساحة
والفتيات المذعورات من آفاق تسمو
في قانون السلطة
وفحيح الشرطة
سيعود قريبا
لمرسى غربته السفلى
وبيوت الاهل المنقرضين
بسموم الآمر بالأكل
وجياع الورطة
وضاع النهر
وفتاتي يهلكها المهر
سيعود قريباً من خيبته
للخيبات الاكثر جدلاً
ليمدَّ يديه لطوابير التخمة
الحبلى بكراسي الباطل

ويبدل حائطه المهدوم
بسعير الخيمة

مراسيم
الى استاذي الفريد سمعان

لأول مرة ..حين التقينا
(يتوشحك الربّ والحزب)
وعيون لاتعرف سهواً
وأشاراتٌ بخطوط شمسية
نحو رحيق الصبح
وبشائر فجرٍ آخر
قد يتأخر
مثل رسول سلام
لشبيبة فهدٍ ..وصارم
أيماءتك..كانت
أمراً تربوي
وخطاك ..خفقُ السيسبان
وعشقك ..الرافدان
في (سرداب التهذيب)
حيث الفكر ..وزهو اللحن الجبهوي
لمزايا الفكر السامي
يعلو صوت الاحرار
مطر ..مطر ..مطر
لقمة جبل من كردستان
ومياه النهر المترع
وحين ...السوط
يسحقُ غزلان الحرية
تداعى اليوم..وتداعى التأريخ
واشتبك الليل ببعضه
ظلت ذاكرة العمر
تحظُّ رحيل الكوثر
ليسمو صوتك
بجرح الدهر ..وأمِّ شروق*
شهيدةُ ذاك العصر
وهذا العصر
يسمو صوتك..
ببسمة قلبٍ
لم تتعلم غير الحبِّ
لمباديء الهاي
الفريد سمعان
رأيت شراعك
قارم..من اعماق السبعينات
يزيح الغبرة
ليحظَّ الفكر المعتوه
بعشق الطين الموسوم
بدماء لم ترسُ بعد

* زوجة الشاعر الشهيدة ام شروق

يوميات مدينة

(الجزء الثاني)

عبد الستار نورعلي

* الجمعة 11 ديسمبر 2009
الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً
لا تفتحْ أوردةَ الكتبِ!
فسماءٌ غائمةٌ،
وشوارعُ معتمةٌ
تخلو من مارّهْ!
لا تطلقْ أسرعةَ الأوراقْ!
لا تفتحْ أبوابَ القلمِ!
قد تسقطُ من أعلى السطرِ
فوق سِنانِ القلبِ
بينَ سنابلِ خيلِ الأحلامْ،
قرأتَ صباحاً
أنَّ الظلمةَ رفيقُ الدربِ
في هذا الكونِ المعتمِ،
وفتحتَ الشاشةَ:
أخبارٌ ...
أخبارٌ ...
عنْ عالمِ المرئيِّ،
واللامرئيِّ
في روحِ الغيبْ،
رأيتَ صباحاً
جثثاً
جثثاً
تتناثرُ فوق جدارِ العزلِ
عندَ الخضراءْ،
أمٌّ تصرخُ نادبةً
تُخفي خدَّيها بالدمْ
تبحثُ عن أشلاءْ،
انفجاراتٌ
انفجاراتٌ
انفجاراتٌ
انفجاراتٌ

بألبستان
أفغانستان
عراقستان
صومالستان!
لا تفتحْ أقنيةَ القصرِ!
فمؤلفُها ينامُ
فوق رصاصِ النفطِ!
لا تفتحْ فمكَ على الآخرِ!
الخطرُ الآتي مرسومٌ
خلفكَ في الظلِّ،

* السبت 9 يناير 2010

الساعةَ الثالثةَ عشرةَ
زاكَ عجوزٌ ينزلقُ،
الدرجةُ عشرون تحتَ الصفرِ،
ماذا يفعلُ شيخٌ يترنحُ
بين جليدِ شتاءِ الشارعِ؟
كلبٌ يتبولُ فوقَ الثلجِ،
وأنا خلفَ زجاجِ النافذةِ
أحدقُ
في الشجرةْ،
أغصانُ الشجرةِ
تشتعلُ اليومَ
شيباً،
قدمايَ جامدتانِ،
ويدايَ بلونِ جليدِ الأرضِ،
والقلمُ البارد يحتضرُ

رغمَ الدفءِ الصادرِ
من مدفئةِ الحائطِ
وخزينِ الأيامْ،
كلمتُ النجفَ الأشرفَ
أمس مساءاً،
قال الصهرُ النجفيُّ التاجرُ:
سنزورُ الحضرةَ بعد قليلٍ،
أنتم في حاضنةِ القلبِ
ومرآةِ العينِ
ولبِّ الأيامِ،
إنّا ندعو عندَ أميرِ الحقِّ لكمْ
بالصحةِ والعافيةِ ورفءِ الحبِّ
وسلامةِ ذكرى الأيامْ،
حتامَ تظلونَ
خلفَ حصارِ جدارِ جليدِ الأيامْ
وبرودةِ أعصابِ الحبِّ؟!
قلتُ:
ودعائي لكمو بموفورِ الأمنِ
ووقايةِ سيفِ الجلادِ،
ودوامِ حرارةِ شمسِ الكونِ
في أرجلكمْ،
الشارعُ خالٍ
من مارّةٍ،
ومحلاتُ الأزياءِ الغربيةِ خاويةٌ
بعد الأعيادْ،
لكنَّ القهوةَ عامرةٌ
بصداعِ البردْ،

بين أثير جليد مدينتنا
لا تسمعُ غيرَ عواءِ الصمتِ
ورقاتِ القلبِ
وضبابِ العينينْ،
صرخَ المتنبي يوماً:
واحرَّ قلباهْ!
وتقولُ جلودُ مدينتنا:
وابرداهْ!
هلْ منْ ناصرْ
ينصرُ أبناءَ جليدِ الكونْ؟
تلك الصوماليةُ
بحجابٍ يزحفُ فوق الثلجِ
والموبايلُ فوق الأذنِ
والصوتُ الصارخُ كالطبلِ
تسرعُ في مشيتها
وكأنّ الأرضَ رمالٌ
منْ عمقِ الصحراءِ، تغيبُ
خلفَ الساحرِ
بين أنين الأشجارْ،
جلدٌ يتصوّرُ برداً،
جلدٌ يتصوّرُ حرّاً،
جلدٌ يتصوّرُ
فراغاً،
بينَ جلودِ الألوانِ المختلفةِ

تضيعُ جلودُ مدينتنا،
للثلجِ هناك
طعمٌ خاصٌّ،
للثلجِ هنا
طعمٌ خاصٌّ،
بين الطعمينِ
لا طعمَ على ألسنةِ مدينتنا،
كانَ سراباً،
حينَ حللْنا بين ربوعِ الحلمِ الماضي
كانَ سراباً،
في أول أيامِ البردِ
رقصَ الأطفالُ على الثلجِ،
في آخرِ ايامِ البردِ
رقصَ كبارُ القومِ
منْ قسوةِ إيقاعِ البردِ،
لا تهتزَّ!
فالهزاتُ علاماتُ الصدمةِ،
شغّلْ عقلكَ
والقلبَ
واهدأ!
حدّقْ
في رابيةِ الشمسِ
هناكَ ...

اسكلستونا/السويد

لماذا الرحيل يا نظر؟

مـــــالـــك عـــبـــــدون

كل يوم
تنبت بالأقدام أزهار
تشم
رائحة الجثث
فتذبل...
كل يوم
نذوق بمطعم العويل
كربلاء طازجة..
يا أيها الناس
لا تغلقوا
عيون الموت
برقة
فأريج الإلوهة
منية يابسة
فرطها المجيء

وقل حين أراك
أسمع خريرا
للفطرة
وحروف الشر
يرشنر
على شفاه
موتنا الأخير
إن الباعثين
منك على الاشمئزاز
يشعلون برد الحياء
ليحرقوا
الحمام في السماء
وحدها التنانير
تصرخ
بأمهاتهم الصلفة

هذه سِنْسِنة

قالها الرجل الأخير

تحوم المهد

ترحل عن

راحة الخلق

ألا خلع الشهود ثيابهم؟

ألا خزنوا الزائل بالمجاب؟

فقالوا:

(اللهم مهما عذبتنا بشيء فلا تعذبنا بذل المجاب)*

فلا وديعة هناك

ولا دِيان عادل

نشتاق إلى ظهوره

أيها الغائب

لماذا مجيئك بعيدا عني

إني أعيد الحياة

بملاعق موت لا فضية

إني أعصر

ثدي الرحمة

كي لا يشبعني

حلب الأمل

كي لا أنتظر بستانا

ينزع لي الثياب

أو ضحكة

قشرتها

شفاهك الميتة

* عبارة للمتصوف السرري السقطي حين ذهب إلى باب الحجاب يستغيث ثلاثا.

شقيق الفجر

كاظم ناصر السعدي

تبارك سلسبيلك يا فرات ... على بلوره تلد الحياة
يعانق موجه شرفات روحي ... فتشرق في العيون الأمنيات
بريحان الغموض جرى شفيفا ... وما غير الوضوح له سمات
يؤثث بالندى حلم البراري ... لتنساب الرؤى والأغنيات
كأن طقوس زنبقهِ دعاء ... واشراقات سوسنه صلاة
على أنغامه تصحو الحكايا ... وفي أفق الخيال الذكريات
نوارسه تُسَبِّحُ كل آن ... وتبتهل السهول المرعات
يفيض معينه ليضيء كونا ... مباهجه الفصول الحالمات
ففوق السطح تاتلف المرايا ... وفي الاعماق يجتمع الشتات
ترف حمامة النجوى اشتياقا ... اليه فالحدائق مزهرات
و تمشي الريح حافية عليه ... تبوح بما تخبئه الفلاة
تسافر نحو روعته نشيدا ... تلونه الضفاف الهائمات
كريستال الجمال رؤى صباح ... تهندسها المعاني الكاشفات
تمشط بالحروف الخضر حزنا ... برغوته تكثفت الجهات
شقيق الفجر يا نهر التسامي ... أمن معناك تبتكر الحياة ؟
رحيق الحب في أزهار قلبي ... غناء الروح هذبه الفرات

قـــــــــــراءات

الأقنعة والوجوه:

الدلالات والتجليات في

(حـــدائق الـــوجـــوه لمحـمـــد خـضـيـــر)

أ.م. د. علي إبـــراهيـم/ جـــامعـــة بـــابل

تمهيد

ديدن المبدع الأصيل هو التألق بموضوعاته المتفردة بعيدا عن التكرار أو استنساخ التجارب لمبدعين آخرين. وهذا هو ما إنماز به الكاتب والناقد والقاص والروائي محمد خضير، الذي لا يكتب شيئا دون أن يثير كثيرا من الجدل، ويحرك المياه الراكدة في الوسط الثقافي، ويثير العواصف التي لا تعصف من جهته إلا نادرا، وبين مدد بعيدة، بمعنى أنه يترك نصوصه تفعل فعلها دون أن يدخل في صراعات بينه وبين الآخر الثقافي، في الصحافة أو عبر المنابر الثقافية، فهو حريص على الكتابة المنتجة، بعيدا عن المألوف، أو العادي، هذه التصورات انتابتني منذ لحظة قراءتي لمطبوعه الجديد، الذي حيرني، فلا أدري إلى أي جنس أنسبه، فهو ليس قصة ولا رواية ولا كتابا نقديا ولا سيرة روائية، ولا مذكرات على الرغم من أن كل ما ذكرته تجده فيه، وربما يريد الكاتب نفسه أن يبقينا في هذه الحيرة فهو لا ينقذ قارءه ،ولا يعينه ، فلم يجنس كتابه، وتركه يعيش في عالمه ويتمتع باكتشافاته ... ويبدو أن محمد خضير دمج في كتابه هذا مجموعة من البستانيين ذكرهم، وهم : (طاغور ❖، رودكي ❖❖، جلال الدين الرومي، كشاجم ❖❖❖، عمر الخيام، الشيرازيان، حافظ وسعدي، جبران خليل جبران، بدر شاكر السياب، جورج لويس بوخورس، غابريل غارسيا ماركيز، ومحمد خضير نفسه). فهو يقول " ارتديت لإنجاز هذا الكتاب أقنعة ستة بستانيين عظام ورويت حكاية ستة وجوه استظلت في حدائقهم واستبقيت قناعا سابعا أرتديه في حديقة الأعمار الوسطى التي أرعاها، قناع نفسي التي ستغادر إلى الخان الكبير بأسرع من ذبول زهرة في الحدائق" (1).

إذن هذا هو التأسيس لبداية رحلة حدائق الوجوه، العالم الغرائبي، عالم الحياة منذ الولادة، ثم اليافعة، ثم الشباب فالكهولة فالشيخوخة وصولا إلى الأبدية " خان العالم" على حد تعبيره.

لابد من الإشارة إلى أن مفهوم القناع تناوله النقاد في الشعر، بعد أن تجلى بالمسرح، حيث " تنتمي قصيدة القناع إلى الأداء الدرامي ، ذلك أن الشاعر فيها يستطيع أن يقول كل شيء، دون أن يعتمد شخصه أو صوته الذاتي بشكل مباشر، لأنه سيلجأ إلى شخصية أخرى يتقمصها أو يتحد بها، أو يخلقها خلقا جديدا، وسيحملها آراءه ومواقفه ، تماما كما يفعل المسرحي الذي يختفي وراء أشخاص من صنعه، يتولون نقل كافة ما يريد أن يقوله أو يوحي به " (2). ونجد تعريفا للمصطلح في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب حيث يطلق عليه مصطلح (قناع المؤلف)، وهذا ينطبق جزئيا على مفهوم القناع واستخداماته عند كاتبنا . ومفهوم القناع كما ورد في المعجم هو " إن أصل الكلمة اللاتينية pesona كان يطلق على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء تمثيله للمسرحية، ثم امتد معناه في اللاتينية ليشمل أي شخصية من شخصيات المسرحية، ثم أطلق على أي فرد في المجتمع. وفي النقد الأدبي الحديث استعمل لفظ القناع mask للدلالة على شخصية المتكلم أو الراوي في العمل الأدبي، ويكون في أغلب الأحيان هو المؤلف نفسه." (3). إن ما ورد في هذا النص والنصوص الأخرى التي سوف نتناولها تنطبق على القصة كما تنطبق على الرواية. ويبدو لي : إن اشتغالها على هذين الجنسين الأدبين أكثر فعالية من اشتغالها على الشعر، بسبب قربهما من المسرحية. وبهذا المعنى يرى الدكتور عز الدين إسماعيل" أن القصة ذات الطابع الدرامي هي أرقى أشكال التعبير القصصي المعاصر. وذلك لأنها لم تعد مجرد قطاع طولي في الحياة، بل صارت في الوقت نفسه قطاعا عرضيا، فتبرز عندئذ السطوح والأعماق في وقت واحد، حيث تتحرك السطوح نحو الأعماق كما تبرز الأعماق على السطوح." (4).

و" القناع كما هو معروف من التماهي أو التلبس بشخصية أخرى سواء أكانت تاريخية أم دينية أم أدبية أم أسطورية، تختفي وراءها شخصية الشاعر وتتحدث من خلال النص الأدبي بدلا منه" (5) وهو لا ينحصر بهذا فقط إنما هناك تجليات أخرى أفرزتها دراستنا لـ (حدائق الوجوه).

يتمظهر القناع بمظاهر عديدة إضافة إلى أقنعة الشخصيات أو الأعمار أو المفاهيم فهناك القناع الشمولي والمتعدد من خلال فرد كما ورد في قصيدة عبد الوهاب البياتي (الذي يأتي ولا يأتي) وكانت سيرة ذاتية لحياة عمر الخيام (6).

وإذا كان محيي الدين صبحي يظن أن البياتي استخدم القناع بسبب نظرته النخبوية، وهذا ما استبعده تماما ،ويؤكد رأيي هذا الفصلان اللذان خصهما لدراسة القناع في شعر البياتي (7). أعتقد أن محمد خضير استخدم القناع لمعايير إبداعية، جمالية وفنية بحتة، وللولوج في عمق التجربة الذاتية للشخصيات.

1- أقنعة الأعمار

يلبس الراوي وجه من لا وجه له، في نص

(قنـــاع وجه من لا وجـه له) من آدميـين مسحوقين ومهمشين ومبعدين عن الأشياء كلها، لا اسم، ولا تاريخ ميلاد حقيقي، يذهب هـذا القناع ويلتقي بـالقابلة الأبلية، التي تعد معملا أو(ورشـة) لتوليد الأبناء والبنات، وتتـابع نشـأتهم ومـراحل حيـاتهم حتى رحيلهم، فلديها، من جميع الألـوان تحفظ أسماء الأمهات، لكن الأمر يختلط عليها فلا تدري إلى أي أم ينتسب القناع، ولم نفهم من هذه الزيارة سوى أنه أرانا عالم هذا النوع من البشر، الذي يعيش خارج الزمن، وتتكرر دائرة الموت والحياة وكأن الولادة لا معنى لها ولهذا حاولت هذه القابلة؛ "عقد أنابيب المبايض". حوار مقطوع لا يفضي إلى شيء محدد ، هل أراد معرفة أن عمره مديد... أم أن عمر من لبس قناعهم مديد ، وهؤلاء يكررون بأشكال عديدة...

وفي (الوجه رضيعا تنويعات) يظهر هنا الراوي جليا بالنص، ويتتبع شخصية الطفل الرضيع، والأم تقرأ المستقبل من خلال ولدها، تسقط عليه معاناتها وترى فيه المستقبل المشرق" يا ولدي الحبيب، ما أفطنك، ستعمر طويلا ... وستخلف ذرية هائلة." (8). وفي هذا المقطع يعبر الكاتب عن تفاؤل وقناعة بالمستقبل الذي سوف يتشعب ويأخذ مديات بعيدة وجديدة فـ (الذرية) هي رمـز للآتي المتجـدد، والمخلـوق في رحم الماضي بكل أبعاده الجينية والفكرية والحضارية، وهكذا هي عجلة الحياة تسير من البائد إلى السائد الساري نحو آفاق رحبة من الحياة ...

ورقتان من الحجم المتوسط، مساحة النص الثالث (الوجه صبيا: نزيف الرغيف) صوّر فيه الكاتب حقبة الصبا بكاملها، بتفاصيل مكثفة وافية،يحددها بالأمكنة؛ القرية، طريقها الترابي، المدرسة القصبية، مقاعد الدرس، استراحات الطريق الثلاث، المطحنة، بستان الخس، القنطرة. وقفة وصفية تبطأ الحدث، وتعطيك صورة المكان، الذي يلتصق بزمان الصبا.

يذكر الشخصيات بأسماء مهنهم: (الخبازة، والنزاح، مدير مدرسة، صيادو السمك...) . ويفصل فيما تفرزه هذه المهن، أو تنتجه: (مدير المدرسة – الطلاب)، (النزاح – الكنف)، (الخبازة – الأرغفة)، لماذا يطرح الكاتب هذه البديهيات؟ هل يريد أن يرمز إلى تعب هؤلاء الناس وشقائهم؟، أم أنه يذهب وراء واقعية الحدث؟. أم أراد أن يصور "عناصر التكوين الأولى" (9) أرى أنه يهدف إلى كل ذلك، ويفصل ذاكرا أدوات العمل (عربة الفضلات، الحمار، الطباشير، السبورة، والقراطيس، التنور، المطحنة...)

الراوي يحفر ذاكرته ويأتي بكل هذه الصور، ليشكل عالما مسترجعا، لم يبق منه شيء، بعد أن "مر الزمان" بهذه العبارة يختزل سنينا طويلة من عمره وينتج جيلا جديدا متحضرا نافيا زمن البؤس والحرمان... تراكمات تؤدي إلى تطور..." النزاح تزوج الخبازة وابنتها صارت معلمة في المدرسة " (10) أو تتكرر حلقة التطور" ابن النزّاح خلفَ أباه في المهنة" (11). هكذا استطاع الكاتب أن يعطي تصورا عن حركة المجتمع وتطوره، موظفا جزئيات صغيرة، محسوسة، وتبدو بديهيات، لكنه كان يؤشر إلى مفهوم فلسفي عميق.

في مقطع(الوجه شابّاً: معلّم الطبيعة) يلبس الكاتب قناع الشاب، ونفهم من خلال هذه الشخصية (المعلم الشاب)، وعورة

الحياة وصعوبتها عبر رموز كثيرة: " ذبذبة جسمه تتردد حول مركز مجهول في ذلك السهل."(12). والسهل هنا ليس بمعناها الحرفي، بل ربما يريد الكاتب أن يقول: على الرغم من انبساط الأرض إلا أن الواقع صعب يجعل الشاب يتعثر راكضا، والمعوقات كثيرة، لكنه كان يحس "باندماجه في نظام طبيعة موَّطدة بهرير الكلاب، وأبراج الروث، ودخان التنانير، وقماقم الهوة، وخراطيش الرصاص" (13).

ولكي يتحدث عن الطبيعة بعمق وبواقعية أكثر، جعل للمعلم الشاب معادلا موضوعيا، هو (المعبر المهلهل)، المعبّر هليّل وسماه معلم الطبيعة تعلم منه " أغاني الاجتياز الصعب لنهر الأرواح الغارقة " (14). ولا يرينا الكاتب أفقا أو فوهة نفق يفضي إلى الحياة الحلم الذي ينشده الإنسان، لأن معلم الطبيعة حينما هيأ قاربا لـ "معلم الثورة في درس الأبجديات الكبرى"– وربما هذه الصيغة تعني الإنسان الذي لديه مشروع ثوري– ليعبره إلى الضفة الكبرى، وجد "بانتظاره أشباح العابرين السابقين مع جوقة من الأبقار والثيران والكلاب والأفاعي والغرباء" وهذه النهاية فيها الخير قليل إلى جانب الشر الأعم.

أما في (الوجه كهلا: حارس من زنجبار) نجد الحارس لا يحرس شيئا، إشارة إلى السلام، وما يؤكد هذا المعنى أن النهر " يسوق علب البيرة الفارغة، وقناني الخمر وقطع الخشب مع نفايات أخرى عائمة ..." (15). وهذا دليل على الاستقرار، ويذكر عيد الفطر رمزا للفرح والسعادة، يقابل ذلك خوذة طائفة مؤشر آخر على نهاية حرب حدثت في مكان ما... كل هذه الجمل الإيحائية يسوقها لنا الكاتب وهو يرتدي قناع الحارس الكهل...

والطفل في (قناع طفل المشردين) يختلف عما ساقه من أطفال لبس أقنعتهم ، فهو أنموذج لطفل مشرد، مكانه الشارع ، هم ثلاثة أطفال رآهم في الشارع فإختزلهم، بطفل واحد، ثم طوى السنين فصار الطفل عجوزا، وبقي مشردا في طرقات، يسألونه متى تتزوج، فيأتي الجواب جاهزا "في الأسبوع الذي بلا جمعة " تعبيرا عن الاستحالة وعن حلم لا يتحقق، عن أطفال تتكرر في الشوارع، تهرم وتموت، ربما أيضا في أسبوع بلا جمعة ....

من خلال تداعيات كثيرة وظف الكاتب في (وجه أخير: الستون) وهو يرتدي قناعه الحقيقي الستيني جملة رموز واقعية، يشاهدها يوميا وهو يجلس في المقهى التي تقابل البريد، فيرى الساعي يعود مع حقيبته الفارغة بعد أن أفرغ الرسائل، وجعل من جرس دراجته –الذي ينبه السكان ويعلن عن وصوله– رمزا للحركة اليومية المتكررة، وجعل من قراءة الكف وسيلة لاستشراف المستقبل، وهو ينظر إليه بانسيابيته الطبيعية، وكأن الأشياء تتكرر بتغيرات جزئية، فحين يرحل الرجل الستيني سيأتي ستيني آخر ليجلس مجلسه، ويراقب عجلة الحياة وهي تسير ، ورموزها القهوجي يفرغ بقايا شاي الصباح في البالوعة ليصنع غيره، قطعة النقود ترن على طبق القهوجي النحاسي، ساعة البريد الكبيرة التي تشير إلى حركة الزمن الذي لا يتوقف ...

2– أقنعة الفلاسفة والكتاب والشعراء

عبر قناع طاغور أبحر الكاتب في فلسفة

الصمت وتأملها وحاول أن يضيف : "أنا الذي شغفت بحب طاغور، جاء دوري كي أصرح بتأملاتي ... وأضيف إلى صروح الصمت المرتسم على خلفية النهار المحتضر صورة ظلية لمدرسة طاغور..." (16) ، ويتمنى القاص أن يكون " تلميذا متأملا في حديقة الصمت ، لوضع عمل أدبي إلى الأركان الأربعة للفكر الهندوسي ... " (17).

ويشتغل الكاتب على الثنائيات ليصل من خلالها إلى التكامل أو الموازنة في الكون فـ " الغبطة تجالس الكآبة، وبستاني الموت ينادم بستاني الحب" وهكذا حتى يصل إلى استنتاج على شكل تساؤل: "لماذا تختفي الكائنات البشرية الرقيقة برفق وهدوء وألم صامت، وتبقى الكائنات الأخرى كالجبال والأنهار قائمة لا تزول"؟ (18). لا يخضع الكاتب لهذا المصير وكأنه حقيقة ثابتة لا مناص للإنسان سوى الاستسلام لها، بل يرى أن "الوجود سجن، ونحن لسنا كائنات محبوسة لا مهرب لنا ولا انطلاق"(19). وجاءت المقارنة بين طاغور الذي ولد عام 1861 والزهاوي الذي ولد عام 1863 وما يجمع بينهما هو الإجابات الصريحة التي أدلى بها الزهاوي للصحافة والتي" لا تقبلها تلك الأزمان، ولا بعدها، إلا بمقدار ضئيل من التسامح والتهاون الفكريين. فكأن طاغور أوحى للزهاوي بمعظم إجاباته " (20).

بهذا انماز الشاعران طاغور والزهاوي اللذان أصبحا سيمياء العصور ...

وفي قصة البوراني ينقسم القناع عند الكاتب إلى شطرين: الشطر النائم وهو الذي أتقن اللغة الهندية، والشطر الآخر المتحدث باللغة العربية وهذا ما يخفيه تحت قناع الصمت. و"كل من أروى عنه في هذه القصة يتجسد في أكثر من شطر، المعلم والمربية وكاتب القنصلية والطفل جاراساندا، أعضاء حلقة التنويم المغناطيسي، الذين انضممت إليهم في يفاعتي " (21) ويبدأ قصته متنقلا بين هذه الشخصيات وغيرها...

على الرغم من أن الكاتب استخدم قناع غابريل غارسيا ماركيز إلا أنه لم يتركه وحده كان معه في تصوير الفوتوبيا أو السحرية: " خيال أسطوري مرح ، انشطاري عنيف " (22) ويثبت الراوي أسباب اختياره لهذا القناع، " قد لا تكون بداية موفقة لعرض الطريقة التي اخترت بها قناع ماركيز ذلك لأن الاختيار جرى في ظرف أشد عسرا من أي ظرف إنساني آخر " (23).

والقصة تصور واقعا مفترضا جديدا نتيجة انفجار الكرة فيأتي عالم ليس على أنقاض عالم غابر حيث "حطم الانفجار نظام الزمن الأرضي، ومسحت الإشعاعات من الذاكرة الجديدة أي ذكرى أو أثر من لغة الماضي " (24). لكن المخلوقات التي وجدت بعد الانفجار، كانت " كائنات عاقلة أكثر تعقلا مما توقع فعلا – قادرة على تفهم معاني خطابه " (25). وبذلك يخلص النص إلى أن الكائنات الجديدة ، لا تريد أن تتجرد عن آدميتها " نريد أن نبقى بشرا.. نريد أن نمارس الجنس.. نريد أن نرقص .. أن نعود ذكوراً وأناثاً جنسين منفصلين كما كنا .. شعوبا وقبائل .. أزواجا ..نريد أن نحيا .. نغني ونكتب ونجني المال والحلال.. نريد أن نصنع السلاح ونحارب ونبني ونهدم ونسافر ..نريد ..نريد.. وسرعان ما يعلو البكاء والصراخ ، وتختلط نبرة الرجاء بنبرة الندم، وصوت الحب بالتهديد والبغضاء والطمع

والفصل العرقي والجنسي " (26). ولذلك فإن مشكلة العالم والإنسان متواصلة بخيرها وشرها، ربما أراد القاص القول هذا هو الواقع، فالتغيير بإرادة إنسانية، لا بإرادة كونية لان العجلة ستدور وتتمحور حول محورها البشري، لا مناص ولا خلاص من هذه الحقيقة.

وآخر الأقنعة هي قناع الحدائق وقناع البستاني الذي هو خير من يمثل كاتبنا محمد خضير.

في حديقة العالم وموضوع قناع (خورخي لويس بورخيس) لم أجد قناعا سوى أن الكاتب اتخذ منه محورا للقصة، أو محورا لموضوعه، وربط الحلم أو الرؤيا بالواقع، حيث كان لقاؤه معه بالحلم في (قاعة موسيقى، أو صالة سينما أو مدرجا رياضيا) وكان حلمه نوعا من رؤى التداخل أو التمازج أو استبدال الأقنعة) (27). وربط الكاتب بين المدرج الحلم والمدرج الدائري للمعبد الذي ظهر للرجل الحالم في قصة (بورخس) (الخرائب الدائرية). ويواصل الكاتب حلمه فيقول: " اتصل بي (بورخس) ودعاني. كما دعا بطله (اليخاندرو فيري) إلى حضور اجتماع مجلس العالم في (بوينس آيرنس)، أو في أي مكان آخر في العالم، لكنه لم يرو لي ما رواه تفصيليا في قصته، وإنما فهمت ما عناه هناك في القصة من أن (المجلس كان العالم وأنفسنا) على الوجه الآتي:(الإنسانية هي نحن أنفسنا) أو (إنها عالم من دون أنفسنا)، فما نحن في آخر المآل سوى أقنعة في مجلس العالم" (28). هذه رسالة تهم الإنسانية، أراد الكاتب إيصالها للمتلقي ... ومحمد خضير ظل حريصا على كشف وجوه بستاني حدائقه كاملة ، فألبسها أقنعة مكشوفة وبعضها هي التي لبست أقنعتها ومن خلالها نتعرف على عوالم تثير الدهشة، وترفدنا بالمعرفة والأسرار المخبأة العجيبة. فمثلا في حديقة النبي (قناع جبران خليل جبران) هناك سبعة أقنعة:(المجنون، التائه، السابق، الأعمى، الراعي، المتصوف، النبي) وكان جبران موجودا في هذه الأقنعة يمثل أدوارا سبعة أيضا: (الشاعر، الموسيقي، الرسام، الشفوق، الصموت، المتمرد، المحب) (29). وهذه الأقنعة مثلت سبعة أصناف واتجاهات: (عاهات، الماضي، مواهب، مشاعر، مهن، فلاسفة، أنبياء) ويبحر الكاتب في عوالم جبران خليل جبران، يدخل في قناع ليخرج منه بقصة غير منطقية فنجد مجنونه فيلسوفا، وفيلسوفه مجنونا، أو هو لا حكيما ولا مجنونا "وحتى الأمس لم أكن سوى برعم تفتح، وإياك أن تحسبي أحدا مجنونا، لأننا لسنا في الحقيقة حكماء ولا مجانين، نحن أوراق خضر على شجرة الحياة " (30).

أما قناع أبي العلاء المعري، فقد جعل منه قناعا متواصلا مع الزمن، وهو(قناع رحماني) على حد قول بستاني (حدائق الوجوه)، بعد أن تطرق إلى أقنعة حاول أصحابها أخفاء جمالهم أو قبحهم "سمعنا أن البهاء كان يسدل نقابا على وجهه إذا خرج من داره إشفاقا على الناس من رؤية الجمال الإلهي في صورته البشرية، وكان القصّار الأعور قد عمل له وجها من ذهب يتأله به على أتباعه في خرسان " (31). وذكر إلى ما يشير إلى ديمومة القناع وتداوله" انتحى البستاني ركنا من الحديقة الوسطى، تظلله أزهار شجرة (البقعة النائحة)، وأتم كتابة حكايته الأخيرة، التي سيعبر بها بوابة

(خان العالم)، بعد أن يسلم قناعه للبستاني البديل بين البستانيين المنتظرين على البوابة " (32). وكما أشرنا في موضع آخر من هذا البحث أن (خان العالم) يعني الموت، وهو مبرر أكيد للتداول أو التبادل بين الأجيال وبالتالي ديمومة الحياة. التي تقابل (خان العالم) وهو الموت أو العلم الآخر كما ذكرنا.

3- أقنعة المفاهيم

في قناعه الأول (قناع سيد الظلام) يؤشر على صفات مجاميع من الوجوه السلبية في حديقته، هذه الصفات تجتمع في شخص واحد أسماه "سيد الظلام"، وهي صفة واضحة تدل على الظلامي، الحالم بعودة الماضي المتخلف. "وهو سيد اللصوص، القتلة، سيد المحرمات المنتهكة، الكنوز المباحة..." (33). ويطرح أوصافا عديدة لهذا (الكراكتر) الذي أسس لنمط المستبد، ترسخ في السلوك العام، للفرد والمجتمع، وامتد عهودا طويلة ... ربما أراد أن يرمز للظروف الاجتماعية- الاقتصادية - السياسية. فإذا كان ما ذكرناه يدل على الأخيرة فان الأولى والثانية تتضمنان الأخيرة، لأن المستبد واحد في البيت والمجتمع والسوق والسياسة ... وبفضله تموت الأحلام والخلود، لذا فإن كتاب الراوي الأول والأخير "لم يسطر فيه حرفا وقد عتا العمر" (34).

مفهوم الصمت في (قناع الصمت) يحمل كثيرا من الأبعاد الجمالية في الحياة وفي العمل الأدبي، ولذلك أولاه القاص محمد خضير أهمية ، ولا بد من التفريق بين الصمت الذي لا يعني عكس الكلام، وبين السكون الذي يعني عكس الحركة، والهدوء الذي لا يعني البرود، وبخاصة الهدوء المنتج، بينما البرود يتضمن الكسل والتقاعس. والصمت عند كاتبنا يشكل "عمارة الصمت" شيدها بناءً على آراء (لويس كان) و (ريتشارد انكلاند) وملاحظات المترجمة المهندسة سعاد عبد علي التي نقلت آراء (لويس كان) وعمدتها بآراء طاغور .. (35). وبهذا فإن الصمت مفهوم فلسفي، وليس بالضرورة يحتفظ بطبيعته هو في كثير من الأحيان صمت ناطق، وربما بهذا المفهوم قال الشاعر رامبو : "إن الصمت في حد ذاته قصيدة ".

وخصص محمد خضير في كتابه حدائق الوجوه مقطعا للحب تحت عنوان (أقنعة الحب) وتناوله كمفهوم عاطفي ملازم للطبيعة البشرية، ملتصق بالجسد حتى الموت، لذلك تنقل الكاتب بين كتب الحب قديمها وحديثها عابرا القارات والأقوام مبحرا في (طوق الحمامة) لأبن حزم الأندلسي إلى روما والوركاء وبينهما كتب الحب الكثيرة والشخصيات الخالدة مثل: عشتار، وكلوبترا، وليلى العامرية، ورابعة العدوية... " واستل من وجوه الحب الكثيرة خيوطا نسج بها قناعا لوجهه في مجتمع العاشقين الغابرين، وحفر به ذاكرة زمانه القريب فخلّصَ منها وجها مدفونا في جانب مهجور من الحديقة "(36). وبعد رحلة طويلة بين حكايات وأشعار الحب قضاها في حديقة الحب بأقنعة عديدة يعود إلى زمانه بقناع غانية اسمها (شمامة) ليروي قصتها وكأنه انتقل من التنظير إلى التطبيق.

الخاتمة

- فكرة القناع في القصة أو في الرواية لم يحظ بدراسات وافية بل اقتصرت أغلب

الدراسات على توظيف القناع في القصيدة الشعرية ، بينما هو أقرب للقصة أو الرواية منه للشعر، لأن القناع هو أسلوب مسرحي ، وباعتقادي أن المسرح هو أقرب الفنون للقص بنوعيه القصة والرواية ، ولا أريد أن أتقاطع مع النقاد والباحثين الذين وجدوه في الشعر الذي أيضا أفاد من المسرح والعكس صحيح أيضا.

– وجدت أن هذا الكتاب لم يتخذ نسقا واحدا في الكتابة، فلقد ضم في طياته كتابات أدبية تناولت موضوعات مختلفة، ابتعد عن أسلوب السرد القصصي، طابع فلسفي أو أشبه بالمذكرات ، وتطرقت إلى مجموعة من الكتاب والفلاسفة وأقنعتهم التي من خلالها عالجوا إشكاليات الواقع والذات والمجتمع. بينما وجدت قصصا متكاملة فنيا وفكريا وسرديا ...مثل (الرسام النائم، شمامة، الرحماني). محمد خضير لم يلبس قناعا واحدا، بل مجموعة منها، وجرى تصنيفها على ثلاثة أنواع: (قناع الأعمار، أقنعة الفلاسفة والكتاب، وقناع المفاهيم).

– لم يرتد الكاتب كل الأقنعة بل رأى من خلال أقنعة الآخرين عوالمهم ، فوجد أن بعضهم ارتدى أكثر من قناع كما هو الحال مع جبران خليل جبران.

– لم يكن هدف الكتاب ارتداء الأقنعة والإبحار من خلالها في تجارب الآخرين، بل تناول، أنواعاً من الأقنعة كانت تستخدم للتستر من قبح أو الحفاظ على جمال يلبسها الحكام والقادة.

الهوامش:

* رابندرانات طاغور بالبنغالية: Rabindranath Tagore شاعر وفيلسوف هندي. ولد عام 1861 في الكلكتا وتوفي عام 1941 في منزل السرة على يد أبيه ديبندرانات وأشرفاؤه ومدرس يدعى دنيجندرانات الذي كان عالماً وكاتباً مسرحياً وشاعراً وكذلك درس رياضة الجبر ودو. درس طاغور اللغة السنسكريتية لغته الم وآدابها واللغة البنغالية وبال جائزة نوبل في الداب عام 1913 وأسس مدرسة فلسفية معروفة باسم شانتي نيكيتان بغرب البنغال.)أنظر وكيبيديا، الموسوعة الحرة على النترنيت(.

** أبو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم رودكي Samarghandi، وأيضا له هو مكنوب Rudagi أو Rudhagi وهو شاعر فارسي ، ومن عبقرية شعرية كبيرة في الفارسية الحديثة .)أنظر وكيبيديا ، الموسوعة الحرة على النترنيت(.

*** أبو الفتح محمود بن الحسين الكرماني، المعروف بكشاجم)بضم الكاف(شاعر وأديب، من كتاب الشاء وهو من أصل فارسي. نزل بين دمشق وحلب والقدس وبغداد وحمص واستقر في حلب سوريا . ولقظة ولقب كشاجم مركبة، وتعني من علوم كان يتقنها: الكتابة، والشعر، والفلك للشاء، والجدل، والمنطق، وقيل: لنه كان كاتبا شاعراً اديبا جميل

مغنيا، وتعلم الطب ونزيد في أسه طاء، فقيل طكشاجم ولم يشعر به.)أنظر وكيبيديا الموسوعة الحرة على النترنيت(.

)1(حدائق الوجوه ، محمد خضير، دار المدى، ط1- 2008 : 15

)2(دير الملك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر ، د. محسن اطميش ، منشورات وزارة الثقافة والعلم العراقية ، سلسلة دراسات)301(، 1982، دار الرشيد للنشر بغداد : 103

)3(معجم المصطلحات العربية في اللغة والدب ، مجدي وهبة ، كامل المهندس، مكتبة لبنان –بيروت ، ط 2، 1984: 297

)4(الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، الدكتور عز الدين إسماعيل، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ط1 :279

)5(علامات الحضور والغياب في شعرية النص الدرامي) مقاربات نقدية (، د. سمير الخليل ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط 1 ، 2008 :81

)6(انظر تحليل هذه القصيدة في كتاب الرؤيا في شعر الهواشي ، محي الدين صبحي، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق –بغداد ط1، 1987 : 191

)7(أنظر الرؤيا في شعر الهواشي م.ن : 189،127

)8(حدائق الوجوه، م. ن : 24

)9(حدائق الوجوه، م.ن:28

)10(حدائق الوجوه، م.ن:28

)11(حدائق الوجوه، م.ن:28

)12(حدائق الوجوه، م.ن:29

)13(حدائق الوجوه، م.ن:30

)14(حدائق الوجوه، م.ن:31

)15(حدائق الوجوه، م.ن:34

)16(حدائق الوجوه، م.ن:60

)17(حدائق الوجوه، م.ن:61

)18(حدائق الوجوه، م.ن:63

)19(حدائق الوجوه، م.ن: 64

)20(حدائق الوجوه، م.ن: 68

)21(حدائق الوجوه، م.ن: 69

)22(حدائق الوجوه، م.ن: 97

)23(حدائق الوجوه، م.ن: 97

)24(حدائق الوجوه، م.ن: 103

)25(حدائق الوجوه، م.ن: 103-104

)26(حدائق الوجوه، م.ن: 106

)27(انظر حدائق الوجوه، م.ن: 118

)28(حدائق الوجوه، م.ن: 121- 122

)29(أنظر حدائق الوجوه، م.ن: 140

)30(حدائق الوجوه، م.ن: 139

)31(حدائق الوجوه، م.ن: 187

)32(حدائق الوجوه، م.ن: 195

)33(حدائق الوجوه، م.ن: 19

)34(حدائق الوجوه، م.ن : 20

)35(أنظر حدائق الوجوه، م.ن: 57

)36(حدائق الوجوه، م.ن: 164

الحواضن السردية
تحديد لأفق القراءة

أمجد نجم الزيدي

إن التعامل مع عملية الكتابة بمختلف اجناسها، هو تعامل مع مستويين من التَشكل، المستوى الاول هو الوجود الحقيقي للنص قبل عملية القراءة، والذي قد رُكب وفق آليات كتابة مقننة، خضعت الى ظروف زمكانية خاصة بالكاتب وبيئة الكتابة.

أما المستوى الثاني فهو الوجود المتشكل من عملية القراءة، والذي يسير مع النص بصورة متوازية، ليستفز اشاراته المضمنة، أما بموائمة تلك الاشارات وجميع دوال النص مع مرجعيات القارئ، والتي هي شخصيته المعرفية والتاريخية، وبهذه العملية يظهر نص القارئ خاضعاً لمرجعيات النص الكتابي ومحدداً بأفقه. أو ان يتقاطع معها معيدا بناءها معتمدا على آلية القراءة التي تقوم بأستنطاق أشاراتها ودوالها، ومحاولة التقليل من هيمنة مرجعياتها الكتابية، وتقديم مقترحات تزعزع الاستكانة البنائية للنص، لفتح أفق جديد لتلك الاشارات والدوال، أي تحريك سكونية النص، لينتج دوائر قرائية مختلفة الاحجام، فبهذه القراءة تتمرد الاشارات والدوال على وجودها الكتابي ومراكزه الاشارية والدلالية ، بأفق القراءة الذي يتحدد ربما من خلال تجمع وتوزع دلالات النص في عدة مراكز أو حواضن دلالية، ترسم أفق القراءة بعملية التفاعل بينها.

فلو أخذنا المجموعة القصصية (وتكور الحل عند ظفيرتها) للكاتب المبدع وجدان عبدالعزيز، الصادرة عن دار الينابيع، 2010 وتتبعنا تلك الحواضن المختلفة، التي تتشكل داخلها اشارات ودلالات النص،لرأينا كما في نص (تكويرة اللانظام) ص9، بأن هناك ثلاث مستويات دلالية تمور داخل حاضنة زمكانية، وهي (الشخصية، الذكريات، البيت)، فالشخصية

داخل القصة تنقسم أيضا الى ثلاث شخصيات مختلفة كـ (الشخصية الاولى، لقى، فتاة كلية الاداب)، أن العلاقة التي تجمع هذه الشخصيات كمستوى دلالي أولي داخل النص مع المستويات الاخرى، فهي علاقة توليدية كما في العلاقة مابين الشخصية الاولى والذكريات (كان مستلقياً لوحده، مستغرقاً تماماً بأحلام وردية حملته كله مسافرا عبر مسافات الزمن البعيدة وهو يكتحل بمرور الذكريات) ص9، (يأخذه قارب النجاة بعيدا في شواطئ الحب والذكريات التي تبرعم دوما شذى وحبا أبديا) ص10-11، أما علاقة الشخصية الثانية وهي (لقى) فهي علاقة تصورية اندماجية (أخذت أصابعه تعبث بألبوم الصور، رأى لقى تبتسم مسد شعرها أخذ يقبلها بحرارة)ص10، (صورة لقى ابنته المبتسمة في بداية ألبوم الصور)ص12، أما شخصية (فتاة كلية الآداب) فهي علاقة استعادية /انفصالية (أسفي الوحيد أني لم أكن رساما لأرسم شناشيل البصرة أو ممرات كلية الآداب وذلك الشعر المسترسل الذي يدغدغ النظر والقلب معا لصاحبته..) ص10، (قعد مزهوا ما بين ثيل الحديقة يغازله كأنما يغازل فتاة كلية الآداب) ص11، أما العلاقة الأخرى التي تظهرها تلك الإشارات وهي علاقة (البيت) بالشخصيات، فعلاقته بالشخصية الأولى تعكس عمق الوحدة التي تشعر بها تلك الشخصية (كان مستلقيا لوحده)ص9، (يهتز ومحتويات البيت هزة منفعلة، يستيقظ على أثرها ليغطس بقارب النجاة في يقظة قصيرة أخرى، ويسافر من عالم الظلمة ووحشة الجدران حيث كان وحيدا منذ أيام) ص9، (في هذا المكان بالذات قد تطول الوحدة وتكثر الأحلام ووحشة الظلام وصمت الجدران) ص10، (يتحسس المكان والبيت والمحتويات، لعب لقى، علب عطور وأدوات الماكياج)ص10، وترينا العبارة الأخيرة بأن البيت كان فارغا إلا من أثار الناس الذين كانوا فيه، وهذا تعميق للوحدة التي تشعر بها الشخصية، أما علاقة (لقى) بالبيت فهي علاقة ارتباط وفقدان بآن واحد، حيث إن (لقى) هي جزء من البيت في نظر الشخصية الأولى، لذلك تظهر هناك علاقة سببية بين فعلي رحيل (لقى) واستهداف البيت وتهدمه، أما فتاة كلية الآداب فهي علاقة انفصالية تحاول من خلال الشخصية الأولى التخلص من ربقة البيت الذي هو رمز للوحدة والعزلة والتعويض عنه بالأمكنة التي تجمعه بفتاة كلية الآداب (قعد مزهوا مابين ثيل الحديقة يغازله كأنما يغازل فتاة كلية الآداب، ثم قام يلملم قواه ويعانق أشياء ما تبقى من شق البيت المنتصب) ص11.

أما العلاقة بين الشخصيات نفسها، فعلاقة الشخصية الأولى بـ (لقى) هي علاقة ارتباط بالحياة، أما علاقتها بفتاة كلية الآداب فهي علاقة استعادية تعويضية عن الوحدة والخوف الذي كان يشعر بهما، ولا توجد أية علاقة مباشرة بين لقى وفتاة كلية الآداب سوى إنهما تشتركان بارتباطهما بالشخصية الأولى.

أما الإشارات التي تكتنزها تلك المستويات الدلالية للمكان فهي على التوالي: البيت يحمل إشارة ضمنية للامان والاستقرار والحياة، الحديقة فهي إشارة معززة للبيت، كلية الآداب والبصرة، فهي إشارة إلى ذاكرة والى الحب وحلم مستعاد.

أمـا نص (يبـدو إن الخطـر كـان عابرا)ص13 فقد استند إلى حاضنة مكانية توزعت مابين مكانين هما المكان الواقعي وهي ارض الجبهة (مفازة موحشة يختلج صفير الريح في سمع نبضات الحركة فيها)ص13، (المنطقة رغم تلك الكثبان الرملية التي سرعان ما تنهار مع أسراب الريح تبدو صالحة لحركة الدروع، وقد تكون لحظات مكتنزة بالأسرار والمفاجآت)ص13، أما المكان الأخر فهو مكان افتراضي تعويضي (ما كان ليتحدث لولا ضغوطات حديث الحب للوجوه الغائبة وللقبرات المرتحلة وسواقي الذكريات التي طرز على شواطئها أجمل الأشواق، وازدادت رغبته وهو يدنو من الوصول أكثر ليوزع حبه وشوقه تمائما يعلقها على الأغصان وعثوق نخيل الشطرة ونهر الغراف وعلى تلك الشجيرات المتناثرة خلفه)ص14، (الأصوات تتعالى وقد تقترب، القبرات مازالت تسرع نحو القرى المحروسة بآلهة الوطن المسكون بالعشاق والعذارى)ص14، وداخل هذه الحاضنة المكانية، يتحرك مستوى دلالي واحد، هو الشخصية التي تتوزع بصورة غير متوازية بين (عدنان) الشخصية و(نغم) و(الجنود)، فعلاقة (عدنان) بـ (نغم) هي علاقة استذكارية مرتبطة بالمكان الافتراضي (لم أهذ وسأبقى كذلك أطرز أحلامي ساقية عشق تتورد فيها أشجار قريتي فتبرعم ثانية أعمل او لا أعمل حفلة ميلاد لحبيبتي الصغيرة (نغم))ص15، أما علاقة (عدنان) بـ (الجنود) فهي علاقة مباشرة متماهية مع صورة المكان (الجبهة)، وربما تكون في بعض الأحيان منطلقا إلى المكان الافتراضي، أما (نغم) و (الجنود)، فلا توجد بينهما علاقة مباشرة ولكنهما ربما يشتركان بارتباطها بالشخصية الرئيسة.

أما نص (أول فتاة في العالم) ص16، فإن الحاضنة التي تحتوي المستويات الدلالية للنص، هي الصيغة المجردة للمكان، أما تلك المستويات فهي الشخصية الرئيسية وهي الراوي، وأيضا (الغرفة) التي تظهر في النص كشخصية فاعلة وحركية (زحفت جدران الغرفة حتى ضاقت زواياها المبتلة بدموع الغربة وهي ترتدي الوحشة التي بصمت على الأبواب بقع الظلام) ص17، أما العلاقات التي تنشأ داخل تلك الحاضنة فهي علاقة الشخصية الرئيسة بالغرفة والتي تظهر بأنها علاقة تبادلية (تكتة الساعة تسرق السكون المخيم في الغرفة وتبرز كآبة الجدران الملفوفة بوحشة المساء، وقلب طير يرفرف في قفص الأضلاع) ص16، وهي أيضا فسحة لتشظي الذات (وأنا أتلوى من وحشة المكان وأذوب ألاف المرات بين أشيائي، واضطرب في اختيار أماكن الاطمئنان)ص16، ومع ذلك فأن تلك الذات تحاول الانعتاق نحو الخارج.

أما نص (الغريب في الرحلة) ص45 فان حاضنته هي الذات المولدة للأفعال والصور، وعلاقتها بـ (أنا) النص هي علاقة استكشافية، بينما يأتي باقي الشخوص ومن بينهم الصوت الأنثوي والآخر صاحب الوصية والقوم النحاف والذين يأكلون الجيف..الخ، بصورة ثانوية، وتبدو علاقتهم بالذات الحاضنة علاقة وصفية جاءت لتعزيز الغرائبية التي تسيطر على المكان وأفعال الشخصية، فالمكان يرتبط بالذات بعلاقة توالد، وان بدت النظرة إليه في بادئ الأمر نظرة خارجية موضوعية مفصولة عن

الذات، بيد إن ما أظهره النص من صور غرائبية، قرب المكان إلى النظرة الذاتية المتكيفة مع زاوية نظر الراوي للمكان الافتراضي (لما اشتد عزمي في الدخول انهمر الماء الذي شاعت منه رائحة طيبة على جسدي وألبست ثيابا غير ثيابي ثم في عالم غير هذا العالم الذي أنا فيه امتطيت فرسا غريبة الأطوار سريعة الجري) ص45.

أما نص (كان سفري في إحدى عربات القطار) ص48 فكانت الحاضنة هي الصيغة الزمكانية، مع إن البنية الزمنية بدت خافته، ولكنها موجودة بصورة ضمنية محركة الشخصية الرئيسة، التي هي (أنا) في المكان الذي يتوزع طبقا لتلك الحركية (كنت وحدي بالضبط واعلم إن لا احد في الشارع سواي وقبلها كنت في الدار وحدي أتحسس أشيائي على ضوء شمعة قريبة إلى الخفوت ولم يكن هنالك غيري) ص49، أما علاقة هذه الحاضنة الزمكانية بالشخصيات، فهي عكس ما ظهرت عليه في نص (تكويرة اللانظام) حيث تكون الزمكانية فعلا توليديا، أو مولدا من خلال علاقته بالشخصيات، بيد إن هذا النص يأخذ فيه المكان إطارا موحيا للتغيرات التي تطرأ على الشخصية وحركيتها داخل الزمان المضمر (وحل وأمطار غزيرة وشارع ضيق والساقية الوحيدة فيه مختفية كما اراها من فوق سطح الماء، كنت اضع يدي فوق الهواء اقول كلمات فيها رائحة نفاذة من الحب فتتشظى في الاثير)ص49، (قريب جدا من حافة المصطبة الطويلة تحسست برودة الخشب)ص49، (حرت والطريق الموحل، برودة سرت قوية مع توازي الرطوبة، اقتربت من نعومة المساء، لم اسمع إلا صفير الريح والوحشة)ص٤٩، أما علاقتها بـ(أنا) المتكلم الشخصية الرئيسية والراوي، فهي علاقة استكشافية، بينما علاقتها بـ(هي) هي علاقة وجودية، فللشخصية الرئيسية وجود داخل النص حيث يحرك دواله ويتناوب مع المكان في تعزيز إشاراته وتوجيهها، بينما (هي) فهي وجود مموه، وان حققت نوعا من الحضور من خلال الحوار، لكن النص يظهرها دائما (توارت) ص48، (ذابت أناملها في يدي) ص48، وأيضا (حين التقيها كمن أقبض على ريح) ص50، وكذلك (تغطت تماما بشعر طويل) ص50.

إن العلاقة مابين (الزمان والمكان والحدث والشخصية) هي علاقة تبادلية، تتشكل نصوص المجموعة على وفقها، وربما نجد نصوصا أخرى لديها نفس المشتركات مع ما طرحناه هنا، وربما هناك ما يفارق طرحنا بيد إننا اكتفينا بهذه النماذج ظنا منا بأنها قد أجلت الفكرة التي أردنا توضيحها..

المحظور والتخيل في السرد الروائي

حميد الربيعي

مدخل: الوعي الجمعي والوعي الفردي

ثمة اشكالية قائمة منذ الازل ولازالت تحكم الكثير من السلوكيات حتى في المجتمعات الحديثة وان اخذت مضامين جديدة متأتيه من التطور وتشابك العقد الاجتماعي.

ذلك ماأصطلح عليه اسم الوعي الجمعي والفردي. فقد توارد في موروثنا الاسطوري ان الوعي الجمعي هو الغالب بسبب قوة تاثير الالهة وفقدان الفرد لمفردات تفسير الظواهر مما استدعى بالضرورة الكثير من المحرمات في نمطية الحياة والتسليم بها، فلم يجد الفرد مفرا من الانصياع الى المقدس وان كان غامضا وغير متاح تفكيك وحداته التي يشملها التقديس. لكن تطور المجتمعات وتعدد اشكال الدولة بالاضافة الى انكساراتها الحضارية وايضا صعود وهبوط نجومية بعض الالهة حدا بالفرد لان يناقش المقدس او على الاقل ازاحة الهالة القدسية وجعله في متناول الناس، ان كان نقدا او نقاشا او وعيا، مما حدا بقائمة المحظورات/ المحرمات ان تنزاح من المطلق الى الظلال الخارجة من الموجودات الحياتية، فلم يعد كلكامش الها بعدما تصارع مع انكيدو، بل اصبح سيدا او حاكما لاوروك، بهذه التراتبية إنكفأ معدل الكلي المطلق الى الشخصاني ترافق مع هذا ملامح القدرة على التمييز،الدالة على تشكيل الوعي وبداية الوعي الفردي.

لم يكن هذا التحول التاريخي العظيم ان ينجز زمنيا في حكم سلالة او قيام مملكة اخرى بل ان التاريخ وتراكمه الكمي رافقه تطوير مفردات الحياة وتغير انماطها ساعد في بروز الطرف الآخر الناقص من المعادلة والمشاكس في كل حقبة تاريخية.

في مجتمعات التدوين اصبحت العلاقة

اكثر جدلية لدخول المقدس من خارج المنطوق الحياتي مما فرض قيوداً ومساحات اوسع للمحرم والمقدس والمحظور واعطاه صيغة التعالي لما وراء الوعي الجمعي فتكرس المقدس بجوار المحرم واتخذ صيغة المطلق لكن الأس الذي حكم التطور البشري ببروز الوعي الفردى، احيانا مناقضا واحيانا داعما للوعي الجمعي، ظل قوة مدعومة بتغير نمطية الانتاج والتي هي تحكم السلوك الانساني فكلما تطورت ادواته ازداد لديه الوعي الذي هو وعي الموجودات المتاحة امامه ،بدءا من الخلائق وانتهاءا بالعلاقة الاسرية، وهي المرحلة التي دونت بنزول الكتب السماوية، وان اختلفت بدرجة المقدس والمحرم لكنها جميعا وضعت جداول تنظيم السيرة الحياتية على اساس ان الوعي الجمعي هو المرتجى والوعي الفردي ينتظم في الاطار الكلي.

بهذه الاشكال تداول الناس ماهو محظور وماهو متاح. ان تجاوز الحد الفاصل يعني الخروج الى الموبق، بيد ان الفردانية غالبا تقهر العام واحيانا تقود الى التأزم واللاعقلانية والخراب.

وصولا الى المجتمعات الحديثة اعتقد ان العلائق تغيرت بتحوير المفاهيم والقيم التي تحكم السلوك والمجتمع وان الطفرة الاخيرة بوسائل الاتصالات زادت هذه الارباكية. لقد حدثت في السنوات الاخيرة طفرة هائلة شملت وصول الاعلام حتى وصلت الغرف والبيوت، فما كان يتداول سابقا في اطر ضيقة او منتديات صار الان مباحاً. ان الانفلاق بين الجمعي، والفردي اتخذ الان طابع الشمولية وعلى هذا لم يعد المقدس واحدا والمحرم ايضا، بل اصبح متعددا واحيانا متشظياً في البيئة الواحدة، فالذي نراه محظوراً في الشرق قد يكون مباحاً في الغرب.

ان دخول قيم جديدة والانفتاح وتغير نمطية الحياة من الشخصي الى الشمولي ومارافقها من تغيرات في بنية المجتمعات جعل التعددية هي الفضاء الارحب، مع الاقرار ان الاس العام للعلاقة بين الفرد والجمع لازالت تاخذ مداها في الشرق، وذلك لعدم الاندماجية الكاملة مع الصيغة العالمية والتي تشابكت منذ ثلاثة عقود، الشرق لايعد نموذجا تطبيقا بهذا الصدد بسبب الخصوصية الاجتماعية ورسوخ قيم الوعي الجمعي ولانحسار ومحدودية وسائله الانتاجية. ومع ذلك فان هذا الشرق قابل للتطبيق فى بعض الفرعيات لاختلاف بعض القيم ولخصوصية بقعة من غيرها.

مثال:

في الزمن الحاضر الدم له حرمته وقدسيته في الاعراف المحلية والدولية، ان كانت سماوية او قوانين ارضية، ويجمع الكل على هذا المنطلق، لكنه في العراق الآن يراق مجانا وبعبثية (وراء هذه الاراقة مئات المعادلات الرقمية والحياتيه التي تكتنف حياة الناس هنالك. تنطوي تحت هذه الاباحة 2 مليون ارملة، 5 مليون يتيم، وسلسلة طويلة تبدأ من انعدام الامن وتنتهي بعدم الشفافية). وبناءا على المثال فان الوعي الجمعي السائد يختلف جذريا عما كان عليه في عقد السبعينات، لهذا اتسعت قائمة المحظورات هنالك في الوجدان الجمعي: الفرح محرم، الحرب محرمة، الارملة العانس محرمة. وهكذا انفلت معيار الوعي الجمعي

وبالضرورة اضمحل وخرب الوعي الفردي، ان الدم في المثال السابق خرج من المقدس والمحظور وصار، متداولا وذلك لان القيمة المرافقة للمقدس قد تغيرت وايضا عبرت حدود الواقع الى الخرافي. من هنا نرى ان طرفي المعادلة قد تبدلا من قيم تحكم السلوك الى التجرد بمعنى ان المخيال ياخذ الحركة والتقييم لاحقا.

والسؤال الملازم اذا المخيال صار المعيار الحاكم فكيف يتعامل الروائي معه، وفي اي محطة من هذه المخيلة يأتي المحظور؟

تطبيق : المحظور في مخيلة الروائي

التصور، كما يقول (لوك)، هو استحضار الصورة من الذهن بشكل منطبق على الشيء المحسوس. وقد يكون تصوير الذات او تصوير الحالة او العلاقة بسائر الاشياء، بينما الخيال هو القوة الحيوية والعامل الاول في كل ادراك انساني، اذ انه يحلل ويعيد خلق ويناضل ليخلع على الاشياء وضعا مثاليا يوجد بينها معنى، كما يقول كوليردج، خلق التوازن والتوافق بين الصفات المتضادة او المتعارضة بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام المخيلة التي تعيد فرز الصور من حيث علائقها وروابطها واندماجها في كينونة جديدة، مادتها الاولية هي تلك الصور والاحداث التي تتراكم في الذهن، على السواء من ماضي بعيد او حاضر جارٍ هذه المخيلة عندما تكون مشبعة لجزيئات العلائق تتيح لنا الابداع والالمام بمثل هذه الوشائح، من حيث الالتقاط واعادة الانتاج، ومن حيث تجسيدها كعمل ادبي، لا بد من الامساك بحيثيات هذا التكوين، الذى يبدو طلسما في بعض الاحيان، لكنه بالتاكيد امام المبدع المحترف بصنعته يكاد يلمس تكويناته، بما يمتلكه من وعي ذاتي ووعي معرفي بمجمل الاحداث والحياة التي يعيش في خضمها.

من الضروري التاكيد هنا على الوعي الذاتي باعتباره تجربة شخصية وحصيلة معرفية اتية بالتراكم والالتقاط والفرز والتجسيد تتحلى بمجموعة من المعايير الاساسية وان اختلفت من مبدع الى اخر، لكنها القاعدة لاعادة الخلق، والاختلاف يوضح الحنكة ودرجة الابداع.

خلق البديل التجريدي للواقع

تحملنا الحياة اليومية بالعديد من الصور، تلك التي نعيشها والتي نسمعها من الآخرين و تنقلها لنا وسائل الاعلام، بعضها مايخزن في الذاكرة والبعض الاخر من يذهب الى قيعان الوعي غير المفروز، والتي فى بعض الاحيان تمس حياة الافراد وعلى هيئة احلام او هذيان في الوهن الذاتي الاف الصور تمر الى المخيلة بشكل تجريدي، خالية من وشائجها ونمطيتها وارتباطاتها المكانية والزمانية، اذ تتحول الى المادة الاولية للافكارعندما تحاول ان تتجاوز المجرد، وعبر منطقة الوعي تأخذ اطار الافكار بعدما تعاد صياغتها بهيئة ازاء او افكار، لكن في الابداع تخضع لعملية دمج وتكوين، اي تلقيح هذه بتلك واضافتها بعضها لبعض لتكوين الصورة، يبقى التجريد هو السمة الاولية في عملية التخيل بعد التقاطها من الواقع.

طبع التجريدي على واقع مفترض

لاي عمل ابداعي يحتاج خلق الصور التي فيها يتكون الحدث الروائي والحدث هو مجموع تلك الحكايات التي يدور في خضمها الابطال والتي في مجملها مجموعة الاحداث الاجتماعية لدراما الرواية، وغالبا ماتكون عملية الخلق التي يبدعها اتية من تحول وتحوير المجرد الذي تم اختزانه في الذاكرة، بعدما كان قد تشكل في المخيلة. ان اعادة تجسيد المجرد الى احداث روائية تتطلب مقدرة فائقة وعملية ذهنية مرهقة، وهي التي يقال عنها ولادة، انها اشبه بتحليل عناصر حسابية وجعلها حياة متحركة باعادة النبض لها.

هنا لابد من التنويه بان اختلاف العمل عن غيره يمتاز بمقدار الاجادة فى التحوير من المجرد الى واقعية الحياة في الصورة المفترضة.

ايجاد الصور التى تناسب المجرد و الواقع المحكي

بين المخيلة والذهن تجري سلسلة من التراصات التبادلية وهي في مجملها عملية تنقية واختبار لما يمكن ان يصير ابداعاً / أبتكاراً عن الصورة المكررة الساذجة / العادية. هذه التبادلية لن تكون سلسة ما لم تحكمها المقدرة على التمرين التراكمي الذي يؤطر حياة ووعي الكاتب، سواء كان في السلوك او الوعي الاجتماعي الذي يتواصل معه في الحياة اليومية.

ان تحويل المجرد الى صورة كي يتم ابداعها منتجا ثقافيا لابد لها من ان تحاكي الواقع الذي التقطته منه بمعنى الملائمة فى القبول والتناسب والتقريب، تصغيرا او تكبيرا، هذه العملية هي ماتسمى بواقعية العمل الابداعي

الدلالات والمعنى

هي مجموعة الافكار التي يمارسها و تجسد في صميم الحركة الذاتية للسرد، لاعتبارها شعارات او تايوات جاهزة، سرديا او لغويا، انما مجموعة قيم تمثل المسلك الذي اعيد خلقه من صور الواقع فالدلالات التي يسعى اليها العمل الابداعي لاتمثل الافكار الرائجة في واقع الحياة اليومية والتي تمثل في بعض مظاهرها حركة المجتمع او بعض من هيئاتها الجماعية او الفردية بقدر ماتمثل من قيمة معنوية مغروسة ومغموسة في البناء السردي، او صورها التي تضبط حركة الابطال. ان تشرب وتشبع الشخصيات بالحدث مهما كان جزئيا اوكليا، لدلالة على تمنطق الافكار بشكل سلوك وخطوط تحرك وتقود النص الابداعي، وثمة الكثير من الرؤيا التي تزخر بها حياة مجتمعاتنا الشرقية بدءا من الاساطير ومرورا بالموروث ووصولا الى الحياة العصرية لها منطلقات تخلق قناعات شخصية. ممكن تمثلها بما تمتلك من ادوات في الحياة العامة.

الاستنتاج:

الخيال يبدع الاشكال الحسية المنفلتة من اعماق الوعي انه يتعامل مع حقائق كامنة وراء الظواهر والمحسوسات بينما التفكير (كما يقول هيكل) استحضار واع للبنى والعلاقات التي تقدمها الصراعات، وان التفكير يعمل من خلال قوانين الجدل في تركيب الخيال. المخيال يتشكل تاريخا من الذاكرة الجماعية من فعل الاحداث التي سمتها الانفعال والعاطفة، انها ذاكرة جمعية لاحداث تاريخية انصهرت توحدا بين الافراد

والموضوعات فهي شبكة من الصور والبيانات ترسخت بمرور الزمن وتحمل في طياتها المقدس والمحرم والمحظور والمباح. ان اقتراب السرد الروائي من هذه الساحة او تلك تحده مقدرة الابداع على التحرك في منطقة الضوء ومقدار الأبتعاد عن المحظور – المقدس– تعكس مدى المران الذي اشتغل عليه بالتجارب السابقة مع قدرة الذات الابداعية في تحويل المجرد الى الواقعي، الواقع المفترض والمرسوم جماليا في السرد.

في عددنا القادم

قصة ثياب الأفعى / للقاص سلام حربة

عالم ساحر في رواية للناشئة

جميل الشبيبي

جميل جاسم الشبيبي من مواليد مدينة البصرة، خريج معهد إعداد المعلمين وحاصل على بكالوريوس لغة عربية من الكلية التربوية المفتوحة في البصرة متخصص في الكتابة النقدية منذ منتصف ستينيات القرن العشرين ولغاية اليوم. له كتاب وحيد صدر من دار الشؤون الثقافية –الموسوعة الثقافية – بغداد عام ٢٠٠٧ بعنوان (بناء مدينة الرؤيا في القصة العراقية القصيرة – محمد خضير نموذجا). نشر الأستاذ الشبيبي العديد من الدراسات والقراءات في المنجز القصصي والروائي العراقي والعربي في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

أود الدخول إلى رواية (وردة الفرح) للروائي علي جاسم شبيب من جنسها الأدبي، فهي موصوفة بأنها رواية للناشئة الأمر الذي يعني توجهها إلى متلقين بأعمار محددة هم جيل الناشئة، ولكن كيف يمكن تحديد هذه السن ؟ لابد من وجود مقاييس للنمو الجسمي والنفسي لهذه الفئة من البشر، ومن جانبي سألجأ للتخمين لتحديد هذه الفترة العمرية بما يتراوح بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من السنين أي قبل مرحلة المراهقة .. وسوف تكون القراءة لهذه الرواية اعتبارا من هذه السن، وفيما كانت تقنيات مؤلفها قد لاحظت هذه السن ومتطلباتها ومشاكلها النفسية وتطلعاتها الخاصة ؟؟ هذه الأسئلة وغيرها ستكون ضمن محور قراءتنا لهذه الرواية.

نلاحظ بداية أن فئة الفتيان تعيش واقعا قلقا بين تطلعاتها الخاصة وأحلامها وبين القوانين الصارمة التي تفرضها عليهم حياة الكبار في البيت والمدرسة وفي كل منعطف

من منعطفات الحياة، ولذا يجد الناشئ نفسه وسط تساؤلات محيرة عن معنى وجوده في هذه الحياة وكيف سيتصرف، فهي مرحلة الحيرة والتساؤلات الكبيرة المحيرة، كل ذلك يمكن أن تكون ضمن أفق التلقي في هذه الرواية. ورواية (وردة الفرح) تحاول أن تؤسس مجتمعا يجيب على بعض أسئلة الفتيان وبنفس الوقت تنشئ أسئلة جديدة خاصة، تحتاج إلى أجوبة يدشن هذا العمل الأدبي الجديد بعض هذه الأجوبة. وقد استخدم الروائي بعض التقنيات لتلبية هذه الحاجات وحاول من خلال تقنياتها أن يتحدث لهؤلاء الفتيان.

هناك ملاحظة أولية تتعلق بحجم هذا العمل الروائي (198صفحة من القطع المتوسط)، واللغة التي اعتمدت في سرد أحداث الحكاية الإطارية والحكايات الأخرى المضمنة فيها، فعدد الصفحات كبير نسبة إلى متلقين من سن يغلب عليها طابع التمرد وعدم الاستقرار والصبر على هذا الكم الكبير من الكلمات والجمل السردية والوصفية التي تسهب في إيضاح أسباب خطة الملك ووزيره في زج الأمير في رحلة (مغامرة) محسوبة النتائج لترشيق جسم الأمير وتعريفه بالعالم الذي يحيط بالمملكة، إضافة إلى ذلك الإسهاب في بعض المواقف التي لا تشكل تشويقا يسمح بالاستمرار في متابعة رحلة أو مغامرة الأمير كأمراض الأمير الطارئة والإجراءات التفصيلية في علاجها الأمر الذي سبب إبطاء غير مبرر لحركة السرد، وهو أمر يحتاج إلى ترشيق جسم الرواية أيضا بمعالجة من الروائي لمثل هذه الملاحظات في الطبعات القادمة لهذه الرواية الجديدة والجميلة في آن.

تعتمد رواية (وردة الفرح) الحكاية الإطارية أساسا لها، التي تؤطر حكايات ثانوية تتناوب في الظهور أثناء سرد الحكاية الأساس، والحكاية الإطارية هي حكاية رحلة أمير. ولكي تبدو الرحلة جذابة وممتعة، فأنها تنفتح على بناء عالم سحري غرائبي يستفيد كثيرا من تقنيات الحكاية الخرافية، التي تبدو لقارئها أنها رويت للمتعة وليس لأهداف تربوية أو أخلاقية. ومنذ البداية يعمد الروائي إلى تقطيعها إلى عنوانات جانبية، تضيء وتفسر أو تجيب على أسئلة مؤجلة أو أنها بهذه العنوانات المتنوعة والكثيرة تطرح أسئلة متنوعة عن معنى الحياة فتجد أجوبتها في الرواية نفسها. وخلال ذلك تكتمل الحكاية الإطارية باتجاه نهايتها السعيدة كما هو مألوف في الحكايات من هذا النوع.

ومن أهم سمات الحكاية الإطارية، والحكايات الملحقة بها، أنها تنشئ أمكنة خيالية غير محكومة بزمن معين وأنها تتخذ من الغابات والطرق المتعرجة والأجواء المتقلبة، أساسا لإحداثها، كما أن الزمن فيها يبنى بناء صفريا باتجاه فضاء مفتوح غير محدد. انه عبارة عن سيولة وحركة باتجاه غير معلوم، وليس هناك دالة محددة على الزمن سوى الأفعال النحوية التي تؤسس لحركة السرد، لبناء زمن محدد بإشارات دالة على أوقات الحدث: الصباح أو المساء أو تحديد واضح للفصل الذي تحدث فيه الحكاية الإطارية وهو فصل الخريف.

إن انعدام دلالة الزمن والمكان والاتجاه

نحو تأسيس فضاء طبيعي للإحداث، ينحو إلى التحرر من اسر الأمكنة والانفتاح على الطبيعة لتحرر الأحداث من رتابتها وتتجه اتجاها خياليا لا يحتكم إلى الأسباب والمسببات. وعلى وفق هذا التأليف يمكن للحكاية الإطارية أن تستوعب عددا غير محدود من الحكايات كما هو الأمر في حكايات ألف ليلة وليلة، كما أن هذا النوع من التأليف يستوعب أيضا ظهور العديد من الشخصيات التي تؤدي وظائف متنوعة وتجيب على بعض الأسئلة التي ترد هنا وكأنها بعيدة عن أية إجابة.

تبدأ الحكاية الإطارية حين يشعر احد الملوك بان ابنه الأمير المرشح لان يكون ملكا يعيش ضمن ملذات الحياة الملكية دون أدنى شعور بمسؤوليته القادمة ولذا يستشير وزيره الذي يكون عادة من الحكماء، فيقترح عليه زجه في مغامرة جادة محسوبة النتائج يتعلم فيها دروسا، إضافة إلى ترشيق جسمه البدين. وتنطلق هذه المغامرة / الرحلة من الإجابة بشكل عملي على سؤال أساسه البحث عن وردة مخبوءة في إحدى الغابات تسمى وردة الفرح، من يحصل عليها ويزرعها في حديقة بيته فأنها تجعل حياته سعيدة لا منغصات فيها، أما شروط الحصول عليها فتتم عبر رحلة في الغابات المجهولة الغامضة التي تحيط بالمملكة. وقد وضع الملك لهذه الرحلة كل الاحتياطات التي تقي ابنه من المخاطر المهلكة، إلا أن الأمير عندما يقتنع بالرحلة، يغير طريق الرحلة التي اقترحها الملك، بطريق آخر يدخله فعلا في مغامرة حقيقية، مع المجهول وأسرار الطبيعة التي لم تفك أسرارها بعد.

ومن اجل إدامة الرحلة / المغامرة فان الروائي علي جاسم شبيب يعمد إلى استثمار إمكانيات الحكاية ويطرح من خلال تحققها عدة تقنيات يتعلق بعضه بالحكاية نفسها وتقنيات أخرى لتأثيث الخطاب الروائي بالمدهش والساحر وأسرار الطبيعة ومن هذه التقنيات:

الشخصية في الحكايات

الشخصية في حكايات هذه الرواية ليست كيانا إنسانيا فقط، بل هناك شخوص غير إنسانيين لها دور فاعل في حركة السرد سواء في المساعدة على إتمام الرحلة وإنجاحها أو عرقلتها، وبمعنى آخر فان الشخصية في هذه الرواية تخضع لمعايير الحكاية الخرافية باعتبارها تشغل وظيفة محددة في حركة السرد المتصاعدة كما حدد هذه الوظائف الروسي (فلاديمير بروب).

في البداية يوظف الروائي شخصيات إنسانية تحيط بالأمير وتساعده على إتمام مغامرته كابن الوزير والطبيب والمرافق الصغير والمرافق الطويل إضافة إلى الفرس نعسانه التي نشأت مع الأمير ثم أصبحت احد الشخوص الرئيسيين في الرحلة – المغامرة، ووظيفة هؤلاء الشخوص المساعدة على إنجاح الرحلة، غير أن هناك قوى طبيعية تتصرف بالضد من هذه الرحلة وعرقلتها بل إفشالها كجيوش الذباب والبعوض ومظاهر الطبيعة كالأمطار والأشجار المكتظة مع بعضها والبرد والمرض، كل ذلك يجري في خطة عمل مرسومة بدقة لإظهار قدرة الإنسان وقابليته على التكيف وقهر الظروف الصعبة.

وفي الحكايات المضمنة التي ترويها بعض شخوص الحكاية الإطارية، كحكاية صانع الفخار والقرد الأسود التي يسردها احد مرافقي الأمير يظهر فيها القرد الأسود شخصية ذكية تعرف مكنونات الغابة ، وأسرارها، وقد قدم لصاحب الفخار الذي اعتنى به في بيته كنزا كان مخبأ في احد كهوف الغابة مما جعل صاحب الفخار أغنى رجل في القرية. أما صاحب الفخار فكان يعمل تماثيل للحيوانات المفترسة ويجعلها تصدر اصواتا مرعبة تخيف حيوانات الغابة وتبعدها عن بيوت القرية. وفي الحكاية الثانية وهي حكاية الحطاب سعدون التي غزت الذئاب قريته وقتلت أهالي القرية جميعهم إلا هو وزوجته التي توفيت بعد ذلك مخلفة له طفلة رضيعة لا يعرف كيف يطعمها، يتناوب في سردها الملك والوزير اللذان كانا قد ساعدا في إنقاذ سعدون الحطاب وابنته من الموت أثناء رحلة للملك ووزيره إلى الغابة التي يسكن فيها هذا الحطاب (قال الملك :لقد وضعناه ثلاثة أسابيع في التبن وغسلنا جلده بالماء الفاتر المخلوط ببعر الماعز ...ثم التفت إلى وزيره كان جلده ينسلخ يبيض ثم يحمر ثم ينسلخ مرة أخرى كأنه محروق بنار لاهبة ...) وتكتمل حكاية الحطاب سعدون عندما يصل الأمير وقافلته إلى نهاية الرحلة في بيت الحطاب سعدون، الذي يكون هنا شخصية وراو في نفس الوقت موضحا ما حل به وبابنته وموضحا أسرار العلاقة بين وردة الفرح ابنته وبين الآيل الذي تمتطيه في رحلتها باتجاه مجموعة الأمير التائهة وسط غابة الجون لتكون دليلا لهم في الوصول الى نهاية الرحلة ونجاحها. والشئ الجديد في شخوص الحكايات الثانوية، أنها تظهر بشكلين أولهما: شخصيات خيالية في رحلة السرد الخيالي الذي يقطع متوالية سرد الحكاية الإطارية (رحلة الأمير) من اجل إضفاء نوع من التسلية وكسر الأجواء الصعبة التي تمر بها هذه الرحلة، وثانيهما أنها تصبح شخصيات من لحم ودم تعيش واقع الرحلة أيضا عندما يلتقي الأمير بها في نهاية الرحلة ويوكل لصانع الفخار أعمالا في القرية كإعادة بناء القرية وصنع التماثيل الكبيرة للحيوانات المفترسة للإيهام بوجودها درءا لمخاطر هذه الحيوانات، إضافة إلى أن رحلة الأمير تنتهي بالعثور على وردة الفرح التي تمثلها ابنة الحطاب سعدون، وقد سماها أبوها بهذا الاسم امتنانا منه للملك الذي أنقذه والذي جاء إلى غابة الجون بحثا عن وردة الفرح التي قرأ قصتها في كتاب قديم .

الوصف

يشكل الوصف في هذه الرواية مبنى استثنائيا فهو يضفي على حركة السرد حيوية وإشراقا، خصوصا وانه يبنى بطريقة خاصة تتواشج مع السرد لتعطي صورة فنية حية متحركة، والوصف في هذه الرواية ينهض بوظيفة إثارة الأسئلة حين يعمد المؤلف إلى إنارة بعض الشواهد والرسوم والإشارات والأسهم باعتبار أن هذه الرسوم تشير إلى لغة ثانية (لغة اشارية) تحتاج إلى فك رموزها لتسهم في إنجاح الرحلة – المغامرة، من أمثلة ذلك وصف الصخرة البيضاء والإشارات التي رسمت عليها) أنكشف أمامهم أفق السماء

فبانت على البعد كتلة بيضاء كأنها قطعة طويلة من الثلج، قائمة نحو السماء ..تحركوا على عجل ..فنطت نعسانة تسابق الضياء ..كانت صخرة طولية مرتفعة كأنها مسلة عليها مرقاب فيها إشارات ثلاث..وقف الركب تحت الصخرة وتمعنوا فيها، هناك رموز محفورة على سطحها ..حاول المرافقون وسهلان معرفة معانيها ،ولم يستطيعوا الإجابة على أسئلة الأمير الكثيرة حول هذه الرقعة ...ص56) .ويبلغ الوصف في كثافته وحسيته بل شعريته مكانة فنية مهمة في وصف قصر الأمير الجديد الذي تتبدى طوابقه الأربع لعين الملك أثناء صعوده لتلك الطوابق بما يسمى بالوصف السردي (نظر الملك إلى أرضية القاعة..رخام ابيض ..مقطع بخطوط متماوجة زرقاء ..ابتسم وصعد الدرج إلى الطابق الثاني (...) في الطابق الثاني غرف متقابلة ذات ستائر حريرية بيضاء، وعند الزاوية لاحظ الملك ممرا صغيرا، توجه نحوه ، وجد في نهايته قاعة صغيرة مدورة الشكل ، لها بساط اخضر، وأرائك وكراس ملونة ، وفي الركن مسند مرتفع، عليه فراش من ريش وفوقه مظلة تنزل منها مصابيح ملونة صغيرة ...ص3) وكذلك وصفه لجيوش الذباب والبعوض التي تهاجم الأمير وقافلته أثناء اقتحامهم طريق الذباب أو طريق البعوض ووصف طريق الفراشات باستثمار التشبيه بشعرية عالية :(هبت نسمات رطبة ودفعات من فراشات ملونة تتراقص ألوانها في أشعة الشمس ...حطت على أكتاف الركب ودارت جماعات منها حول رأس الأمير الذي ظل يبتسم وهو يتمايل ..كانت الأرض مرصعة بالألوان والفراشات تطير بهدوء بين أرجل الخيول ..تتصاعد حولهم كأنها اكف صغيرة مصبوغة بالألوان تلوح وترحب بهم ...ص64)في حين يعطي الوصف لطريق الذباب والبعوض انطباعا بصعوبات الرحلة وخطورة هذه الطريق (دخلوا الغيمات) (السوداء)، كان ظلاما كثيفا ورشقات الذباب تصطدم بالراكبين وهم يقتحمون عليها مكانها ..لقد شعر الأمير بثقل الحديد على كتفيه ورأسه وهو منحن لإخفاء عينيه (...) ونظرت عيناه إلى المرافق كان كتلة من سواد عظيم ..عندها عرف سر ثقل كتفيه ورأسه ولكنه داوم على الانطلاق ص59). نلاحظ أن هذا الوصف يرتبط بحركة الأمير وقافلته فهو جزء مكمل من السرد وليس وقفة زمنية يعمد المؤلف فيها إلى قطع حركة السرد للتأمل بما يوصفه، غير أن الوصف بمعناه التزييني الذي يدعو إلى التأمل في جمال الأشكال والهيئات الموصوفة تجسيدا لعظمة الطبيعة وتناسق مكوناتها وتكاملها سنجده أيضا في العديد من المشاهد الوصفية كوصف شجرة الكينا مثلا (إنها شجرة جميلة طويلة الساق جدا بيضاء ناصعة البياض ناصعة كالثلج ملساء الجذع ليس فيها أغصان إلا في أعاليها تتجمع أغصانها وأوراقها مثل شعر الإنسان في الأعلى ،فيها زهور بيضاء كالعناقيد كأنها الشيب يخالط شعر الإنسان ،متوزعة بين الأغصان. أوراقها خضراء مثل أوراق نبات الريحان له رائحة طيبة، يحبه البط الأبيض الذي تسمع أصواته قبل وصولك الشجرة انه حارسها وصاحبها يعيش حولها ويتوالد ص84).

الموروث الحكائي

استثمر الروائي الموروث الحكائي ألشفاهي المترسخ في الذاكرة الجمعية، بشكل ملفت للنظر وفي العديد من المشاهد الروائية وتركز ذلك في الأدوية الشعبية لمعالجة الأمراض الطارئة للأمير، وعلى معالجة إشكالات الرحلة وصعوباتها من خلال اقتراحات ابن الوزير أو المرافقين للأمير، وتتركز هذه الحلول لبعض تلك المشاكل على تصورات شعبية موروثة وسنذكر بعضها لاحقا. ويمثل استثمار الموروث الحكائي في هذه الرواية جزءا مهما من البناء الحكائي الذي لا يحتكم إلى زمن محدد أوشكل محدد من انظمة الحكم، ولذا جاءت هذه الاستخدامات موافقة لبنية العمل الروائي وجزءا أساسيا فيه، وقد شكل ذلك حقلا جاذبا بالتأمل في قدرة الروائي على استخدام الأدوية العشبية وإطلاق أسماء خاصة غير متداولة بل هي من مبتكرات الروائي بما يمكن أن نقترح له مصطلحا خاصا هو المعجم الروائي الذي يضم مفردات وابتكارات متنوعة سوف نشير إليها لا حقا، ومن أمثلة الأدوية العشبية التي ابتكرها الروائي دواء باسم (زهرة الوادي) لعلاج حالة عسر الهضم لدى الأمير، ولم يكتف الروائي بالإشارة إلى اسم الدواء، ولكنه وصفه بشكل دقيق مع تحديد مكانه في الغابة: (جمع الطبيب اثنين من المرافقين وكان صاحب الوجه الصغير يستمع بدقة إلى حديث الطبيب: مكان زهرة الوادي يقع في الوادي المغلق .. ستبحثون عنها بين الصخور الكبيرة لأنها تحتمي بها من برد الجبل والأمطار ... ثم وصفها لهم: زهرة صفراء تنمو على عود واحد لها كرة برتقالية كبيرة وسطها تتفرع منها أوراقها الدقيقة أوراق ضئيلة صفراء جميلة ،اقطفوا الأوراق فقط على مهل وبهدوء كامل..انتبهوا أنها طرية خفيفة اقطفوها دون ذرة من الكرة البرتقالية التي في الوسط ..ص41) وحين يحضرونها يستفيد الكاتب من الطرائق الشعبية في تحضير الأدوية بغليها بالماء مرة ومرتين وثلاثة وعندما يسألون الطبيب عن السبب يقول: (إنها قوية ولو شرب منها في الغلوة الأولى لأضرته لأنها تصبح سامة ..هم يعطونها للفرس بعد الولادة بعد غليها مرتين ص43). وهناك أمثلة أخرى يقترحها الروائي تتعلق بحل بعض صعوبات الرحلة بما يمكن أن اسميه الخيال العملي لحل الإشكالات والصعوبات، من أمثلتها ما يفعله الأمير حين يريد أن يجتاز طريق الذباب إذ يأمر احد مرافقيه بإحضار غلالات طويلة لعمل ملاحف للخيل لا يظهر منها سوى عيونها وكذلك للرجال ص٥٩ أو اقتراح الطبيب عليه بإشعال روث الحيوانات خلال اجتيازهم طريق البعوض لان البعوض يهرب من الدخان وهي من الطرق الشعبية المألوفة في طرد البعوض ما زالت تستخدم لغاية اليوم في القرى والأرياف. ومن الأفكار التي يستثمر فيها الموروث الشعبي توصيفه لمرض الملا ريا وتسميته المرض (البرد الرعاش) ثم توصيف زهرة شجرة الكينا لعلاجه وكلها تستفيد من الطب الشعبي.

المعجم الروائي

يسهم المعجم الروائي في هذه الرواية في تأثيث عالم الرواية، بأسماء وموجودات

المكان الروائي، بالاتجاه الذي يظهر المكان الروائي فضاء صالحا للإحداث التي وظفها الروائي في حكاياته وسروده وأوصافه المنوعة، ونلاحظ في هذا المعجم انه مشتق من عالم الرواية وليس معجما خاصا بالمؤلف يتكرر في أعماله القصصية والروائية الأخرى، وهو يستفيد من الموروث الحكائي والشعبي في اتساق مفرداته ودلالاتها. ولغته مشتقة من مفردات لغة الرواية وعالمها الساحر.

ويشمل المعجم الروائي، القرى المحيطة بالقصر والغابات، الحيوانات ذات الصلة، وأشكالها وأوصافها بطريقة مكثفة، والروائي لا يكتفي بإطلاق الاسم بل انه يلجا إلى توصيفه بشكل دقيق، وكأنه فضاء واقعي، ويبدو أن وجود المعجم ضروري بسبب افتقار الرواية إلى بنية مكانية معلومة أو معروفة تثير في ذاكرة المتلقي تداعيات أجزائه ومكوناته كما هو الحال في الأمكنة الواقعية الموصوفة في الروايات الواقعية التي يكتفي الروائي بإنارة بعض أجزائها المكانية لتتداعى في ذهن المتلقي مواقع أخرى وأخرى، أما هنا فالروائي يحرث في مكان بكر يحتاج إلى تأثيث ملائم.

من اجل ذلك اقترح الروائي مجموعة من المصطلحات الخاصة بهذا المجتمع وكأنها نابعة منه وله وهي تشكل ثروة تخيليه مبتكرة، من الجمل والمجازات والابتكارات العملية التي تشير الى خيال خصب وقدرة عالية في الابتكار الروائي وكل ذلك أسهم في رسم الملامح الفنية والجمالية لهذه الرواية.

إن القاموس أو المعجم الروائي المبتكر يديم التلقي عبر كشف متدرج للفضاءات التي تجري فيها الأحداث عبر مفردات وجمل ومصطلحات معرفة تعريفا مكثفا يكشف عالم هذه الرواية. وهذه المفردات تغتني من حوارات وحكايات وتوضيحات مرافقي الأمير في رحلته وهم ينتمون غالبا إلى هذه الأمكنة والأصقاع التي تجري فيها وقائع الرحلة والحكايات الخاصة بها.

نسشير إلى بعض مفردات هذا المعجم للتعريف به كابتكار جديد في عالم التأليف الروائي:

ملابس مرافقي الأمير: كانوا يلبسون دروعا من الجلد، تغطي الصدر، وسراويل قصيرة من الجلد أيضا يتدلى من حزامها سيف قصير على ظهورهم زوادة من الجلد فيها غذاء الرحلة، وعلى أكتافهم برزت حزم السهام وفي أيديهم أقواس ص 12-13)

الفرس نعسانة (فرس الأمير ولها علاقة بوردة الفرح /اللغز): كانت بنية اللون ويغطي اللون الأبيض قادميها الأماميين، ويتوزع بلطخات متفرقة على صدرها وخاصرتيها، وكانت بغطائها تتمايل كفتاة ملفوفة بعباءة من الزعفران ص12)

منطقة شجر الورد: تحوطها الجبال والغابات، وتحتها بحيرة وفوقها مباشرة عيون الجبل ذات الماء الرقراق كأنه الفضة ص30).

براحة الماعز: فسحة مترية من الأرض، يغطيها بعر الماعز الجبلي، وتفوح منها رائحة الحيوان، فيها يتكاثر ماعز الجبل ذو القرون وهو خطير على الصيادين لأنه يهاجم ويهرب بسرعة ص47).

بحيرة الشروق: انها غير واسعة يا مولاي الأمير، لكن الشمس تجعلها هكذا عريضة وصقيلة، ولما تغيب الشمس تراها صغيرة ملمومة، واضحة. الضفة الأخرى عميقة جدا وفيها أنواع من السمك لم اره في حياتي، كله ملون باللون الذهبي، كان الشمس تودع فيه الوانها ص49).

قرية القنفذة: إنها يا مولاي وسيدي الأمير تقع على الجبل ... مسيرة نصف نهار وأسموها القنفذة لان بيوتها من الخشب الأسود على هيئة مدورة كالقنفذ ص54).

وردة الفرح: يقال انها وردة تعطي صاحبها القوة والفرح الدائم طوال حياته، هكذا مكتوب عندنا في الكتب، حتى شكلها ومكانها، ولكن الحصول عليها صعب، في منتصف كل شهر، عندما يكتمل القمر بدرا لان حراسها كثيرون، أيضا يقال أن حراسها طيور ، ويمكن أن تكون الطيور ملائكة تحرس الشئ الجميل. ص104).

البرد الرَعاش: مرض تجلبه البعوض، ودواؤه يسمى الكينا وليس لدينا منه ...ص69).

غابة الجون: او غابات الجون، هي احزمه من غابات متشابكة، أشجارها عالية، توصل بعد مشقة إلى غابة الجون الأصلية، وهي غابة أشجارها سوداء عالية ، وسميت أحزمتها باسمها، عدا بضع غابات، مفصولة بوديان أو جبال أو فضوة واسعة ، فلها أسماؤها ص81..).

ملاحظة: تومئ غابات الجون السوداء ومصير سكانها المأساوي الذي أدى إلى موت معظم سكانها إثناء هجوم الذئاب عليها إلى بلاد السواد (بلاد ما بين النهرين) وما حل بشعبها من المصائب والويلات في العهد الدكتاتوري لتشابه الصفة والموصوف بأشجار النخيل الكثيفة.

وهناك أسماء خاصة بأدوات الرحلة مثل: شكاء الزيت، مسحوق العفص، عشبة النوم، ساتر الحصران المضفورة، يقطينة العسل، جراب الجلد ...وغيرها من المفردات التي تشكل هذا المعجم.

إن رواية وردة الفرح هي رواية ناجحة بحكاياتها وأوصافها وموروثها ومعجمها ولكنها تحتاج من مؤلفها إلى تشذيبها من الزيادات والاطنابات وترشيقها بحدود صفحات معقولة ، وليس ذلك بالأمر الصعب.

مطبوعات وصلت إلينا

- صهيل البرق يشرب نخب اغترابي/ شعر /علي حمدان الفالح
- نجيب اسطيفان: صراعات الكنيسة وسقوط القسطنطينية. الطبعة الأولى 2011
- بوركهارد مولر: في فضاء الأدب الألماني الحديث، ترجمة مصلح حسين، دار كلمة، أبو ظبي
- د. مجيد مسعود، نظام الحسابات القومية كقاعدة معلومات للتخطيط، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق.
- صدر العدد الرابع من مجلة الأقلام، مجلة فصلية (تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول)2010/ السنة الخامسة والأربعون.